

الإباضية في ليبيا

تأليف: الشيخ علي يحي معمر



الإباضية في ليبيا

تأليف: الشيخ علي يحي معمر



بها السياسة المستغلة ، وحدة الأمة ، إلى أم صغيرة يسهل السيطرة عليها ، والتحكم فيها .

وأنا حين أقدم إليك هذا الكتاب الصغير ، لا أقدم إليك كتاب تاريخ ، يعنى بتسلسل الحوادث وترابطها ، ولا أقدم إليك كتاباً يرافق مواكب السلطان يحصى خطواته ، ويبرر أخطائه ، ويفرض حكمه على الأمة الكريمة ، وإنما أقدم إليك صوراً من حياة الأمة المسلمة في أدوار كثيرة من التاريخ انتزعها من سيرة الفرد العادي ، ومن حياة المجتمع الهادئ في بعض الأحيان ، وأخذتها من مواطن النضال ، وميادين القتال في بعض الأحيان الأخرى ، وكل ما أرجوه منك أيها القارئ الكريم ، أن تقرأ الكتاب كله ، وأن تتغاضى عما فيه من ضعف الأسلوب ، أو ركافة التعبير ، أو حدة النقاش ، وأن تتعمق إلى الحقيقة التي أقصد إليها ، والمعنى السامي الذي أرمى إليه ، فإن قصر قلومي عن إبلاغ ذلك إليك ، فإن ما أهد إليه من كل كتاباتي ، أن تذوب الفوارق بين الأمة ، وأن ترجع هذه الأمة إلى كرامة الإسلام ، وأن تعلق أواصرها بالله ، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

مقدمة

يسرني أن أقدم إليك أيها المسلم الكريم ، الحلقة الثانية من هذا الكتاب الصغير ، الذي سميته " الإباضية في موكب التاريخ " وفي هذه الحلقة التي أطلقت عليها " الإباضية في ليبيا " أحدث عن هؤلاء الناس الذين يسكنون الجزء الواقع بين مصر وتونس من الوطن الإسلامي الشاسع ، هذا الجزء الذي يسميه الناس اليوم " ليبيا "

وما ليبيا ومصر وتونس والمغرب والباكستان وتركيا وغيرها مما يقع بينها أو حولها إلا وطن واحد ، لأمة واحدة ، تنتشر على أغلب قارات ، في عظمة وشموخ ، رغم الحدود التي افتعلها الاستعمار ، في زمن الاستعمار ، وحافظ عليها الاستغلال ، في زمن الاستقلال ، ورغم التدويل (1) الذي يدعيه أصحاب المطامع على كل قطعة من هذه القطع ، ورغم الشعارات التي تقسم

1 - أقصد بكلمة التدويل في هذا الفصل جعل كل قطعة من الوطن الإسلامي الكبير دويلة صغيرة منفصلة عن بقية الأمة في نظام الحكم والسياسة.

البشر، في فترة من تاريخها الطويل، فهل كانت الأهرام حقاً من الشواهد على عظمة مصر؟ أيام كان خوفو يتولى زمام الحكم فيها؟

قد تكون هذه الظاهرة براقعة خادعة، ولكن الإنسان إذا تغلغل إلى حقيقة التاريخ، سرعان ما يعرف أن هذه الشواهد أبعد شئ عن حقيقة تاريخ الأمة المصرية في ذلك الحين. إنها قد تكون صورة من تاريخ خوفو، فرعون مصر المريض بداء الحفارة، أو دليلاً على تمكن هذا المرض من نفسية ذلك الملك الطاغية، ولكنها ليست على كل حال حقائق من تاريخ الأمة المصرية.

إن الناظر الساذج قد ينبهر بعظمة هذا العمل، وقد يحسبه من أمجاد الأمة، ولكن هل

نجد حقاً في ذلك العمل عظمة ومجداً؟

أعتقد أن تلك الحالة كانت أبعد شئ عن حقيقة العظمة والمجد، وأقصى شئ عن تاريخ الأمة وأعمال الشعب.

مائة ألف من الأجسام الفتية، والسواعد القوية، تسخر لنحت الصخر، ودرجة الحجر، مدة لا تقل عن عشرين سنة، لو وجهت هذه الجهود لعمل مثمر، لشقت مجرى نيل ثان يروي صحراء مصر القاحلة، فوجد فيه الملايين من سكان مصر جنة على الأرض، ولكن النزوة الحمقاء التي سيطرت على رأس ملك المريض بداء الحفارة - أعوزته العظمة في نفسه، فراح يلتمس لها الوسائل في الخارج - أثبت أن توجه تلك القوى إلى الاتجاه النافع للأمة، فإذا بمجهودات الأمة جميعاً تسخر لإرضاء هذه

التاريخ بين الدولة والأمة

إن تاريخ الدولة، قد يكون هو نفسه تاريخ الأمة، وقد يكون جانباً من تاريخ الأمة، وقد يكون أبعد الأشياء عن تاريخ الأمة، والمؤرخون في أغلب الأحيان يندفعون إلى تسجيل حركات دولة ما، وأعمالها، على أنها تاريخ الأمة التي تسيطر تلك الدولة.

وفي الأحيان التي تكون فيها الدولة مستبدة أو صاحب السلطان طاغياً فإن المسافة بينها وبين الأمة سحيقة البعد، ومع ذلك فإن الكتاب الذين يشتبهون أن يكونوا حداة للموكب الظالم، أو أبواً لدعايته يكتبون وهم يعتقدون أو يتظاهرون بأنهم تاريخ الأمة، وقد وقعت بهذه الطريقة مغالطات كبرى في تاريخ البشرية، وسوف أضرب أمثلة لما أرمى إليه حتى يتضح فكري للقارئ الكريم.

يتحدث مؤرخ عن عظمة الأمة المصرية في عصر الفراعنة، ويلتمس الشواهد على ما وصلت إليه هذه الأمة من مجد وحضارة، فيقدم للقارئ الكريم، الشواهد الثابتة التي لا تتغير، يقدم إليه الأهرام، هذه الجبال الشاهقة التي صنعتها أيدي

النزوة الطائشة .

وتحضر عشرون عاماً من حياة هذه الأمة لتبنى قبر شخصين . وتنصبر وهي تعمل تحت لدغ السياط ، لتقدم الجنون قوة البدن وثمره الإنتاج ، والمال القليل الذي تحصل عليه بالكفاح المستمر .

وفي هذا الحين ، الذي تبلغ فيه الأمة المصرية أحط ما تصل إليه أمة من الذلة والهوان ، والاسترقاق والمجاعة تحت حكم طاغية ، لا يجد بعض المؤرخين عنثاً في أن يشيدوا بالمجد العظيم الذي بنته الأمة المصرية . حين أقامت الأهرام .

إن هؤلاء المؤرخين يحسبون أن السلطان أو الأداة الحاكمة هي الأمة ، وما دام فرعون يعمل فإن عمله يعتبر تاريخاً للأمة ، وهم حين ينظرون إلى هؤلاء الآلاف من الناس ، الذين يكادسون الرمال ويرصفون الطرق ، ليدخرجوا القرية ليحمل نفقة العام ، كأما كل واحد من هؤلاء جاء محض إرادته ليبنى لنفسه برجاً في هذا القصر العظيم ، ولم يلحقوا الفقر والذلة والمهانة التي تبلى بها الأمة ولا العذاب والسياط التي تسلط على هذه الجماهير الكادحة ، في عمل شاق ليست له ثمرة إلا الشهوة ، شهوة فرعون أن يكون عظيماً ، وأن يكون قويا وأن يكون من المخلدين .

فهل يعتبر هذا العمل حقاً من تاريخ الأمة ؟ هل تعتبر هذه الآلاف من العمال المسخرين الذين يدههون الصخر من الصبح إلى المساء ، وأبناءؤهم يقتلهم السغب والفاقة ، هل تعتبر هذه الآلاف العاملة تحت السوط والسيف ، من الأمة ؟

وهل يعتبر عملها هذا تاريخاً للأمة ؟

إنني لا أستطيع أن أتصور ذلك أبداً ، وكل ما أفهمه أن هذا قد يكون صورة من تاريخ فرعون ، وأن هؤلاء الآلاف الذين يعملون باستمرار مدة عشرين سنة ، ما هم إلا آلة صماء ، يحركها زر في يد فرعون . فهم في الحقيقة ليسوا قسماً من الأمة ، فيكون عملهم تاريخاً لها ، وإنما هم قوة في ساعد فرعون ، وسواء كان هذا العمل الذي عملوه والجهد الذي بذلوه ، والجبل الذي شادوه ، سواء كان ذلك عظمة ومجداً ، أم مرضاً وشهوة ، فإنه من تاريخ فرعون وحده . لا من تاريخ أمته .

ضربت المثل بهذه الحوادث لأنني أعتقد أنها واضحة .

ومن المؤسف أن أكثر المؤرخين في مختلف العصور - حتى في هذه العصور التي كادت تتحرر فيها البشرية من طغيان الفرد واستعباده - لم يتحرروا من هذه النظرية التي لا تفرق بين الأداة الحاكمة والأمة ، فتجدهم يلهثون وراء السياسة يحدون لها ويصفقون ، حاسبين أن عظمة التاريخ في أن يسيطر رجل أو هيئة ، على بقاع كثيرة ، فيتمتع بما لا يتمتع به غيره من شهوات ، ثم يسجلون ذلك على أنه تاريخ الأمة ، أمة ذلك الرجل ، أو تلك الهيئة .

إن هذه الصورة لا يمكن أن يكون فيها تاريخ الدولة تاريخاً للأمة . إن تاريخ الأمة بعيد جداً عن هذه المظاهر السخيفة ، التي تهدر فيها كرامتها ، وقوتها وإنتاجها .

أما الصورة الأخرى التي يكون فيها تاريخ الدولة هو تاريخ الأمة ، فذلك عندما تكون الأداة الحاكمة خاضعة لقانون الأمة

وشوراها ، فلا تصدر إلا عن رأيها ، ولا تمتاز بشيء عن أي فرد منها ، وفي الفتوح الإسلامية زمن الخلافة الرشيدة أمثلة واضحة لذلك. إن تاريخ الدولة في ذلك الحين هو نفسه تاريخ الأمة. وذلك لأن ما يصدر عن الدولة هو ما يصدر عن الأمة راضية به رغبة فيه .

إن الأمة جمعاء كانت تقوم بالغزوات الفاخة مندفعة إليها . متسابقة إلى القيام بها ، دون وعود بالمرتبات أو حصر بالدواوين . أو إكراه بالتجنيد الإجباري . وإنما كانت انتفاضات منبعثة عن عقيدة من أمة كاملة ، ليس للأداة الحاكمة منها إلا تنسيق العمل وتنظيم الصفوف . ولذلك كانت هذه الحركات تاريخ أمة لا تاريخ دولة . وأن الدولة كانت داخلية في الأمة ، معبرة عنها تعبيراً صحيحاً صادقاً لأن جميع ما تقوم به من نشاط داخلي أو خارجي كان يصدر عن حقيقتين ثابتتين: حكم الدين ، ورأي الأمة .

أما الحالة الثالثة التي تكون فيها تاريخ الدولة جانباً من تاريخ الأمة ، فأعنى به عندما تقوم دولة في قسم من أقسام الوطن . وتخص هذه الدولة أن تصدر في أعمالها عن حكم الدين ورأي الأمة . وفي التاريخ الإسلامي أمثلة من ذلك .

ولم أحسب هذا التاريخ تاريخ الأمة ، لأن الأمة ، أكبر من ذلك وأوسع ، فعمل هذه الدولة الصغيرة تعبير عن قسم من الأمة . وهو وإن كان تعبيراً صحيحاً صادقاً إلا أنه ينقصه الإجماع أو الأغلبية المطلقة .

الوطن الإسلامي

إنني أعتبر الأرض الإسلامية وطناً واحداً بحدوده الشاسعة ، وعندما أضطر إلى تتبع التقسيمات السياسية الموجودة الآن ، أحس بالمرارة والألم ، ولقد كان تاريخ الأمة الإسلامية في عصوره المختلفة ، مرتبط بالحوادث ، متحد المشاعر ، متوافق العواطف ، مشتبك المصالح ، متصل الأجزاء . ورغم ما اصطنته السياسة من حدود ، فأنت حين تسافر من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى تمر بعدد من الدول وتتخطى مجموعة من الحدود ، وتختلف عليك أشكال من الحكم ، وقد تحس بما يعتمل في نفسية هذه الدول من عداوة وبغضاء ، وحروب حارة أو باردة ، ولكنك في كل ذلك تشعر أنك تعيش في أمة واحدة ربطت بينها العقيدة ، التي وجهت قلوب أفرادها جميعاً إلى الإيمان بالله ، ومحبة الأخوان في الدين ، وتجد التاريخ الحقيقي لهذه الأمة التي تبسط على أكثر قارات العالم ، في وحدة الشعور والعاطفة والعقيدة والأمل ، وفي طريقة التفكير والكفاح والعمل . وفي الاتجاه الذي يتجه إليه الأفراد والجماعات ، وفي عدم اعتراف هذه الأمة بالحدود التي تفصلها عن بعضها ، فتخترقها رغم حرس الحدود ، والعقوبات المترتبة على ذلك.

إن تاريخ الأمة يكمن في الأعمال اليومية من أفراد وطبقات هذه الأمة في وطنها العام ، بعيداً عن أحداث الدول ، هذه الدول التي تفرض سلطانها لتثبيت قواعد حكمها ، وتقر دعائم نفوذها ، وتسخر كل شيء لإرضاء شهواتها ونزواتها، دون نظر إلى حقيقة الأمة أو مستلزمات الدين .

وحين يذهب بعض المؤرخين يتحدثون عن أعمال هذه الدول المختلفة ، حاسبين أنهم يتحدثون عن تاريخ الأمة الإسلامية ، يغفلون عن حقيقة هامة وهي البعد الشاسع بين ضمير الأمة وعقيدتها ، وعملها وأملها ، وبين مجرى الحوادث التي تجري عليها تلك الدول المستبدة ، إن حقيقة تاريخ الأمة أعمق من أن يكون أعمالاً تقوم بها دولة دون أن تستمد هذه الأعمال من حقيقتين ثابتتين : دين الأمة ، ورأى الأمة الحق . وحتى في هذه الحالة لا يكون تاريخ هذه الدولة تاريخاً للأمة إلا إذا كانت الأمة كلها مجتمعة على اعتبار هذه الدولة واعترافها بها ، وخضوعها لأحكامها ، خضوعاً شرعياً ، حسبما قرره الدين لتنظيم الدولة ، مع احترام كرامة الأمة سياسياً ، واجتماعياً ، واقتصادياً ، واحترام كرامة الفرد في سلوكه مع الدولة والناس ، وفي سلوك الدولة والناس معه .

إنني حين أحدث في هذا الفصل وفي هذا الكتاب فإنما أحدث عن الأمة الإسلامية ، والدولة المسلمة ، وما حديثي عن الفراعنة في أسطر سابقة إلا مثل عابر . سقته لتوضيح فكرة ... إن الحروب التي قامت بين الدولة الأموية والخوارج ، أو بينها وبين الشيعة ، أو بينها وبين الدولة العباسية ، أو بين غيرها من الدول

التي تعاقبت على الحكم ، أو تنازعت عليه في مختلف العصور الإسلامية ، إن هذه الأحداث الدامية لا تكون من تاريخ الأمة الإسلامية ، لأن الناس الذين اشتركوا فيها كانوا محمولين عليها ، إما بالخوف ، وإما بالطمع ، وإما بالتغريب ، فهم ينفذون إرادة واحدة ولذلك اختلفت أنظار الأمة إلى القائمين بهذه الحركات . فأيدت كل قسم من هذه الأقسام طائفة من الناس ، من أجل الأغراض السابقة ، أما الأمة فهي تعرف أن تلك الحروب ليست لمصلحة الدين ، وليست لمصلحة الأمة . وعلل من ينطق برأي الأمة أسباب تلك الحروب فجعلها مرة (الثريد الأعفر) ومرة أخرى (بغلات معاوية الشهب) .

إن هذه الحوادث ، ليست تاريخ الأمة ، فإن انتصار الدولة الأموية على الخوارج ، أو قضاؤها على ابن الزبير ، أو تغلب الدولة العباسية على الدولة الأموية ، أو تغلب أية دولة مسلمة على دولة أخرى مسلمة ، لا يحسب مجداً للأمة المسلمة ، أو حقيقة من تاريخها ، فإنه ليس من تاريخ الإسلام ، ولا من تاريخ الأمة المسلمة ، ولا مما يحسب مجداً للإسلام ، أن يقضي بنو أمية على الخوارج والشيعة ، ولا أن ينتصر بنو العباس على بنى أمية ، ولا أن ينتزع بنو فاطمة كراسي الحكم من بنى العباس .

إن هذه الصور وأشبابها قد تكون صوراً من تاريخ رجال بنى أمية ، أو بنى فاطمة أو الخوارج أو ابن الزبير ، أو بنى العباس ، ولكنها ليست بحال من الأحوال صورة من تاريخ الإسلام ، أو تاريخ أمة محمد عليه صلى الله عليه وسلم .

إما هذا العدد الوفير من الناس ، الذين تتكون منهم الأداة الحاكمة ، كالأمرء والوزراء والقواد والأعوان والأجناد في الدول المستبدة ، فهؤلاء لا يكونون جانباً من الأمة ، وإنما هم عبارة عن جهاز آلي ليس له إرادة ، ولكنه يتحرك بإرادة الحاكم المستبد ، سواء كان هذا الحاكم فرداً أو هيئة ، إنهم عبارة عن صاروخ موجه ، يبعث به الحاكم للتدمير متى شاء ، ولن يدخل ضمن آلات هذا الصاروخ البشرى ، إلا خائف ، أو طامع ، أو مخدوع ، بالعقيدة ، أو المذهب ، أو الشعار ، وإلا فما هي مصالح الأمة في نقل أداة الحكم من بنى أمية إلى بنى العباس ، أو بنى فاطمة ، أو بنى تميم ، أو غيرهم من القبائل والأجناس ، وفيهم يندفع آلاف من الناس ليحطموا بنى أمية ، أو يحطموا الحسين ابن علي ، أو يحطموا بنى العباس ؟

وهب أن شخصا أراد أن يجري تصفية على آلات هذا الصاروخ الذي تستعد دولة من الدول المسلمة ، لتضرب به دولة أخرى مسلمة ، فأخرج منه كل من دخل فيه بالخوف ، وكل من دخل فيه بالطمع ، وكل من دخل فيه بالخدعة والتغريب ، حين صورت له الحقائق على ما هي ليست عليه . هب أن شخصا فعل ذلك فهل يبقى هذا الصاروخ صالحاً للعمل ؟ وهل يبقى من هذا الجند شيء يستحق أن يطلق عليه كلمة الجيش ؟ ويمكن أن يدخل معركة مهما كانت هذه المعركة صغيرة ؟ إنه لن يبقى بالتأكيد إلا اليد التي تمسك بزر الصاروخ ، وهي تضغط على فراغ .

والحقيقة التي أرمي إليها من هذا البحث الطويل ، أن تاريخ الدول الإسلامية التي تعاقبت على الحكم ، والتي تنازعت عليه

، والتي اقتسمته ، إن تاريخ هذه الدول ليس هو تاريخ الأمة الإسلامية ، لأن تاريخ الأمة الإسلامية إنما ينبع من ذاتها ومن نفسياتها ومن الأعمال التي تصدر عنها برغبة ورضا واقتناع ، دون تخويف أو تطميع أو تغريب . أما تاريخ الدول والأمراء والحكام فهو تاريخ أفراد لا يمثلون أمة ، بل كثيراً ما يكونون أبعد الناس عن الأمة وسيرتها .

ولما كانت الأمة الإسلامية أمة لها دين ، وضع لها نظاماً كفيلة بإسعاد الإنسانية ، مجتمعاً وأفراداً ، وهذا الدين يساوي في الحقوق والواجبات بين جميع أتباعه ، من السلطان أو صاحب الحكم ، إلى أدنى رجل من الأمة ، فإن أولئك الذين يخرجون عن هذا المنهاج ، وينافقون عن أمر دينهم ، ويحيدون عن سبيله ، لا تحسب أعمالهم على الأمة ، ولا يوضع تاريخهم في مقام تاريخها ، لأن مسلك الأمة بين ، وتاريخها واضح ، وسلوكها على العموم جار في الطريق الذي اختارته إرادة الله ، ليؤدي بهذه الأمة إلى السعادة . السعادة التي يعلم حقيقتها خالق الإنسان ، لا السراب البراق الذي ينخدع به بصر الإنسان .

إن الله قد أختار لأمة محمد الإسلام ديناً ، وأوجب على الدولة وأداة الحكم فيه قانوناً ، فما سارت على ذلك القانون فهي من الأمة ، وتاريخها وعملها ومجدها للأمة ، وإذا انحرفت بها الشياطين عن سبيل الله ، فحسبها متاع الحياة ، وما متاع الحياة إلا غرور .

ولعل أوضح صورة لهذه الفكرة هي واقع الأمة الإسلامية

في هذا العصر، هذه الأمة التي تنتشر على أفريقيا وآسيا وأوروبا، وتاريخ هذه الأمة هو مجموع سلوك أفرادها وطوائفها، تلك الأعمال التي تنبعث في كامل الوطن العام، أما الأعمال التي تقوم بها هذه الدول المتناثرة في كثير من بقاع الوطن الإسلامي فليست من تاريخ الأمة، إنها تاريخ رجل، أو رجال، وصلوا إلى كراسي الحكم بوسيلة من الوسائل، ومنهم من هو أبعد الناس عن فهم حقيقة الأمة، وحقيقة مشاعرها، وحقيقة أعمالها ومطالبها، ومع أن الأمة وحدة لا تنجز، فإن أولئك الذين يتولون الحكم، ويحسبون أنهم أقاموا دولة، لا ينفكون يقيمون الحدود بين أجزاء الأمة، ليصنعوا منها أمة مختلفة: هذه عربية، وهذه تركية، وهذه فارسية، وغيرها، ولم يكتف أصحاب المطامع والاستعمار حتى هذا، فذهبوا إلى تقسيمها دويلات صغيرة جعلوا منها ممالك وجمهريات.

إن هذا الشعارات الزائفة، وهذه المبادئ الضالة، أبعد ما تكون عن الإسلام، وعن تاريخ الإسلام، إنها جوانب من تاريخ أولئك العدد القليل من الناس، الذين نادوا بها، وفصلوا بين أبناء الأمة الواحدة، والدين الواحد، ليحققوا لأنفسهم شهوة السلطة، وشهوة المتعة، وشهوة المال.

ومن الأخطاء التي أوحى بها الاستعمار، فتلقفتها أذان السياسيين من هذه الأمة، فانطلقت بها ألسنتهم وأقلامهم: كلمة الصداقة والأخوة تزج بها بين هذه الدويلات المسلمة، القائمة على قطع من الوطن الإسلام، فيقف الخطيب منهم أو السياسي وهو يحسب أنه أوتي فصاحة سحبان حين يقول:

الدول الشقيقة، والدول الصديقة، وهو يقصد بالدول الشقيقة الدول التي تحكمها هيئة عربية أما الدول الصديقة فقد يكون من بينها أعدى أعداء الأمة، وكم أتألم وأنا أسمع خطبا من أولئك الذين بقدر فيهم فهم القضية الإسلامية فهما صحيحا، حينما تجوز عليهم هذه الخدعة الاستعمارية، فتجدهم وهم يتكلمون عن الجزائر (2)، أو عن فلسطين، أو عن الكويت، أو موريتانيا، فيعبرون عنها بهذه الكلمة التي لقنها الاستعمار لأتباعه - الدول الشقيقة - حتى يقرر في أذهان الناس، أن كل دولة من هذه الدول حقيقة قائمة بنفسها، قد يربطها بالدولة الأخرى، علاقة القرابة أو الصداقة، أو المصلحة، ولكنها مع ذلك شيئان منفصلان، وتقطيع الأمة المسلمة إلى أشلاء متناثرة، هي أعظم غاية يسعى إليها الأعداء بكل ما أوتوا من فكر ومكر.

إن الكتاب الكريم، يقرر أن الأمة الإسلامية أمة واحدة في إندونيسيا وتركيا وإيران والباكستان والجزيرة العربية ومصر والمغرب الأقصى وما بينها، فقال: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً). أما قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) فالمراد به - والله أعلم - أن الأخوة هي العلاقة التي تربط بين أولئك الذين أتصفوا بالإيمان في جميع مراحل التاريخ، إن المؤمنين في هذا العصر إخوان للمؤمنين الذين سبق بهم الزمن والذين سيأتون مع الزمن المقبل (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي

2 - كتب هذا الفصل قبل أن تتحرر الجزائر، لكن طبع الكتاب تأخر لأسباب خارجة عن إرادة المؤلف.

قُلُوبِنَا غَلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا).

ولعل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يوضح هذا المعنى أتم توضيح . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وددت أنني أرى إخواني . فقال بعض أصحابه رضي الله عنهم : أو لسنا بإخوانك يا رسول الله ؟ فقال عليه السلام : أنتم أصحابي . وإنما إخواني قوم يأتون من بعدى . يؤمنون بي ولم يروني) أما قوله صلى الله عليه وسلم : (ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمى) فهو نص في هذا المعنى . ولا يوجد أي دليل على قصر معناه على الأفراد دون الدول .

إن المؤمنين الموجودين في عصر من العصور قوة مندفعة لأداء الرسالة التي أناطها الله بهم . وليست العلاقة بينهم علاقة الأخ بأخيه يحسن إليه ويهاديه وكل منهم مقيم في منزله . ولكن العلاقة بينهم هي العلاقة التي تربط جماعة تشترك في القيام بواجب . يسأل عنه كل فرد منهم . ولذلك فليس من الحق أن تعتبر قضية الجزائر للجزائر . وقضية فلسطين لفلسطين . وقضية إندونيسيا لإندونيسيا . وقضية ليبيا لليبيا مثلا . إن هذه القضايا وغيرها من القضايا . هي قضية الأمة المسلمة . الأمة الواحدة . التي تمتد من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى .

وهذه الجهود الضعيفة التي تقوم بها هذه الدول لتساعد إحدى قضايا الأمة في جانب آخر . أو دولة أخرى . في صورة مبالغ من المال تجمع من تبرعات الأفراد . أو في خطب رنانة تلقى في

مجتمعات حافلة . أو كلمة حماسية على منبر هيئة الأمم . إن هذه الجهود الضعيفة ليست هي ما يطلب من هذه الدولة . أو من هذا القسم من أقسام الأمة .

إن هذا التصرف يدل على أن هذه الدولة التي تقدم مساعداتها على هذا النحو مقتنعة بأن الجزائر . أو فلسطين أو غيرها . حقا شقيقة . لها من الحقوق ما للأشقاء . مواساة في المصيبة . ومشاركة في الفرح . وصدقة عند الحاجة وما أشبه ذلك . ويظهر أن الناس مقتنعون بأن هناك فرقا بين الواجب على أبناء فلسطين في مدافعة إسرائيل . وبين غيرهم . وهذا الافتناع خطأ كبير في حقيقة الأمة المسلمة . إن ما كان يجب على سكان الجزائر في محاربة فرنسا هو الواجب على بقية البلاد الإسلامية والدول الإسلامية . لو أنها آمنت برسالة الله وعملت بها . وما يجب اليوم على الفلسطينيين في مدافعة إسرائيل . واستخلاص الحقوق منها . هو ما يجب على كل مسلم في كل قطر من أقطار الإسلام . وإنه لحق على الدول المسلمة أن تعرف هذا الواجب . وأن تعمل له . وأن تنظم سير الأمة لتحقيقه . ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين ضرب مثلا للمؤمنين بالجسد الواحد لم يقل ذلك عبثا . وإنما أراد أن يقرر أن المؤمنين في كل عصر من العصور حقيقة واحدة . في آمالهم وآلامهم وأعمالهم . وأنه لا يحق لأي واحد منهم أن يعتبر نفسه منفصلا عن الباقي وأنه يقدم له مساعدات .

إن ما قدمته الدول العربية والإسلامية للجزائر وفلسطين وهي تحسب أنها تقدم إليها مساعدات إنما كانت تقوم بواجبها

ولكنه قيام هزيل لم تبرهن فيه أية دولة من هذه الدول أو قسم من أقسام الأمة أنها فهمت حقيقة واجبها وأدركت أنها تتساوى في هذا الواجب مع من تساعده وتقدم إليه الإعانة . وما أسخف الإعانة حين تكون عبارة عن كلمة ينثرها لسان ، أو مال تجمعها يدان من عواطف الناس .

يظهر أنى أطلت في هذا الفصل وساقني الحديث إلى جوانب لم أكن قدرتها في نفسي ، ولذلك فهذا أنا أعود إلى تقديم هذه العصور من تاريخ الأمة في جزء من الوطن الإسلامي .

هذه الصور التي أعرضها عليك في هذا الكتاب الصغير ، هي بعض الجوانب من تاريخ الأمة ، وهي صور من تاريخ الأمة الحقيقي ، لأنها أعمال لأفراد من الأمة ، لم ينحرفوا عن سبيل الله إلى سبيل الشيطان ، ولم تسقمهم شهوة عارمة ، أو تغرهم ثروة غالية . ومن هذه الصور وأشباهاها يتكون التاريخ الحقيقي للأمة المسلمة .

إن تاريخ الأمة الإسلامية يتضح :

في هذه القوى المسخرة لنشر العلم ، وإصلاح المجتمع ، وإنارة الطريق أمام السالكين بوحى العقيدة والضمير ...

في هذه الجهود المبذولة لبناء مجتمع مسلم ، على أسس سليمة ، وضعها الدين الحنيف لإسعاد البشرية ...

في هذه الأعمال المتواضعة للحياة الحرة الكريمة ، البعيدة عن الارتزاق ، والمتاجرة بمصالح الناس ...

في هذه الثورات المتتابعة على الظلم والطغيان في مختلف صوره وأشكاله .

في هذا الرباط المتين الذي يربط جميع المؤمنين بالحب ، ويقودهم بالإيمان الخالص إلى العبودية لله وحده ، وإقامة الحرية والعدل والمساواة على النظام الذي أقامته الشريعة السماوية للإنسان ...

في هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الذي يقوم به المؤمنون الأمناء لنشر الفضيلة والقضاء على الرذيلة في مجتمع نظيف ...

في هذه الدعوة الحارة إلى الإيمان بالله ، التي يراها المؤمنون أوجب واجب عليهم ، فلا ينفكون عنها أينما كانوا ...

في هذا الانبعاث الفردي الذي يرمى إلى أداء الرسالة ، هذه الرسالة التي يحس كل مؤمن صادق الإيمان أنه مسؤول بين يدي الله عن أدائها ...

في هذا الكفاح المتواصل إلى الارتفاع بالبشرية عن الأوضار والدنس والمادية الجافة ...

هذه الصور وأشباهاها ، مما يقوم به الأفراد أو الجماعات أو الطوائف ، هي حقيقة التاريخ الإسلامي .

أما تلك المواقب الفخمة ، وتلك القصور الشاهقة ، وتلك الجوارى الحسان ، وتلك الأموال المكدسة ، وأولئك الجنود المتهينون للقتل والتخريب في أية لحظة ، هذه الصور وأشباهاها ، وهذه

الدماء المسفوكة ، والحرمة المنهوكة ، والرؤوس المقطوعة ، والأموال المنهوبة ، والمتعة المتاحة لأفراد معينين ، هذه الصور وأشبابها ليست من تاريخ الأمة . إنها صور من تاريخ فرد ، أو أفراد ، يشتركون مع ذلك الفرد فيها . إما لأنهم وسيلة الوصول ، أو لأنهم آلة الوصول ، وسواء كانوا وسيلة أو آلة فهم لا يكونون جانباً من الأمة .

وإن أملنا في الله قوي أن يفتح باب الهداية لأمة محمد فيعتبرون بماضيهم وحاضرهم ، فيوحدون صفهم ، ويجمعون كلمتهم ، وينظفون قلوبهم من غير ، ويطهرون عقائدهم من آثار الفلسفة البشرية ، ويصرفون عن أفكارهم مجارة أعداء الله في الفسوق عن أمر الله

كان أبو مسور يَصْلِيَتُ النفوسَ يتحدث مع بنته الطالبة الذكية ، بعد أن غسلت له ثيابه ونشرتها في الشمس لتجف ، قال أبو مسور : أتمنى أن ينقي الله قلبي مثل هذه الثياب . فقالت البنت الذكية المتعلمة المؤمنة : وددت أن الله جعل تطهير قلبي بيدي حتى أنقيه وأرسله إليه . فقال الشيخ : إنك أبلغ مني حتى في الأمان.

والمسلمون ما لم يطهروا قلوبهم من غير الله ، وما لم يبنوا أعمالهم على الأسس السليمة التي أوضحها دين الله ، فإن سيرهم سيبقى متعرجاً ، وأمامهم بعيداً ، وأجأهاتهم متفرقة متباينة ...

وأنني أستغفر الله من الخطأ والزلل ، وأجأ إليه تعالى أن

يعصمني من الشيطان ، وأن يطهر قلبي بالإيمان ، من الحقد والحسد والشهوة والغضب والعصبية

على يحيى معمر

منهج الدراسة

عزيزي القارئ، يسرني أن أضع بين يديك المنهج الذي اتبعته في هذا الكتاب، حتى يتيسر لك السير مع خطواته، لتتضح لك الصور التي أردت أن أقدمها إليك في إطاراتها الواسعة، وفي إمكانك أن تراها كما يأتي:

* صورة لارتباط الدولة بالأمة.

* "لتماسك الأمة المسلمة في وطنها الواسع رغم الخلافات السياسية والمذهبية.

* صورة مصغرة لدخول المذهب الإباضي إلى ليبيا على يد دعائه الأولين.

* صورة للمذهب الإباضي وهو يقود الأمة الليبية بنظام الإمامة الكبرى المستقلة عن أية تبعية.

* صورة للمذهب الإباضي يرعى الأمة الليبية بقيادة عمال ليبين، يتبعون الإمامة الرستمية.

* صورة للمذهب الإباضي يرعى الأمة، بقيادة أمراء يختارهم، مستقلين بأنفسهم.

جَدُّ أبيها القارئ الكريم هذه الصور حسب هذا الترتيب، في القسم الأول من هذه الحلقة، أما في القسم الثاني منها فتجد الصور الآتية:

* صورة للكفاح العلمي بعد الفتح الإسلامي، بإلقاء الدروس، ونشر المعرفة.

الإسلامية، وتأسيس المدارس، وتكوين البعثات العلمية.

صورة لازدهار المعارف الإسلامية ونظم التعليم وطرق التربية التي وضعت لتكوين أجيال من المؤمنين المعبدين لحمل الرسالة الإسلامية.

* صورة للمنطقة التي عاش فيها المذهب الإباضي ولا يزال يعيش منذ تكونت له الإمارات الخاصة به.

* صورة للمرأة في المجتمع الإباضي.

* "لأحداث تاريخية مثابرة.

* "للمؤمنين المتعصبين الذين تتحكم فيهم روااسب من الدعاية المغرضة.

* صورة للمجتمع المسلم النظيف.

هذه صور تشتمل عليها الحلقة الثانية من الكتاب في قسميها، أرجو أن تساعد القارئ على فهم المنهج الذي اتخذته.

وهناك في الكتاب ملاحظة أخرى أرجو أن ينتبه لها القارئ الكريم، وهي أنني قد تجاوزت في استعمال كلمة ليبيا في كثير

من مواضيع الكتاب ، وأنا أعنى أغلب إقليم فزان ، وأغلب إقليم طرابلس ، فإن برقة لم تكن في يوم من الأيام تابعة للحكم الإباضي ، لا في دور الإمامات التي تكونت في طرابلس ، ولا في دور تبعيتها للدولة الرستمية ولا في دور الحكومات المحلية التي كانت غالباً في بعض جهات من جبل نفوسة ، أو بعض جهات فزان .

دخول المذهب الإباضي إلى ليبيا

إن سريان الأفكار والآراء والعقائد من بلد إلى بلد ، أو من قطر إلى قطر ، لا يمكن أن يؤرخ بالتحديد الزمني . فهي تتسرب تسرباً تدريجياً ، قد يبطئ وقد يسرع ، من فرد إلى فرد ، حتى تتغلب وتنتشر ، وعلى هذه الطريقة نفسها دخل المذهب الإباضي إلى ليبيا .

بدأ المذهب الإباضي بحرر آراءه وعقائده في أواخر النصف الأول من القرن الأول الهجري ، ولم يتم النصف الثاني من هذا القرن حتى كانت الأصول التي تميزه عن غيره من الفرق والمذاهب قد تقرر . ففي البصرة التي كانت من مراكز الإشعاع الإسلامي ، عاش إمام المذهب ، التابعي الكبير ، جابر بن زيد ، ما بين سنتي 22 ، 96 هـ .

ومن هذا المركز الإشعاعي ، ومن البؤرة التي كان يستضيء بها هذا الإمام ، امتد النور إلى مختلف البلاد الإسلامية ، بصورة تدريجية بطيئة ، على طريقة العقائد التي تخارب الباطل بالحجة

لا بالقوة . وتتسلح بالحق لا بالسيف ، ويعتقدها الناس بالافتناع لا بالخوف .

ولعل التسامح في معاملة المعتدين من المسلمين ، والبساطة في مظهر السلطة والحكم ، والوضوح في الرأي والعقيدة ، والصراحة في قول الحق والعمل به ، والاستمساك بالواضح من دين الله ، كانت من الأسباب التي ساعدت على انتشار المذهب الإباضي في أكثر البلاد الإسلامية .

وفي ذلك الحين ، الذي كان فيه المعتزلة يشغلون أوقات الناس بالجدل ، وكان الأزارقة ومن ذهب مذهبهم ينطلقون في الأوساط الإسلامية المسالمة ، يبتزون الأموال ، ويقتلون الرجال ، ويستحلون سبى النساء والأطفال ، وكان الشيعة عاكفين على وضع الأحاديث في فضائل بنى هاشم ، وتخبر الخطب البليغة على لسان علي بن أبي طالب ، والتغنى بعصمة أهل البيت ، وكان أهل السنة والجماعة (3) من أتباع معاوية منهمكين في مكافحة ثورات الخوارج وابن الزبير

وغيرها ، وفي النقاط العيوب ، وتلفيق الأكاذيب ، لتكون مادة السب واللعن لعلي بن أبي طالب ، في خطب الجمعة .

في هذه الأحوال كان الإباضية ومن جرى هذا الجرى من التابعين وتابع التابعين يدعون إلى دين الله في هدوء واتزان . لا يصخبون صخب المعتزلة حباً في الظهور ، ولا يحاربون حرب

3 - جعل معاوية سب علي بن أبي طالب على المنابر سنة . وسمي أتباعه أهل السنة ولما تنازل الحسن عن الخلافة زاد لفظ الجماعة فسماهم أهل السنة والجماعة

الأزارقة ، بالخطأ في تأويل كتاب الله ، ولا يفرضون إفراط الشيعة ، استغلالاً للعاطفة الدينية ، ولا يكذبون كذب بنى أمية ليقموا الدولة ، ويحفظوا الملك .

وبهذه الروح المؤمنة التي تضع كتاب الله جل جلاله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بين عينيه ، تدعو إليهما متجردة عن عواطف الحب والبغض في غير الله . عازفة عن زخرف الدنيا وبهرجها ، متأكدة من معنى آيات كتاب الله في التفريق بين المسلمين والمشركين ، معرضة عن حب الظهور الذي يسعى إليه المعتزلة جاهدين كان الإباضية يعملون .

وذهبت هذه الدعوة المعتدلة التي لا تخيد عن منهج الإسلام في البلاد دون جيش أو سيف أو مال ، فانتشرت في العراق والجزيرة العربية ، ثم امتدت إلى مصر ، ومن مصر دخلت بهدوء إلى ليبيا وما بعد ليبيا من المغرب الإسلامي الكبير .

ولكن اتصال هذه البلاد من الوطن الإسلامي بمصدر الإشعاع في البصرة ، كان بعد ذلك ينم رأساً بين كل قطر من هذه الأقطار والبصرة ، ولم تمض عشرون سنة من القرن الثاني الهجري حتى كان المذهب الإباضي منتشراً في ليبيا وتونس والجزائر ، كما انتشر في العراق والجزيرة العربية وعمان .

سَلْمَةُ بن سَعْد

رجل امتلاً قبله إيماناً بالله ، ووعى عقله القوي ما دعا إليه الكتاب الكريم ، واتسع فهمه الذكي لما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأستحوذ على نفسه وحسه وجوارحه اليقين

بدين الله . فانطلق يدعوا إلى الله . لا يقيم الدنيا وما فيها وزناً . ولا يحسب للناس وأعمالهم حساباً . ولا يخشى للتعب والمشقة عاقبة . ولا ينظر إلى المعارضة إلا على أنها عوارض تعترض طريق المؤمن فيجب عليه أن يتخطاها .

قلبه عامر بالله وحده . فلا يتردد لأي أثر من مخلوق . وجسده بما فيه من قوى مادية وروحية مسخر للدعوة إلى الله . لا يفتر ولا يلين ولا يتوقف .

انطلق من جزيرة العربية إلى إفريقيا وحيداً منفرداً . يقتحم الجاهل ويدخل القفار . ويغشى المجتمعات التي لا تعرف له جنساً ولا لغة . وليس له من سلاح في كل ذلك إلا ذلك الإيمان الذي عمر به قلبه . وتلك المعرفة الشاملة لكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وسيرة السلف الصالحين من الصحابة والتابعين . ولم يمض عليه عشر سنوات حتى كانت دعوته تنتشر ما بين تلمسان وسرت . وحتى كان المذهب الإباضي مذهباً لأغلب السكان في ليبيا وتونس والجزائر .

كان يقول في مبدأ أمره وددت أن يظهر هذا الأمر يوماً واحداً فلما أبالي أن تضرب عنقي .

وقد حقق أمله في الله في مدة لم يكن يتصورها . وأصابه من التوفيق ما يضيفه الله على الأخيار من خلقه . الذين تعددهم الأقدار لتبليغ رسالة الله بعد الأنبياء عليهم السلام فينطلقون بالدعوة صافية كما كانت في عهد النبوة . خالصة من الشوائب والبعد والخرافة .

كان سلمة بن سعد ينتقل بين بلدان شمال أفريقيا من جهة إلى جهة لا يعتمد على جيش ولا حرس ولا رفيق . ولم يصحبه في تلك الرحلات الطويلة من الجزيرة إلى العراق . من العراق إلى أفريقيا . إلا إيمانه بصحة العقيدة وصفاء الفكرة . وسلامة الدعوة . ومعرفة واسعة للإسلام وأسراره . وكانت هذه المميزات هي التي فتحت القلوب والعقول لدعوته وتقبلتها بقبول حسن .

وقد استطاع أن يوصل الدعوة إلى الأماكن التي لم تصل إليها . وأن يوجه إفهام الناس إلى تفهمها . وأن يوحد بينهم في الاتجاه العملي . حتى استطاع أن يكون منهم بعثة علمية توجهت إلى البصرة مركز الإشعاع في ذلك الحين .

وقد استطاع أن يجعل أعضاء هذه البعثة العلمية من أماكن متفرقة . بعيدة عن بعضها . حتى يكون كل واحد منهم نبراساً يهتدي به في جهة من الجهات . وحتى يعملوا جميعاً على توحيد جهود الأمة . وتوجيهها إلى الخير العام . ونجح سلمة في إرسال هذه البعثة . ونجحت هذه البعثة التي أطلق عليها " حملة العلم إلى المغرب " في دعوتها والقيام برسالتها . وكان من أعمالها ما سوف نقرأ بعضه في حلقات هذا الكتاب .

لقد كان سلمة بن سعد بطلاً من أبطال الإسلام . وداعية من دعاة الحق والكرامة . يتصف بجميع الصفات التي تلزم الداعية . من معرفة كتاب الله وأسراره . واستقامة على دين الله ومنهجه . وتخلق بأداب الإسلام وفضائله . ووضوح في المنطق . وسلامة في التعبير . وقوة في الحجة . كان مؤمناً من أخلص

المؤمنين لدين الله ، فجزاه الله عن جهاده وكفاحه خير الجزاء .

ابن مَظْطِير الجَنَّاوَنِي

كان سكان ليبيا قبل الفتح الإسلامي ، إما وثنيون يعبدون الأصنام ، وإما نصارى يتبعون المسيحية المحرفة ، فلما بلغت الدعوة الإسلامية ليبيا ، في بساطتها ووضوحها وصراحتها ، وهدايتها بالحق وإلى الحق ، وتقريرها لعلاقة الإنسان بالإنسان ، وعلاقة الإنسان بخالق الإنسان ، على مبدأ تساوي بني آدم في حقوق البشرية والعبودية لله وحده ، اعتنقها الناس لهذا الأسباب ، حينما قارنوا الحق الواضح فيها بالأباطيل التي كانوا يتبعونها، ولما كان حاملو الدعوة جيوشاً مهمتها الفتح ، والجيوش الفاتحة لا تجد الوقت الكافي لنشر الثقافة الإسلامية الواسعة ، لذلك فقد تكونت حركة البعث العلمية إلى المشرق .

لقد جاء سلمة بن سعد في أوائل القرن الثاني ، يدعو الناس إلى التمسك بدين الله ، وعدم الانصياع لعبدة الأهواء ، وطلاب الدنيا ، والانخداع لأصحاب البدع ، تلك البدع التي ضل بها ناس عن صراط الله السوي ، وأضلوا بها .

وفي هذا الوقت الذي كان فيه هذا المؤمن الداعية يكافح من أجل المحافظة على صفاء دين الله وسلامته من الأهواء والانحرافات والبدع ، في هذا الوقت كان بطل آخر من أولئك الأبطال الذين يملكون إرادة أقوى من الزمن ، وعزماً أشد من مصائب الحياة ، كان هذا البطل قد قطع المسافة العلوية بين جبل نفوسة والبصرة في العراق ، ليغترف العلم من منبعه

الصافي : أبي عبدة مسلم بن أبي كريمة ، وزملائه في البصرة . في ذلك المعمل الذي أسس في ظاهرة لإنتاج القفاف، وفي الحقيقة لإنتاج الدعاة من حملة دين الله المخلصين . فأنج رجالاً كانوا مثلاً أعلى للأسرة المسلمة ، في صحة العقيدة ، والتمسك بالدين ، والفهم الحق لرسالة الإسلام ، والتخلق بأخلاق سيد المرسلين ، ومن اهتدى بهديه من المؤمنين المتقين .

هذا البطل الذي أحدث عنه : هو العلامة محمد بن عبد الحميد بن مَظْطِير الجَنَّاوَنِي ، فعندما كان الداعية سلمة بن سعد يكافح لتكوين بعثة علمية من أجب الطلاب ، كان ابن مَظْطِير يغترف العلم من منهل العذب .

ورجع إلى وطنه قبل أن تسافر البعثة العلمية التي كونها سلمة بن سعد ، والتي كان لها شأن هام في ليبيا ، شأن في نواحي الحياة المختلفة ، ناحية السياسة ، وناحية الدين ، وناحية المجتمع .

يبقى ابن مَظْطِير في التدريس والفتوى ، حتى تخرجت البعثة العلمية في البصرة ، ورجعت إلى المغرب الإسلامي ، باسم " حملة العلم إلى المغرب " فامسك ذلك العلامة البطل عن الفتوى ، معذراً بأن حملة العلم أولى بالفتوى ، لأنهم أخذوا عن الإمام بعد أن حرر جميع الأقوال .

إن ابن مَظْطِير هو أول ليبي فكر في تكوين البعثات العلمية ، ونفذ الفكرة في نفسه وتبعه الآخرون .

والوطن الليبي بل المغربي مدين لهذا الجندي المجهول الذي

يقطع هذه المسافات الطوال من ليبيا إلى العراق في ذلك الزمن الذي يعسر فيه الانتقال . منفرداً وحيداً . يحمل مشعل العلم والنور إلى وطنه ، حتى يستنير به أبناء هذا القسم من الأمة العظيمة في هذا الطرف من المملكة الشاسعة التي لم تنح لها ظروف الفتح أولاً . والثورات الحمقاء المجنونة ثانياً - لم تنجح لها هذه الظروف غير المستقرة أن تهتم بقضية العلم والتعليم ، التي هي أهم رسالة يدعو إليها الإسلام ويطالب بها بنيه .

ومع هذا الجهود الجبار الذي يبذله هذا البطل لخدمة الأمة وإعلاء كلمة الله ، يمر عليه التاريخ فلا يشير إليه إشارات عابرة كما يشير إلى أي شخص عادي . ومع ذلك فالرجل راض عن هذا الموقف من التاريخ . ونحن أيضاً راضون له بهذا الموقف من التاريخ . لأنه عندما كان يقدم على ألوان الكفاح . واقتحام العقبات والصعاب . لم يجعل في عمله حساباً للتاريخ . أو لرأي الناس فيه . أو لمدح الحبين . ونقد المبغضين . لقد كان عمله خالصاً لله ، وقد علمه الله . وعنده وحده يكون الجزاء .

ومهما يكن . فقد فتح الطريق للبعثات . واستجاب لأمر الله . حين أوجب على طائفة من المسلمين أن يتفقهوا في الدين . لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم . وربط الصلة بين مشرق الأمة ومغربها . ودعا إلى تطبيق أحكام الله . وتنفيذ أوامره . حسبما كان معروفاً في زمنه صلى الله عليه وسلم وفي زمن الخلفاء الراشدين . وكان شديداً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقافاً عند حدود الله . لا يتدخل فيما لا يعنيه . ولكن عندما يجترئ مجترئ على الحق يقف له موقف المؤمن الغيور الذي لا

تأخذه في الله لومة لائم .

وقد بارك الله في عمره . فامتدت به الحياة إلى أن جاء الإمام عبد الوهاب إلى جبل نفوسه . فكان يحضر مجلسه على كبر سنه . ولعل في الحادثة الآتية مثلاً رائعاً لمن أراد أن يقتدي بأعلام الإسلام وأدبهم في إقامة الحق واتباع دين الله : ارتفع رجلان في خصومة إلى الإمام عبد الوهاب . فاستردد الإمام المدعى عليه الجواب . ولكن الرجل اعتر بالاثم ولم يجب الإمام . فسأل الإمام عن ابن مغطير . فأجيب بأنه غير موجود . فقال للخصمين قوما إلى غد . ورجع إليه الخصمان في اليوم الثاني والثالث . فكان موقفهما منه مثل موقفهما في اليوم الأول . وفي اليوم الرابع عندما تخاصما من جديد وطلب الإمام إلى المدعى عليه أن يجب فلم يجب . سأل الإمام عن ابن مغطير . وكان بناحية من المسجد . فما أتم الإمام سؤاله حتى وثب ابن مغطير - وكان شيخاً طاعناً في السن - على الممتنع . فوطئه بركبته . ولم يتركه حتى استغاث بالإمام وأذعن للحق .

وفي القصة مثل رائع عن خلق هؤلاء الأئمة وأدبهم . هؤلاء الأئمة الذين لا يرتفعون عن الأمة ولا يحتجبون عن أفراد الشعب . ولا يتخذون قصوراً دونها حرس وحجاب . وإنما كانوا يجلسون في المساجد كما يجلس أي مسلم . وهم يتولون شؤونها . وينظمون أمورها . ويفصلون مشاكلها بروح الإسلام الذي يفصل بين الناس بالعدل لا بالقوة . وبالحق لا بالغطرسة . وبالبساطة لا بالتبجح والدعوى .

وفي القصة مثل آخر رائع ، ضربه ابن مغطير . هذا الشيخ الهرم ، الذي حضر دروس أبي عبيدة قبل أن يحضرها أبو هذا الإمام ، وامتدت به الحياة حتى رأى هذا التجني على الحق والاستكبار عن أمر الله ، وإساءة الأدب أمام أمير المؤمنين ، فأردا أن يعلم الحاضرين في المسجد أن القوي أمام الحق ضعيف ، وأن الضعيف إذا كان في جانب الحق قوي . بل أراد أن يعلم أولئك الحاضرين أن الحقوق لا تعطل لاستكبار المستكبرين ، واعتزاز الأثمين بالإثم ، فإذا خطر لأحدهم أن يقف هذا الموقف ، وجب على أولئك الذين يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر أن يتناولوه بالشدة وأن يعلموه بالأدب .

أما العبرة الثالثة التي تستخلص من هذه القصة ، فهي هذا الاحترام العظيم الذي يسبغه الإمام العظيم على العالم العظيم . إن عبد الوهاب لم يتوقف عن تأديب هذا الشخص خوفاً منه ، ولا جهلاً بأحكام الله ، ولا تساهلاً في دين ، ولكنه أدب طبع عليه ، وتقدير لهذا العلامة الذي يجب أن يستشعر كل مسلم في ذلك الحين عظمته وطموحه ومحبته لدين الله ، وكفاحه من أجل العلم .

إن ابن مغطير ، هذا الرجل الذي جاب الآفاق طلباً للعلم ، وعاش للتدريس والفتوى ، ثم حمل أمانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لمثل حي يجب أن يقتدي به المؤمنون ...

كفاح الإباضية ضد الطغيان

كانت جيوش الفتح الإسلامي تحمل رسالة الله منطلقة بها في البلاد ، تدعو إلى الإسلام ، الإسلام المجرد الذي دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، نظيفاً من الظلم ، نظيفاً من الطغيان ، نظيفاً من الجهل ، نظيفاً من العنصرية ، نظيفاً من البدعة ، فكانت الشعوب تستبقي إليه ، وتدين به ، مؤمنة مخلصه .

فلما انتهى عهد الخلفاء الراشدين ، بما يحمل من هدى وعدل وحق ، وخلق ملك عضوض ، يتنازع عليه أهل البيت الواحد قبل أن ينازعهم فيه البعداء عنهم ، ويجده من حصل عليه منهم أن ينارزعهم فيه البعداء عنهم ، وبجده من حصل عليه منهم فرصة سانحة للاستغلال . الاستغلال في أبشع صوره ومظاهره ، وأصبحت النفس المسلمة التي حرم الله قتلها ، أهون عندهم من نفس ذبابة ، وانحرف أولئك الذين يحملون أمانة الدولة عن الطريق التي رسمها لهم كتاب الله ، وهدي محمد عليه السلام ، وسيرة أصحابه الأخيار ، رضوان الله عليهم .

لما انحرف من بأيديهم مقاليد الدولة عن سبيل الله القويم . إلى سبيل مهدها الشيطان للنفس والهوى : ثار الناس . وكان حقاً على المؤمنين أن يثوروا لهذا التبديل ، وأن يعترضوا هذا الانحراف من حملة رسالة الله ، وأن يقفوا ضد الطغيان والظلم والعدوان .

ولقد اتخذت هذه الثورة على الانحراف عن دين الله مظهرين في الكفاح :

* أولها : كفاح الباطل الزاحف في ركاب الأمراء والعمال وأتباعهم .

* وثانيهما : كفاح الباطل الزاحف في ركاب المبتدعين من أدعياء العلم والإيمان . ويتضح الأول في الثورات الدموية - ضد الظلم - التي انتشرت في جميع الجهات للإطاحة بأجهزة الحكم الفاسدة ، والتي لا تزال إلى اليوم تقف هذا الموقف ، تسنح لها الفرصة فتمتشق الحسام . ويضيق عليها الخناق فتكفى بالنقد .

ويتضح الثاني في مواقف العلماء المخلصين من البدع والأهواء ، وفي تشويق الأمة إلى معرفة الحقائق العلمية من مصادرها الموثوق بها ، ولذلك تلجأ إلى إرسال البعثات رغم ما تنكبده في ذلك من مشاق وأتعاب .

ولقد وقف الإباضية في ليبيا كما يقف جميع المسلمين المخلصين إلى جانب دين الله ، يدافعون عن الحق بما أوتوا من سلاح وعلم . وفي الفصول المقبلة سوف نعرض صوراً من كفاح

الإباضية ضد الطغيان ، وصوراً أخرى من كفاحهم ضد الجهل والبدعة والخرافة والانحراف عن سبيل الله .

بدأ كفاح الإباضية ضد الطغيان ، في سلسلة ثورات قاموا بها في ليبيا . وكانت الشرارة الأولى التي أوقدت هذه الثورة . ثورة الإباضية على عدوان عمال بنى العباس ما ستقرؤه في الفصل الآتي .

ورة الإباضية على اليأس بن حبيب

يقول الأستاذ الطاهر الزاوي في كتابه " تاريخ الفتح العربي في ليبيا " : " عين عبد الرحمن أخاه الياس عاملاً على طرابلس . وما زالت العرب إذ ذاك يخافون ثورة البربر وتدير مكائدهم . وكان رئيسهم في طرابلس عبد الله بن مسعود التجيبي رئيس الإباضية ، فقبض عليه الياس وضرب عنقه " .

وهكذا يناقش الأستاذ الزاوي هذه القضية على أنها قضية عرب وبربر لا دخل للإسلام فيها ، وما دام القاتل عربياً والمقتول بربرياً فالقضية لا تستحق الاهتمام . وزعم الأستاذ الزاوي أن عبد الرحمن أراد أن يسترضى الإباضية فأقال أخاه الياس . ولكن هذا العمل لم يرض الإباضية ، فقال الزاوي في نفس الكتاب وفي نفس الصفحة : " وما زال الإباضية في غضبهم حتى نزعوا إلى الفتنة " انتهى كلام الأستاذ الزاوي .

إنني أريد أن أناقش هذه القضية بروح غير الروح التي يناقشها بها الأستاذ الزاوي ، أريد أن أناقشها بروح المسلم الذي يستوي عنده العربي والبربري ، والأمير والفلاح ، (المسلمون

تتكافأ دماؤهم) وأن أعرض هذه القضية على دين الله .

إن عاملاً في دولة إسلامية خاف من فرقة أو قبيلة أن تثور على ظلمة ، وترد عليه عدوانه ، فدعا إليه رئيس هذه الفرقة أو القبيلة وقتله ، دون أن يرتكب هذا الشخص ما يحل به دم امرئ مسلم ، وليس له من جريمة إلا أن العامل الظالم كان يخشى عواقب ظلمه وطغيانه .

هل نجد مسلماً صحيح الدين ، سليم العقيدة يحل دماء المسلمين لوساوس الأمراء ومخاوف الظالمين . فيفتي بجواز هذا القتل .

أي شرع ؟ أو أي عقل يحل دم مثل هذا الرجل البريء ؟ ثم لماذا لا نعتبر هذا الاستخفاف بدماء المسلمين وإراقتها دون موجب بحثاً عن فتنة ، وإثارة لثورة ، وتدبيراً للمكائد ؟ .

إن الإسلام قد حرم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم . ولم يبيح منها شيئاً لوساوس الحكام وتخيلات العمال ، وأوهام الأمراء ، ومكائد الخواشي ...

إن رجلاً يتولى أمر جماعة من المسلمين فيبلغ به الهوس إلى هذا الحد حقيق أن تثور عليه الأمة ، وتقتص منه للحق والعدالة ، وقد ثارت الأمة واقتصت ...

ثارت بالطريقة التي يدعو إليها الإسلام ، وفي الحدود التي جعلها المشرع الحكيم . واقتصت بالطريقة التي يدعو إليها الدين والعقل والإنسانية في أسمى معانيها.

ولا أريد في هذه القضية أن أرجع إلى مصادر الإباضية في التاريخ ، ولكنني أعتمد أيضاً على الأستاذ الزاوي في كتابه " الفتح العربي في ليبيا " فاستمع إليه بقص علينا قصة هذا الثأر :

" وما زال الإباضية في غضبهم حتى نزعوا إلى الفتنة ، وتقدم إلى قيادتهم أحد رؤسائهم وهو عبد الجبار (4) ابن قيس المرادي ، فالتفوا حوله ، وأعلنوا الثورة على العكي ، فخرج لمحاربتهم . وأتاب عنه في القيام بشئون المدينة " بكرين عيسى " فحاصروا العكي في بعض القرى ، فطلب منهم الأمان فأمنوه ، وأخذوا من أصحابه نصير بن راشد مولى الأنصار فقتلوه في عبدا لله بن مسعود التجيبي . "

لست أدري لماذا يريد الأستاذ الزاوي أي يرمى الإباضية بطلب الفتنة ، وهو نفسه يقرر أن الإباضية لم يقوموا ضد هؤلاء العمال الظالمين بشيء ، حتى بدأ هذا العامل الموسوس عدوانه عليهم ، فقتل رئيسهم دون جريرة ، فثاروا ، ولما انتصروا لم يزيدوا عن قتل رجل واحد ، رجل برجل حسب أمر الله أما العامل العكي فقد أطلقوه في أمان بعد أن تم لهم النصر .

إن هذا الموقف المشرف لم يقفه عامل واحد من عمال بنى أمية أو بنى العباس في حروبهم ضد أي طائفة من المسلمين ، وفي حروبهم الطويلة مع الإباضية ، ولم يتجاوزا أئمة الإباضية هذا الموقف المشرف في جميع حروبهم مع الموحدين .

4 - بويغ الحارث بن تليد وعين زميله وصديقه عبد الجبار قاضيا ، خلافا لما ظنه الزاوي .

ومع أن الحق في هذه القضية واضح جلي ، والأستاذ الزاوي نفسه يروى حقائق التاريخ كما وقعت ، إلا أنه مع ذلك غير راض ، فيزعم أن الإباضية ينزعون إلى الفتنة ، ويثير قضية العرب والبربر ، هذه القضية العنصرية البعيدة عن روح الإسلام ، ولكنه حرص أن يحجبها ويتبّعها ، ولا ينفك في كل فرصة عن رمى البربر بأنهم أصحاب فتنة ، وتدبير مكائد ، وقد قدمت في غير هذا الفصل من هذا الكتاب ، أن أحياء العنصرية قضية لا يدعو إليها مسلم ، فقد حاربها رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، وكفى فيها قوله عليه السلام (دعوها فإنها منتنة)

وقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوام من العرب ، وارتد أقوام بعد الإيمان ، كما فعل ذلك أقوام من البربر وغيرهم من الأجناس ، ولكن ما فعله أولئك الذين كتب لهم الشقاء ، لا يحسب جريمة على أجناسهم أو عناصرهم ، والإباضية يحرصون كل الحرص أن يكون الرابط الذي يربط بين صفوفهم إنما هو التمسك بدين الله ، كما جاء عن محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن لديهم أي اعتبار لغير هذه الرابطة ، وحسبك أن تعلم أن هذا الإمام الذي بايعوه في ثورتهم على الظلم ، ليناهض عدوان المعتدين من عمال بنى العباس الظالمين ، إنما هو الحارث بن تليد الكندي العربي ، فهل هذه الثورة فتنة من البربر ؟

إن الإباضية لا يعرفون العنصرية ، ولكن يعرفون أن أكرم المؤمنين عند الله أتقاهم ، وأن أبغضهم إليه أظلمهم وأعصاهم ،

يستوي في ذلك العرب والبربر ، والهنود الحمر والأحباش السود ، كلكم لآدم وآدم خلق من تراب .

إن مرارة العدوان على أقدس شيء في شريعة الإسلام وهي النفس البشرية ، هي التي جعلت الإباضية يثورون ، وحق لهم أن يثوروا ، وأن يقلبوا نظام الحكم على أولئك الظالمين ، فإن حكم الله أحق أن يتبع . وهم عندما يثورون لا يطغون ولا يتجاوزون الحدود التي رسمها لهم حكم الله .

والأستاذ الزاوي على ذلك من الشاهدين ، فإن قتل النفس بالنفس هو الحكم الذي نزل به الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ولن تجد مهما فتشت في مطاوي التاريخ ، وعند غير الخلفاء الراشدين ، هذه المواقف المشرفة التي يقفها الإباضية من أعدائهم ، حين ينهزم أولئك الأعداء ؛ يخير أمير الجند وقائد المعركة بين البقاء أو الرحيل آمناً موفوراً ، وتسلم جميع الأموال والأعراض لأصحابها ، لا يمس منها دنانير ولا درهم ، وتحترم الدماء ، فلا تهرق قطرة دم بعد إيقاف القتال ، فلا عقوبة ، ولا تتبع ، ولا مثلة ولا حزر رؤوس .

قارن هذا الموقف المشرف الذي لن تجده بعد الخلفاء الراشدين إلا عند الإباضية ، قارن هذا الموقف بمواقف أولئك الذين يحاربون الإباضية ويتهجمون عليهم ، ويقتلون منهم الأبرياء بغير ذنب ، ويهتكون الحرمات ، ويستحلون الأموال ، ويحزون الرؤوس لبيعوا بها إلى دمشق أو بغداد ... ومع ذلك فإن بعض المؤرخين الذين يعيشون في القرن العشرين ، يحلوا لهم أن يقولوا : " ونزع

الإباضية إلى الفتنة " .

أية فتنة هذه التي نزع إليها الإباضية ، أن قتلوا القاتل ، نفساً بنفس فحسب وأطلقوا سراح بقية المعتدين ، لم يمسوا شيئاً من دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحرمانهم ؟ لا يتبعون مدبراً ، ولا يجهزون على جريح ، ولا يأخذون دانقاً من مال ؟

ترى ما رأى هذا المؤرخ المعاصر لو أن الإباضية ارتكبوا ما يرتكبه فهم محاربوهم ، فلم يعفوا عن مال أو دم أو عرض أو حرمة ؟

وما رأيه لو أن جميع الحروب التي وقعت في التاريخ الإسلامي كان الدافع إليها والسير فيها مثل دوافع الإباضية وسيرتهم في الدماء والأموال .

لقد كان الخوارج يستحلون دماء المسلمين وأموالهم بالتأويل الخاطيء ، أما رجال الدول الظالمة وأجنادهم فقد كانوا يستبيحون جميع الحرم من دم ومال وعرض بالعمل . وكلا الموقفين بعيد عن الإسلام ومبادئ الإسلام ...

عمرو بن مكتن (5)

مؤمن من المؤمنين المخلصين ، وبطل من أبطال الكفاح ، كفاح النفس عن الشهوة ، وكفاح الجهل بدين الله ، وكفاح الظلم والعدوان في شتى مظاهره وألوانه .

قال فيه أبو العباس - وحسبك بشهادته شهادة " ساد أهل زمانه علماً وعملاً ، وسارع إلى الخيرات قولاً وفعلًا ، قال ابن سلام : كان عالماً من علماء المسلمين "

وهي شهادة من محقق ، لا تقل عن سابقتها لو كان الرجل يحتاج إلى شهادات ، ولكن هذا البطل وأمثاله من الأبطال في غنى عن شهادات الناس لدينهم ولدنياهم .

كانت أمنيته وهو شاب صغير لا يجد مدرسة يلتحق بها ، أن يحفظ كتاب الله ، وأن يعلمه للناس ، ولما عسر عليه هذا المطلب ، وعز عليه تحقيق الأمنية الغالبة في قريته النائية في جبل نفوسة ، سافر إلى مغمداس . هذه الطريقة التي يمر بها أفواج المسلمين مشرقين أو مغربيين . فيأخذ معه لوحه منذ الصباح

5 - ذكره أبو زكريا في الطبقة الثالثة : فهو من علماء النصف الأول من القرن الثاني الهجري . كان عاملاً للإمام أبي الخطاب ، على سرت ونواحيها

الباكر، يعترض السابلة، يتلقى منهم آيات من كتاب الله حتى إذا امتلأ لوحه رجع إلى البيت ليستظهر ما كتب من آيات بينات، فإذا حفظها رجع إلى الطريق، ولم يمض عليه وقت طويل في هذا الكفاح حتى حفظ كتاب الله وكثيراً من سنة رسول صلى الله عليه وسلم، وحينئذ اطمأنت نفسه، ورجع إلى "أفاطمان" هذه القرية الحبيبة إلى نفسه، والتي لم يبق منها اليوم إلا آثار شاهدة، بين الحراية والرحبات من جبل نفوسة، وفي هذه القرية فتح عمرو ابن يمكتن أول مدرسة لتعليم كتاب الله، فكان الناس يقبلون عليه في شغف ورغبة.

لقد أُنْجِبَت دَمْرًا بنت دَرْجُو الحمدانية هذا البطل وهو أصغر أبنائها وحسبها ولداً.

كافح مفرداً فحفظ كتاب الله من السابلة، وافتتح أول مدرسة قرآنية، ما لبثت أن أصبحت مناراً يشع النور والعلم والإيمان في كامل جبل نفوسة، بل في كامل الجزء الجنوبي من ليبيا، وصارت "أفاطمان" منذ ذلك الحين مقراً لأهل العلم والفضل والدين.

أما عمرو بن يمكتن فلم يلبث أن أنتقل من أفاطمان، انتقل ليكافح كفاحاً أعظم خطراً وأهم شأنًا في واجهة أخرى.

بايع الإباضية أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح أميراً للمؤمنين على ليبيا وما جاورها، بايعوه على أن يقيم فيهم كتاب الله، ويحكم بينهم بحكم الله، ويسير بسيرة الخلفاء الراشدين، وأن يرد عنهم عدوان المعتدين، وطغيان الطاغيين

وسارع إليه المؤمنون الذين ملوا الجبروت والجور والظلم، وكان من أسرعهم إليه وأخلصهم لإعادة حكم الإسلام كما أنزله الله، عمرو بن يمكتن، وعرف الإمام دينه وخلقه وأمانته فوثق به، ومَنْ لا يثق بمثل هذا الرجل القوى الأمين؟ فجعله قائداً على بعض الجند في حروبه الأولى، ثم عينه عاملاً على سرت، ومن أولى بعمالة سرت من عمرو بن يمكتن، هذا الرجل الذي عرف مسالك البلاد وطبائع أهلها وهو طالب علم يقتبس الحكمة والهدى من حملة كتاب الله.

"سرت" هي طريق العباسيين للعدوان وخجدة المعتدين، ولذلك كان أبو الخطاب يلتمس لها عاملاً تتوفر فيه معرفة البلاد وطبائع أهلها، والقوة في دين، والعلم بأحكام الله، والشجاعة في مواطن الكفاح، واليقظة والحذر والذكاء.

ووجد هذه الصفات في هذا البطل، فجرى به التعيين.

وذهب العالم الحافظ البطل إلى هذا الثغر ليحول دون غارات الأعداء، وليذيق سكان تلك الجهات طعم السيرة المرضية، السيرة التي دعا إليها دين الله، وسار بها المؤمنون حقاً.

لقد اتخذ أبو الخطاب مركز الدولة في طرابلس وكانت أهم الثغور عنده هي سرت والقيروان، واختار الإمام أقوى رجلين عنده ليجعلهما في هذين الثغرين، فولى عمرو بن يمكتن الأفاطماني على سرت وولى صديقه وزميله في الدراسة عبدالرحمن بن رستم على القيروان، وهذا يدل أن منزلة والي "سرت" في ذلك الحين لا تقل عن منزلة عبدالرحمن في نفس أبي الخطاب

. ولعل مركز سرت في ذلك الحين وهي معبر الجند والقوات أهم من مركز القيروان وهي مقصد الخوارج والمعتزلة وموطن الثورات والشغب .

أخذ العامل الحازم يعمل بما يقتضيه هذا المنصب : ينشر العدل ، ويوصل الحقوق ويقيم أحكام الله ويسير بين الناس سيرة المؤمن بين إخوانه المؤمنين ، وكان مستمداً لمحاربة الجيوش الغازية . لا يخشاه ، وقلوب الناس معه وهم راضون عنه محبوب له . ولم يكن يخشى من تلك الجيوش إلا المباغته حينما ينصرف الناس إلى أعمالهم وقد أمنوا العدو . ولذلك فقد كان لا ينفك يسأل عن تحركات العدو ونواياه ، ومن مأمنه يؤتى الحذر .

إن عمرو بن يكتن الذي يسير بسيرة أبي الخطاب لم يكن يتخذ جنداً مقيماً تدفع له الرواتب ، وهو ينتظر الساعة التي يدعى فيها إلى الحرب كما يفعل بنو العباس ، ولما كان يسير سيرة الخلفاء الراشدين ، عندما يخرب الأمر ويقتضي الدفاع أو إعلان الحرب ، يدعوا الناس إلى التطوع فينتطوعون وهم يؤمنون بالفكرة ويحاربون عن مبدأ ، حاولت الجيوش العباسية أن تخرب أبا الخطاب علناً ، فلم تسطع . وانهزمت هزائم منكرة في عدة وقائع . ولذلك لجأت إلى الحيلة .

كان محمد بن الأشعث الذي عينه أبو جعفر المنصور لمحاربة أبي الخطاب ، وجعل تحت قيادته جيشاً يتكون من سبعين ألف جندي معد للقتال يعرف أنه لا يستطيع أن ينازل هذا الإمام القوي في جند يحارب عن مبدأ ، ويدافع عن حق ، فلجأ إلى

الحيلة .

أوعز إلى من يخبر عمرو بن يكتن عامل الإمام أبي الخطاب أن محمد ابن الأشعث لا يحاربه إلا علناً ، وفي وضح النهار ، وقال له (لا يأتيكم ابن الأشعث بغفلة ، وهو في جند أمير المؤمنين برجال مشمرين ، وخيل مضمرات ، وسيوف مهندات ، بل يأتيكم جهاراً نهاراً) وهكذا أمن عامل أبي الخطاب على سرت من المباغته . ثم أظهر ابن الأشعث أنه ينوي الرجوع ، وأمر جيشه بالتحرك ، وقتل من اعترض الفكرة ، فكره الرجوع ، فانطلت الحيلة على أصحاب أبي الخطاب وهم كما قلت سابقاً متطوعون ، والموسم موسم حصاد ، ففضلوا أن يذهبوا إلى كفاحهم من أجل الحياة ما دام الخطر بعيداً ، ورغم تخدير أبي الخطاب لهم وفهمه لنوايا ابن الأشعث ، إلا أن القوم تفرقوا ، وعندما فهم ابن الأشعث أن حيلته انطلت على أصحاب أبي الخطاب ، وأنهم تفرقوا عنه ، أغذ السير ، وجاءهم على حين غفلة ، وقتل عامل سرت فيمن قتل من الأبطال ، وتم النصر لابن الأشعث وجنده ، وارتكبوا من الجرائم - بعد الحرب - ما تعود العمال الظالمون ، من نهب وسلب وتقتيل واتباع للفارين وترويع للآمنين المسالمين ، وانتهاك للحرمان التي صانها الإسلام ، وحفظها الإيمان بالله ...

وفي هذه الموقعة الحاسمة التي وقعت في تاورغا استشهد بطل من أشد الأبطال ، وعالم من أعظم العلماء ، ومؤمن من أخلص المؤمنين ، فاختمت صفحة بيضاء من صفحات التاريخ الإسلامي ، سجلت عليها مآثر في كفاح النفس وكفاح الجهل ، وكفاح العدوان .

وإذا كان سلمة بن سعد أول داعية إلى اتباع الحق في هذه الربوع ، وكان أبن مغطير أول منفذ لفكرة البعثات العلمية ، وهما بذلك يبنيان ركناً هاماً في تاريخ الكفاح العلمي ، فإن ابن يمكن هو أول من استطاع أن يبلغ إلى درجة علمية بقوة الإرادة والعمل الدائب المستمر ، ثم هو أول من أفتتح مدرسة لتعليم كتاب الله ، وبهذا العمل المجيد يحق أن يعتبر من أهم أركان الكفاح العلمي في ليبيا ، ولكنه بالإضافة إلى هذه الصفات المشرفات التي يسجلها مع زميله في خدمة العلم والدين ، له صفحات أخرى مشرقا في كفاح الظلم والطغيان ...

إنه شخصية هامة في تاريخ الحركات الإسلامية في ليبيا ، وأنت حين تتحدث عن أبطال الكفاح السياسي أو العسكري لا يمكن أن تغفل هذا البطل القوي ، وحين تتحدث عن العلم والعلماء ، وعن الإيمان والمؤمنين ، وعن الكفاح من أجل الحق في جميع ميادينها ، لا يمكن أن ننسى عمرو بن يمكن ، وهنيئاً لدمراً الحمدانية فيما أجبث ...

إن الحديث عن عمرو بن يمكن باعتبار الحوادث السياسية يكون بعد أبي الخطاب ، ولكنني حين تحدثت عن جانب من الكفاح العلمي ، وتعرضت لسلمة وابن مغطير ، رأيت أن أأخذ عن هذا العامل هنا ، لأنه يمثل جانباً من الكفاح العلمي في ذلك العصر ، وبه تتم الصورة التي أردت أن أضعها بين يدي القارئ الكريم لذلك العصر .

الحارث بن تليد

بطل من أولئك الأبطال الذين يظهرون فجأة عند الحوادث ، فيبرزون بين الصفوف لقيادة الجموع عندما تكون القيادة رسالة يجب على المؤمن أن يؤديها .

لقد كان الإباضية في ليبيا منصرفين إلى دينهم وأعمالهم ، لا تهمهم مناصب الدولة ، ولا يلتفتون إلى كراسي الحكم . حتى حترش بهم الياس بن حبيب فقتل أحد المؤمنين دون جريرة ، ليرهب جانبهم ، ويزرع في قلوبهم الذعر فيما حسب ، ولكن القضية جاءت بعكس المطلوب .

طلبت الإباضية من عبد الرحمن بن حبيب أن يقتل أخاه إلياس بقتله مسعود التجيبي ولكن العامل أبى من ذلك وكل ما فعله أنه عزل أخاه إلياس عن ولاية طرابلس وولى بدله حميد بن عبد الله العكي ، يعنى أنه جعل العزل من منصب يكافئ دم مؤمن برئ ...

ولما وقف العامل هذا الموقف البعيد من حكم الله ، ثار الإباضية ، فبايعوا الحارث بن تليد إماماً ، فتقدم وهو يعلم أنه يتقلد أمراً عظيماً ولذلك اختار عبد الجبار بن قيس المرادي قاضياً

، ومشيراً ، وصديقاً ، فكانا ثنائياً لا يفترق حتى أن كتب التاريخ لا تذكرهما إلا مقترنين ، بل إن بعض المؤرخين لم يعرف الأمير من القاضي .

وما سمع العكي والي عبد الرحمن بن حبيب على طرابلس ببيعة الإباضية للحارث بن تليد حتى جهز جيشاً وخرج للقضاء عليه ، ولكن النصر كان في جانب الإباضية ، فافترق جيش العكي وألقى عليه القبض في إحدى القرى ، فأطلق سبيله وخبر بين البقاء ، له حقوق المسلمين وواجباتهم ، أو السفر آمناً موفوراً ، فاختار السفر ، ولم يقطع الإباضية رأسه ليعلقوها على سور المدينة كما يفعل الظالمون ، وإنما كل ما فعلوه عندما تم لهم النصر أن قتلوا رجلاً في صاحبهم ، رجل برجل كما يقضى حكم الله من سبع سماوات ...

والتف الناس حول الحارث بن تليد في ليبيا لعدله واستقامته وسيرته الرضية ، فاهتم لذلك عبدالرحمن بن حبيب وصار يرسل الجيش تلو الجيش للقضاء على هذه الإمامة التي انتزعت ليبيا من الحكم الظالم ، ولكن جميع هذه الجيوش كانت تعود إليه منهزمة ، وأصبحت ليبيا كلها تحت حكم الإمام الحارث بن تليد .

وعندما عرف عبدالرحمن أن القوة لا يمكن أن تنتصر على الحق ، وأن الجند الذين يحاربون عن متاع من الدنيا قليل ، لا يمكن أن يقفوا في وجه جند يدافعون عن مبدأ اعتنقوه ، وحق اعتقدوه ، عندما عرف ذلك لجأ إلى الخيلة .

لقد كان الإمام الحارث يسير بسيرة الصفوة من حكام

الإسلام ، لا يتخذ حاجباً ولا يجعل على باب بيته حارساً ، ولا يرد عنه متظلم أو باك ، ولذلك كان الناس يغشون بيته في أي وقت شاءوا وليس بينهم وبينه إلا الإذن الذي فرضه أدب الإسلام على المؤمنين .

واستغل العدو هذه السيرة العطرة في أبشع ما يستغل به الحق للباطل ، فقد أوعز إلى جماعة ممن لا دين لهم ولا ضمير ، فدخلوا على الإمام وكان قاضيه وصديقه معه ، دخلوا في صورة متخاصمين ، ولما اطمأنوا إلى أن الإمام والقاضي مستغريان في تفهم المشكلة المعروضة عليهما ليحكمها فيما أنزل الله وهما غير مسلحين ، وثبوا عليهما وقتلوهما ، وجعلوا في يد كل واحد منهما سيفاً ، ثم خرجوا ، وكأنهم لم يرتكبوا أفظع جريمة يرتكبها رجل سلب الإيمان والضمير .

واكتشفت الحادثة فيما بعد ، واعتقد كثير من الناس أن الصديقين تنازعا فقتل كل منهما صاحبه ، وكثر النقاش في معرفة الظالم من المظلوم ، ولم تنجل الحقيقة إلا بعد أن وجد عبدالرحمن بن حبيب الفرصة التي يتحينها ، فحينما كان الإباضية في موقف الحائر المتردد في معرفة الحادثة والأسباب الداعية إليها ، وعندما كان العارفون منهم يحاولون أن يوحّدوا الصفوف والجهود فكانوا يستترشدون برأي إخوانهم في المشرق ، وكان الرسل يقطعون المسافات الطويلة ذهاباً وإياباً ، في هذا الحين استطاع العامل القيرواني أن يكسب المعركة ، وأن يرجع إليه حكم البلاد ، وهكذا نجحت المكيدة حينما فشلت القوة ، ولم تزل المكائد والفيلة هي سلاح الظالمين في كل عصر ومصر .

أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح

كانت دروس أبي عبيدة في معاني الحرية ، وفي الكرامة البشرية ، وفي وجوب إقامة شعائر الله ، والمحافظة على حقوق الإنسان التي أقامها الإسلام ، وفي حرمة الخنوع والذلة والاستسلام على المؤمنين ، وفي وجوب محاربة الطغاة ومطابقتهم بالوقوف عند حدود الله ، كانت تلك الدروس الدينية والوطنية قد أثرت تأثيرها الحسن على نفوس طلابه الذين لقبوا فيما بعد " بحملة العلم إلى المغرب " ولذلك فقد سأله عندما أخذوا حظهم من العلم ، وخلصوا على الدرجة التي تؤهلهم لتبليغ الدعوة ، الدعوة إلى دين الله كما جاء به رسول صلى الله عليه وسلم ، سألوا الإمام الكبير هل يجوز لهم إذا أنسوا في أنفسهم قوة ، ورأوا أنهم يستطيعون أن يقيموا أمر الإسلام على ما جاء في دين الله وسيرة السلف الصالحين ، هل لهم أن يقوموا لذلك ؟ واستمع الإمام إليهم وهو يتوقع منهم خيراً وأذن لهم في العمل ، واختاروا لهم أبا الخطاب ليقوم بأعباء الدولة المسلمة الجديدة ، فإن امتنع قتلوه وولوا غيره .

ورجل الزملاء الأصدقاء الذين ربطت بينهم أواصر الدين وزمالة الدراسة ، فاختاروا ليبيا لأقامتهم ، واستقروا بعاصمتها طرابلس ، هذه المدينة الجميلة الحاملة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، أما البلاد التابعة لهذه المدينة فقد كانت تمتد في الأقطار الثلاثة : ليبيا ، تونس ، الجزائر . هذه الأقطار التي أصبحت اليوم ممالك مستقلة عن بعضها بما أقامه الاستعمار من حدود بينها أما في ذلك التاريخ فإن الإسلام لا يقيم الحدود ولا يقسم الشعوب ، ولا يعرف القوميات الطبقية ، ولا الجنسيات المختلفة ، إن المبدأ الذي يؤمن به الجميع هو : (الله ربنا ، والإسلام ديننا ، ومحمد نبينا ، والكعبة قبلتنا ، والقرآن إمامنا ، رضينا بحلاله حلالاً ، وحرامه حراماً ، لا نبتغي به بدلاً ، ولا عنه حواً ، لا جنس ولا لون ، ولا وطن ، فالجنس هو البشرية ، والوطن هو بلاد الإسلام ، أما اللون فإن الأبيض والأسود والأصفر والأحمر كلها من خلق الله الذي أحسن كل شئ خلقه ثم هدى) .

استمرت البعثة العلمية في طرابلس وكانت البلاد في ذلك الحين تعاني من الظلم والجور ، وتقاتل الولاة على مناصب الدولة لابتزاز الأموال ، واستغلال الناس ، والحكم بالهوى الذي ما أنزل الله به من سلطان . كانت البلاد تعاني من ذلك ما لم يبق في قوس الصبر منزعاً ، أو في صدر الحليم سبباً للأناة والاحتمال . وتشاور أربعة أصدقاء من أفراد البعثة في إنقاذ الأمة من هذا الطغيان المسلط عليهم ، وإتاحة فرص الحياة الكريمة لهم ، وإقامة أحكام الله كما أنزلها الله ، وعرضوا فكرتهم على أصحاب الرأي والعلم من أهل البلاد ، فوجدوا منهم إقبالا وتشجيعاً .

وحينئذ أخبروا زميلهم الخامس أبا الخطاب أنهم مطلوبون إلى صلح بين متخاصمين في الصحابة الغربية لطرابلس "صيد" وتم الاجتماع واتفقوا على مبايعة أبي الخطاب بالإمامة ، فلم يدر إلا والقوم يطلبون منه أن يمد يده للبيعة فيحكم بينهم بكتاب الله ، ويقيم الحدود ويسير سيرة الخلفاء الراشدين ، وحاول أن يمتنع من هذه المسؤولية العظيمة ، وأن يتخلص من هذا الموقف الذي توضع فيه أمانة الأمة بين يديه ، وأجاب القوم بأنهم إنما أتوا لإجراء صلح بين متخاصمين لا لإقامة خلافة ، ولكنهم أصروا على موقفهم ، وذكره بوضعية الإمام أبي عبيده وخبره بين قبول البيعة أو القتل ، فرضى مكرها ، ولكنه اشترط عليهم أن لا يذكروا مسألة الحارث وعبد الجبار ، واشترطوا عليه ما يشترطه المؤمنون الذين يلقون بمقاليد أمورهم إلى رجل يثقون بدينه وأخلاقه وأمانته ، وتمت البيعة ، ورجع القوم دون قتال لأن جميع السكان كانوا يتوقون إلى الخلاص مما هم فيه من عذاب ، ودعا أبو الخطاب الوالي السابق على المدينة ، فخيرته بين البقاء وله ما لإخوانه من المسلمين ، وعليه ما عليهم من الحقوق والواجبات ، أو الرحيل آمنا موفور الكرامة ، فاختار الرحيل ، ورتب أبو الخطاب أمور الدولة ، فأسند القضاء إلى إن درار الغدامسي وولى عمرو بن يكتن على سرت وما والاها .

بدأت الأخبار ترد على أبي الخطاب بما ترتكبه قبيلة ورفجومة البربرية من فظائع في القيروان ، فقد سمع بعنوتهم وطمغيانهم وجورهم وسومهم الناس سوء العذاب ، وربطهم لدوابهم في المسجد الجامع ، وأرسلت إليه امرأة كتاباً تخبره فيه أنها تحفظ

ابنتها في مطمورة خوفاً من ورفجومة ، وأتاه رجل أخبره أنه مر بالقيروان فرأى ناساً من ورفجومة كابروا امرأة على نفسها ، والناس ينظرون إليهم ولا ينكرون ذلك خوفاً منهم ، وبلغه أن جماعة أخرى من هؤلاء الناس أخرجوا امرأة وهي تصيح : يا معشر المسلمين أغيثوني ، فلم يغثها أحد . عندما تواترت هذه الأخبار عند أبي الخطاب : دعا الناس إلى اجتماع ، وحثهم على الجهاد في سبيل الله ، ودفع المنكر الذي يؤتى علنا في بلد مسلم ، وبين أناس مسلمين . فاجتمع عليه عدد وافر من أهل البصائر الذين يؤثرون الآخرة على الحياة الدنيا ، فأمر منادياً ينادى في الجيش ، من كان له أبوان أو أحدهما أو له عروس جديدة فليرجع ليل ، وفي الصباح يتقصى الأثر حتى إذا انقطعت الآثار الراجعة ولم يبق معه إلا أولئك الذين عزموا على الاستماتة في كفاح الباطل .

سار بهم حتى أتى قابساً فاحتلها دون عناء وجعل عليها والياً ، ثم سار إلى القيروان .

لقي جموع ورفجومة فقاتلهم حتى انهزموا ، فتحصنوا بالمدينة ، فبقى محاصراً لها مدة طويلة حتى اضطروا إلى القتال من جديد ، ووقعت بينهم موقعة هائلة ، أسفرت عن انهزامهم ، فأمر بأن لا يتبع مدبرهم ، ولا يجهز على جريحهم ، ولا يؤخذ شيء من أموالهم ، وأعلن الأمان للناس ، فخرج الناس إلى أعمالهم كما كانوا يفعلون أيام السلام ، ومرت امرأة بميدان القتال وعجبت حين وجدت قتلى ورفجومة مجندلين في ساحات الكفاح دون أن يمس شيء من أسلابهم ، فقالت : "كأنهم رقود" وسمى المكان منذ ذلك اليوم "رقاده" وإن حاول بعض الناس فيما

بعد أن يغير هذا الاسم .

وكانت مفاجأة مذهلة للناس عندما وجدوا مزارعهم وحقولهم وثمارهم سليمة لم يمس منها شيء إلا إذا كان من تقلبات الجو أو وحوش الصحراء . وعجبوا من عدل هذا الإمام . ونزاهته وطاعة الجيش له . وغفلوا أن هذا الجيش لم يتكون من جند يعملون لمكاسب الدنيا من رواتب يقبضونها . وغنائم يختلسونها . وإنما قوام هذا الجند قوم يدافعون عن الحق والدين . لا يبتغون عرضاً من الدنيا . ولا غنيمة في هذه الحياة القصيرة . ولا جاهاً عند الناس . وتفقد الإمام القتلى . فوجد واحداً منهم قد أخذ سلبه . فأمر برد كل ما أخذ . ولكن الغال . لم يسمع لأوامر الإمام واحتفظ بالسلب . وغلب عليه الشيطان وعندما رجع الجيش بعد أن دفع المنكر عن الأمة وأشاع الأمن في البلاد . وأرجع الحقوق إلى أهلها . وعندما رجعوا وكانوا بالطريق خطر لهم أن يتسابقوا .

ووقع السباق بين الفرسان لإظهار البراعة والرشاقة . وكان جميل السدراتي من يثق بنفسه ويعجب بفرسه فاشترك في هذا السباق . ولكن شاء له سوء حظه أن ينقطع حزام سرجه . وأن ينكشف السلب تحته . وأن يشهد فضيحته كل الجيش فأدبه الإمام على خرقة لنظام الجيش واستحلاله لمال المسلمين . وغلوله لما حسبه غنيمة .

وقال خالد اللواتي للإمام : " نأكل من أموالهم كما يأكلون من أموالنا . قال الإمام: حقيق على الله أن يدخلنا معهم النار

إذن . وارخل أبو الخطاب وجيشه إلى طرابلس بعد أن نصب عبدالرحمن بن رستم والياً على القيروان .

استكبر جميل السدراتي أن يفتضح أمره أمام الناس وأن يقام عليه الحد . ولذلك فقد التحق بأبي جعفر المنصور وبقي يبذل المحاولات سنة كاملة ليقنع أبا جعفر بضرورة حرب أبي الخطاب والقضاء عليه . واستجاب له أبو جعفر أخيراً .

وبدأ يجهز الجيوش إثر الجيوش لمقاتلة أبي الخطاب . وبعد وفائع مذهلة ذاق فيها أبو جعفر مرارة الهزيمة استطاع محمد بن الأشعث أن يغرب بجيش أبي الخطاب وأن ينتصر عليه الانتصار الحاسم . وأن يرتكب من الفظائع ما يبرأ منه الإسلام والمسلمون .

إنني لم أضع هذا الكتاب لسرد وقائع التاريخ إلا بمقدار الضرورة التي أراها واجبة التي لتوضيح الصورة التي أضعها بين عيني القارئ الكريم . فإن الوقائع التاريخية توجد في الكتب المعنية بذلك مفصلة وإنني أريد في هذا الكتاب أن أجلو سيرة أهل هذا المذهب وأثر الدين والعقيدة على سلوكهم الفردي والجماعي وتوجيهه لهم في حالي الحرب والسلم والظهور والكتمان ...

ولقد قام أبو الخطاب بعدة حروب . بعضها مع البربر . وبعضها مع العرب وبعضها مع مزيج منهما . ولكن سيرته في كل ذلك كانت سيرة واحدة . كفاح الظلم والطغيان . ودفع للمنكر والعدوان حتى إذا انتهت الحرب أشاع الإمام الأمان بين الناس .

وساوى بينهم في الحقوق ، ولم يؤاخذ أحداً منهم بما فعله إبان الحرب ، فلا يحاسب مجرى الحرب باصطلاح هذا العصر ، ولم يتبع الفارين ، ولم يروع المسالمين ولم يجهز على الجرحى و التي لم يمس شيئاً من أموالهم ولم يقطع رؤوس زعمائهم وكبرائهم .

تلك سيرته وهي السيرة الغراء التي يدعو إليها الإسلام والتي تعرفها للخلفاء الراشدين الكرام .

مواقف غير عادلة

يقول الأستاذ الطاهر الزاوي في كتابه " الفتح العربي في ليبيا " بعد أن تكلم عن أبي الخطاب ، يقول : " والذي بمعن النظر في حروب أبي الخطاب مع جيوش أبي جعفر المنصور ، لا يشك في أنها حروب قصد منها توسيع النفوذ ، والاحتفاظ بالسلطة على أكبر عدد ممكن من الناس ، وعلى أوسع رقعة من الأرض " .

ولو لا أن كثيراً من الناس الذين لا يتبعون التاريخ ويسسرون مع أحداث الزمن قد يظنون صحة هذا الرأي ، ويقتنعون بتعليل المؤلف لهذه الثورات العارمة ، التي كان أبو الخطاب يجاهد فيها بما ملكت يده من روح ومال ، لو لا ذلك لسكت عن هذه الغمرة من المؤلف ، كما سكت عن عشرات الغمرات التي يملها قلب غير سليم .

يقول الأستاذ الزاوي في كتابه " الفتح العربي في ليبيا " وهو يتحدث عن أبي الخطاب العربي : " وكان من أشد خصوم سياسة العرب في إفريقية ، وقاتلهم انتصار لبني مذهبهم ، وقد أخلص للبربر إخلاصاً جعله منهم في محل التقدير ، الخ " .

ويمضى المؤلف على هذه الوتيرة لا يتحدث إلا عن البربر

والعرب . وعجيب والله أمر رجل مسلم يكتب عن التاريخ في هذا العصر بهذه الروح البالية .

يقول الأستاذ الزاوي : إن أبا الخطاب كان من أشد خصوم سياسة العرب في ليبيا .

إن أبا الخطاب أيها الأستاذ والإباضية من قبله ومن بعده ، ليسوا خصوماً للعرب ، إنهم أخوة لهم وإنما هم ، خصوم للانحراف بدين الله ، وأعداء للطغيان والعدوان والظلم ، سواء كان ذلك من العرب أو من البربر أو من غيرهم من الأجناس ، فهم منذ أكرمهم الله بالإسلام كانوا ينظرون إلى المسلمين بأنهم أمة واحدة وينظرون إلى أولئك الذين يستغلون مراكز الحكم أسوأ استغلال بأنهم ظالمون يجب أن يؤخذ على أيديهم حتى يعتدلوا أو يعتزلوا ، وموقف الإباضية من طغاة البربر والعرب واحد في كل الأحوال ، على أن الذي يرجع إلى تاريخ أبي الخطاب نفسه وحسبما رواه الأستاذ الزاوي يجد أن أبا الخطاب هو الذي هاجم ورفجومة - القبيلة البربرية الكبيرة ، حين بلغه عنها البغي والفساد ، حاربها حرباً طاحنة حتى أخرجها من القيروان - هذه المدينة التي وضع الحجر الأساسي فيها أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم ، فظهر مسجد عقبة من دواب ورفجومة .

وأبو الخطاب حين يهاجم هذه القبيلة الباغية لم يهاجم غيرها من القبائل والبلدان . فقد قام بأمر الإمامة في طرابلس دون أن يريق قطرة دم ، أما حروبه فيما بعد فهي رد للعدوان الذي تشنه عليه جيوش العباسيين المتعاقبة . وفي جميع تلك الحروب

الظالمات التي انتصر فيها أبو الخطاب سواء في ورادة أو في مغمدة أو في غيرها ، كان أبو الخطاب مثلاً حياً لسيرة الخلفاء الراشدين ، لا يتبع مديراً ولا يجهز على جريح ، ولا يغنم مالا . ولا يعاقب على الموقف المضاد في الحرب ، ولا ينتقم من قادة وزعماء الفريق الثاني ، ولا يصل منه ولا من جيشه أي أذى للبريء والمسالمة .

وعند ما خرج محمد بن الأشعث من مصر إلى لقاء أبي الخطاب ، أرسل عيوناً يستطلعون له الأحوال ، فلما رجعوا إليه سألهم فقالوا : أنطيل أم جمل ، فقال ابن الأشعث : بل اجملوا . قالوا : " رأينا رهباناً بالليل ، أسوداً بالنهار ، يتمنون الجهاد بلقائكم كما يتمنى المريض لقاء الطبيب . لو زنى صاحبهم لرجموه ، ولو سرق لقطعوا يده ، خيلهم من نتاجهم ، ليس لهم مال يرتزقون منه ، وإنما معاشهم من كسب أيديهم (6) " ، أترى أنك واجد هذا الوصف في غير الرعيل الأول من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

يرى الأستاذ الزاوي كما نقلت عنه في أول هذا الفصل أن الحروب التي قام بها أبو الخطاب كان يقصد منها إلى التوسع والسيادة ، وهو جد عليم أن أبا الخطاب لم يقبل هذا الأمر إلا مكرهاً ، وبعد أن أفتى أعظم إمام ديني في ذلك العصر بقتله إن امتنع عن خمل هذا العبء الذي يختار له القوى الأمين . وهل من علامات حب السيطرة والعلو أن يستولي أبو الخطاب على طرابلس دون إراقة قطرة من الدم وأن يخير حاكم البلد بين

البقاء في أمته وبين إخوانه آمناً أو الرحيل إلى سلطانه موفوراً؟ وهل من حب السلطة والتوسع أن ينتصر القائد ثم يتفقد قتلى العدو فيجد واحداً منهم مسلوباً فلا يقر له قرار حتى يعرف السالب ويؤدبه . وهل من حب التوسع والنفوذ أن يحارب المحارب وينتصر ولكنه يعرض عن جميع المكاسب والغنائم؟ وهل من علامات التوسع أن يبقى جيش مكون من ستة آلاف

محارب محاصراً لمدينة كالقيروان مدة تطول أو تقصر ثم يخرج أهالي المدينة إلى حقولهم فيجدونها سالمة لم يتغير منها إلا ما غيرته عوامل الطبيعة من ريح ووحش . وهل يجد المتتبع لحوادث التاريخ صورة واحدة من هذه الصور الرائعة عند أولئك الذين يهاجمون أبا الخطاب . ويوالون عليه الحرب ؟ إنه لن يجد بالتأكيد إلا عدواناً وظلماً وسرقة وغلوا . وارتكاب الفواحش في الأنفس والأعراض والأموال لا يسلم منهم برئ ولا مذنب وهم حين تناح لهم فرصة النصر لا يقفون على جريح ولا يرجعون عن فار . ولا يسلم منهم مسالم . ولا ينجو منهم مال ولا عرض . ثم هم يتجاوزون كل ذلك إلى المثلة وتشويه خلقه الله وقطع الرؤوس لنيل الخطوة بها عند ملوك البغي في الدنيا .

ويقول الأستاذ الزاوي في كتابه الفتح العربي : " ومهما بلغت كثرة جيش يذهب من مصر لغزو أفريقيا فلا يمكن أن تصل واحداً من عشرين من جيش البربر الذي يمكنهم أن يعدوه لمقابلة هذا الجيش . ولكن النصر بيد الله . والله مع الصابرين .

هذا كلام الأستاذ الزاوي بحروفه . وهذا التلميح لا يصدر

من مسلم سليم الصدر . صحيح العقيدة . وأنا حين أنقل هذا الكلام عن الأستاذ وأضعه بين أيدي القارئ الكريم فإنما أريد أن يتأمل النصف ما يدسه كتبه التاريخ عن الأمة . وما يوحون به للناس من زيغ . على أن قضية النصر والهزيمة في الحادثة التي يشير إليها الزاوي - إذا سلمت من المغالطة - واضحة !

إن محمد بن الأشعث أعد له جيش كامل يتألف من خمسين ألف مقاتل على أوسط الأقوال . تدفع الأجور من بيت مال الدولة في مصر أو في بغداد ليقوموا لها بالحروب وهم على استعداد في جميع الأوقات . أما أبو الخطاب فليس له جيش تدفع له الأجور ويكون تحت الطلب في جميع الأحوال . بل إن المحاربين إنما هم أفراد من الأمة بدافع المبدأ ومحاربة الباطل . وليس لهم أي غنم في هذه الحروب الهائلة . فهم يزودون أنفسهم ويسلحونها . ويندفعون إلى الحرب باختيارهم ليحموا أنفسهم وبلادهم من عبث العابثين وظلم الظالمين . ولم يكن البربر كلهم مع أبي الخطاب كما زعم الزاوي . فإن من البربر خوارج ومعتزلة وأتباع بنى العباس . وهؤلاء جميعاً لا يقاتلون مع أبي الخطاب . بل إن منهم من يقاتله كورفجومة . وإنما يتكون جيش أبي الخطاب من بعض البربر وبعض العرب يعبدون الله على مذهب عبد الله بن إباح . وعدد هؤلاء ليس بالكثرة التي أراد أن يوحى بها الظاهر الزاوي . ثم إن ابن الأشعث هجم على طرابلس حين نجحت مكيدته . وتفرق جيش أبي الخطاب إلى حصاد الزرع وهم مطمئنون إلى أن الجيوش المهاجمة قد ولت الأدبار . فلما وقعت الغارة المفاجئة لم يحضر إلا القليل في تتابع . جماعة بعد جماعة . وهكذا

استطاع جيش ابن الأشعث أن يقتل من هؤلاء الأبطال آلاف . ولم يرتو ابن الأشعث من هذه الدماء التي سالت في الموقعة . فكان يتتبع الناس في بطون الأودية وشغاف الجبال يروع الأمنين . ويقتل المسالمين ، ويجمع الأموال الحرمية التي عصمها الإسلام ؛ وأخيراً قطع رأس أبي الخطاب وأرسلها إلى بغداد .

وقارن أيها المسلم . بين الموقفين : موقف أبي الخطاب عندما استولى على طرابلس . وعندما احتل القيروان ، وموقف بنى العباس حين أتحت لهم فرصة النصر .

وضع الصورتين أمام الأستاذ الزاوي ليستخرج العبرة والموعظة من التاريخ .

أبو حاتم الملوّزي

أبو حاتم يعقوب بن حبيب الملوّزي التّجيسي مولى كنده . علم آخر من أعلام الإسلام . وبطل من أبطال الكفاح . وعدو لدود من أعداء البغي والظلم والجبروت . ولدته الحوادث السود . وأبطال الحرية والكرامة والمبادئ لا يظهرون إلا في الحوادث السود لإنقاذ الإنسانية من شر الإنسان .

قتل أبو الخطاب عبد الأعلى بن السّمح المعافري في معركة من المعارك الحامية . بينه وبين محمد بن الأشعث ، العامل الذي عينه أبو جعفر المنصور لحكم أفريقية . وتفرق جيش أبي الخطاب بعد الهزيمة ، ولكن ابن الأشعث لم يكتف بهذا النصر الذي أحرزه ، ولم يقنعه الاستيلاء على هذه البلاد الفسيحة ، التي كانت تابعة لأبي الخطاب ، فعمد إلى رأس أبي الخطاب وهو قتيّل في المعركة فاجتزّه وبعث به إلى بغداد ، ليزيد حظوة عند أبي جعفر ، ولم يشف ذلك ما في قلبه فأمعن يقتل ويسلب ، متبعاً الفلول المنهزمة ، والشراذم الفارة . والأحياء التي يجعلها سوء حظها في طريقه ، لا يردعه دين ولا خلق ، ثم ولى أمر البلاد من يزيد عنه بغياً وعدواناً ، فكان ينتقل بين أحياء المسلمين وقبائلهم

يسلب وينهب ، يقتل ويفجر ، فكان يدخل الأحياء ويأمر المحصنات الحرائر أن يفلن لحيته القذرة ، وليس بعد هذا الفجور فجور ، ولا بعد هذا الظلم ظلم ...

عند ذلك تداعى أصحاب الشهامة والكرامة الذين يؤمنون بأن الله لا يرضى لهم السكوت على هذه المناكر ، ولا يحل لهم البقاء على هذا الهوان ، ينزل بأمة مسلمة ، حفظ الإسلام أعراضها ودماءها وأموالها ، فانتهكها من خانوا الله ورسوله في أمانة الدولة والدين .

تداعى هؤلاء الأبطال ، وأظهروا أنهم يريدون النظر في قضية امرأة أساء إليها زوجها ، فعقدوا اجتماعاً بحثوا فيه موقفهم ، وموقف الأمة ، وموقف هؤلاء البغاة الظالمين ، ووجدوا أنهم لا يسعهم في دين الله أن يسكتوا على ما يقع بين أيديهم وأعينهم ، وأنسوا في أنفسهم قوة يمكن أن تخف على المسلمين ما هم فيه من ذلة ومهانة ، ولو إلى حين ، فقدموا عليهم أبا حاتم الملوذي وبايعوه على أن يعمل بكتاب الله وسنة رسول الله وهدى السلف الصالحين ، فقبل منهم واستعد للكفاح .

وما سمع الوالي العباسي بهذا الحادث حتى بعث بحملة عسكرية للقضاء على هذه الثورة ، ولكن هذه الحملة لم تنجح ، وقتل عدد غير قليل من جندها ، وتفقد أبو حاتم القتلى فوجد بعضهم مسلوباً ، فغضب ، وقال إن لم تردوا أسلابهم تركت أمركم ، فأرجعت الأسلاب ، وأعلن الجيش توبيتهم من عملهم ذلك ، وسار السيرة العادلة المعروفة التي سارها المؤمنون الصادقون

من قبله في حروب أهل الإسلام الباغين ، حفظ لكرامة المسلم في دمه وماله وعرضه ولو ظلم أو بغى ، ثم عدل بين الرعية ، وإنصاف لأفراد الأمة ، وإقامة حدود الله ، لا جبروت ولا عدوان ، ولا ظلم ولا أثرة ولا استغلال ، الناس متساوون في الحقوق وفي الواجبات ، وفي فرص الحياة ، فمن اعتدى نفذ فيه حكم الله ، وذاق الناس لمدة قصيرة طعم الحكم الإسلامي ، الحكم الذي أرادته الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فاختلسه منها عبيد الشهوة وعبيد السلطة والمال .

هدأت الأحوال في طرابلس ، واستتب الأمن والسلام ، وبدأ الناس يشعرون بالحياة الكريمة للأمة الكريمة ، فاجه أبو حاتم إلى القيروان ليخفف عن أهلها ما أصابهم من كرب ، وما لحق بهم من أذى ، ويرفع عنهم عبث أيدي ولاية الظالمين ، لا يرقبون في الله إلا ولا ذمة ، ففتحها بعد حصار طويل وكان الجهد والجوع قد بلغ مبلغاً عظيماً من الجند المحصور بالقيروان ، فلما تم النصر لأبي حاتم ، وفتحت له أبواب المدينة ، واستسلم الجند المحاربون ، لم يفعل ما فعله محمد بن الأشعث ، يوم انتصر على أبي الخطاب في ليبيا ، إن أبا حاتم مؤمن يحس ما يعانيه هؤلاء المسلمون الذين يسوقهم الظلمة سوق الأغنام ، ولذلك فلم يمعن فيهم تفتيلاً ونهباً وسلباً وتعدياً على الأعراض ، وإنما زودهم بالماء والغذاء والسلاح الضروري ، فأعطى لكل خمسة منهم قربة للماء وعصاً وخنجرًا يصلحون به أمرهم ، ويدفعون به ما يعترض طريقهم من وحش مفترس وهم يعودون إلى قراهم آمنين ، كما أعطى لكل واحد منهم رغيفاً من الخبز .

لك أن تقارن أيها القارئ الكريم بين الحالة الفظيعة التي يلاقيها الناس عندما ينتصر الظالمون ، وكيف تذهب الأرواح والأموال والأعراض هدراً بعد أن ترفع الحرب أوزارها . لك أن تقارن بين ذلك وبين هذا السلوك الكريم الذي يعطف حتى على الباغي الظالم ، فيقدم له ما تيسر من مساعدة . لك أن تقارن بين منتصر يقتل ويسلب ، ويجز الرؤوس ، ويعبث بالأعراض التي صانها الإسلام ، ومنتصر آخر ، يعطف على جيش العدو ، فيزوده بالزاد والسلاح ، ويتركه سالماً موفوراً ليلحق بأهله .

لقد ضرب أبو حاتم بهذه السيرة العطرة مثلاً سامقاً للمؤمنين الذين يناط بهم حمل أمانة الحكم ، وتجبرهم الحوادث إلى تربية البغاة ، ولكن هل تجد مثل هذه السيرة أو قريباً منها عند أولئك الذين يحاربون باسم الخلافة في الزمن القديم ، أو يحاربون باسم الدولة في العصر الحديث .

أنه ليس لأولئك ولا لهؤلاء من مزايا أمانة الحكم إلا حمل الأسماء والشعارات ، يتاجرون بها عند الرؤساء ، ويخدرون بها الشعوب ، ويستغلونها لأنفسهم ، وبسببهم وسبب أمثالهم من عبيد الشهوة ، شهوة المال وشهوة السلطة ، وشهوة الجنس ، أصيب الإسلام أمس ويصاب اليوم بالنكبات المتلاحقات ، أوقفت تقدمه ، وغلبت عليه أعداءه الذين يتربصون به الغفلة ، ويتوقعون منه الغرة ، وينتظرون منه العثرة . حتى و انتهت تلك المصائب جميعاً ، ينزلها الجابرة الذين يحملون اسم الإسلام على أمة الإسلام ، والذين استخدموا شرف الخلافة في محاربة من أولاهم الخلافة . وأعطاهم الثقة ، وأخذ منهم عهد الله .

ولم يردعهم رادع من خلق أو حياء أو دين . بل لقد ذهبت الخلافة ، وقامت في كل بقعة من بلاد الإسلام دولة تنعق بأنها جاءت لخدمة الأمة ، ولم تجد منها الأمة حتى اليوم إلا خطباً تلقى ، واجتماعات تعقد ، ومديحاً تضيفه الإذاعات والصحف على أصحاب المناصب وسلوكاً أبعد ما يكون عن مصلحة الأمة ، وروح الإسلام ، وسيرة السلف الصالحين ، فلا عفة عن مال الأمة ولا وقوف عن إراقة دم برئ لا خلل إراقتة إلا بحقه .

ما ضر هؤلاء الذين يحملون اليوم أمانة الدولة ، ويقدمون على حراسة مصالح الأمة ، ما ضر هؤلاء أن يسيروا سيرة الصالحين من سلف هذه الأمة ، وأن يعفوا عن أموال الأمة ودمائها كما عفا عنها عمر بن عبد العزيز وأبو الخطاب وأبو حاتم وكما عفا عنهما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عندما أنهزم الثائرون بقيادة طلحة والزبير فلم يتبع مديراً ولم يجهز على جريح ، وإنما استغفر للجميع ، وضمد الجراح وواسى القلوب : ما ضر هؤلاء الذين يتداولون كراسي الحكم ومرافق الدولة في مختلف بلاد الإسلام ، أن ينزهوا ضمائرهم عن الانتقام ، وجيوبهم عن المال الحرام ، وأيديهم عن إراقة الدماء .

كان أبو حاتم حقيقاً أن يسير بالأمة سيرة الخلفاء الراشدين ، والسلف الصالحين ، لو أمهلته أيدي الظلمة المستبدين ، أولئك الحكام الذين لا يرضيهم أن ينتشر الأمن والعدل والسلام في جهة من الجهات ، لأن ظهور ذلك يظهر مساوئ الحكم عندهم ، ويبعث ديبب اليقظة في نفوس رعاياهم : تلك الرعايا التي استنامت إلى الذلة والهوان بما لحقها من بطش وعدوان .

وهكذا جهز أبو جعفر الجيوش وأرسلها إلى أبي حاتم ، وبعد حروب طاحنة ووقائع سود ، قتل هذا البطل المؤمن ، كما قتل من قبله أبطال ثائرون ، برهنوا أن في الأمة من يقوم بحجة الله على البغاة ، فينتزع منهم مقاليد السلطة ، ولو لزمن قصير . ليظهر للناس ما في حكم الإسلام من كرم وسماحة وجمال ، حين تقوم بين أفراد الأمة من حاكم ومحكوم حقوق العدل والمساواة .

الزاوي وكرامات الأولياء

إنني لا أريد في هذا الفصل أن أناقش موضوع الكرامة ، فقد ناقشها علماء الإسلام الأعلام بما فيه الكفاية ، وبما لا أستطيع ببضاعتي الضئيلة أن أبلغ أقله ، ولكنني أريد أن أناقش الأستاذ الزاوي في هذا الموضوع بالذات :

قرأت للأستاذ الزاوي في كتابه " تاريخ الفتح العربي في ليبيا " إنكاراً لكرامة نسبت إلى أحد الناس ، فظننت أن الرجل من أولئك الذين لا يعترفون بكرامات الأولياء ، ولو كان ذلك فليس من حقي أن أطلبه بتصديق كرامة معينة ، ولكنني اطلعت فيما بعد على كتابه " الأعلام " وعجبت من الرجل حقاً ، عجبت لهذا الرجل الذي ينقلب في قضايا التاريخ كما يشاء له الهوى ، وسوف أضع بين يديك أيها القارئ الكريم صوراً من هذا التقلب .

بعد أن تحدث عن أبي حاتم الملزوزي في أحداثه التاريخية ، وحاول أن يضخم عدد الجند الذي يحارب به هذا الإمام ، وأن يقلل من جيش خصومه ، ثم يمنحهم النصر لأن النصر للمؤمنين .

بعد هذه المحاولة التي فيها كثير من إساءة استغلال حوادث

التاريخ لإيحاءات معينة ، بعد ذلك قال :

" كان أبو حاتم من أئمة الإباضية المشهورين ، وبمناسبة قتله نقل الأستاذ الشماخي في كتاب السير خرافة من صنع الذين يعملون لتفريق الكلمة ورفع أقدار بعض الناس على حساب الطعن في أقدار غيرهم .

قال الأستاذ الشماخي ما نصه : " إن مكان المعركة يستضيء نوراً كل ليلة ، وقد أشتهر عندنا - من غير أراه - أن النور ينزل على قبره - يعنى قبر أبي حاتم - وقيل لم يزل ينزل حتى دفن إلى جنبه أعرابي فكف . ا . هـ ما نقله صاحب السير .

ومثل هذه الخرافة لا يصح من الأستاذ الشماخي أن يسود بها صحائف كتابه ، فإن أي إنسان لا يصدق أن النور الذي كان ينزل على قبر أبي حاتم انقطع لما دفن الأعرابي إلى جانبه ، ولكن الذي اختلق هذه الخرافة يريد أن يرفع من شأن أبي حاتم بالطعن في العرب ، وهو خطأ في التقدير يؤدي إلى الفتنة بين المواطنين ، وإلى تأريث الكراهية بينهم . ولو اقتصر الخرافة على مدح أبي حاتم لما عندنا شيء منها ، ولما تعرضنا لها بنقد " . انتهى كلام الأستاذ الزاوي .

وعجبت وأنا أقرأ هذا التعليق عن المغالطة المفضوحة ، وعن تأويل كلام الناس بما لم يخطر لهم على بال .

لست أدري - مهما فكرت - ما دخل العرب في القضية ؟ لم يحشرهم الأستاذ الزاوي حتى في هذه الجزئية الصغيرة ؟ إنها حادثة فردية تتعلق بشخصين ، سواء كانت صادقة أو كاذبة ، فما

الذي أدخل الجنس ، جنس العرب أو البربر في الموضوع ؟

إن الشماخي حين نقل القصة احترز ، فأعلن أن القصة مشهورة ، ولكنه لم يشاهدها بنفسه ، وهذا تحقيق لا يكون إلا من ثقة يتثبت فيما يقول ، فقد جعل العهدة على راويها ، ولما تحدث عن دفن الأعرابي ، حكاه أيضاً بقليل ، حتى لا يجزأ زاعم على تكذيبه ، ورغم كل ذلك ، فإن الأستاذ الزاوي ناظم على الشماخي ، والشماخي يذكر أن النور انقطع عندما دفن (أعرابي) ، ولكن الزاوي يجعل المسألة طعنًا في العرب ورفعاً لأقدار بعض الناس بالخط في أقدار الآخرين ، إلى ما هنالك من مزاعم لا تصدر إلا عن نفس مريضة ، وحب متمكن لإيقاد الفتنة .

لقد كان جديراً بالأستاذ الزاوي ، وهو يكتب التاريخ في هذا العصر ، أن ينزه قلمه وضميره ، كان جديراً به أن يتخذ من نزاهة الشماخي وصدق أمثله يحذيقها ويسير عليها .

إن الكرامة إذا وقعت لأبي حاتم ، فلا يعنى ذلك ، أن جنس أبي حاتم كلهم أصحاب كرامات ، وأن المعصية إذا وقعت من أعرابي ، فلا يعنى ذلك ، أن الأعراب كلهم أصحاب معصية ، إن أبا حاتم شخص واحد ، نسبت إليه كرامة ، وإن الأعرابي الذي دفن إلى جانبه شخص واحد ، قيل عنه إن النور انقطع لما دفن إلى جانب أبي حاتم ، وما يدري الأستاذ الزاوي ، أن هذا الأعرابي ، من يشمله قوله تعالى : " الأعراب أشد كفراً ونفاقاً .. الخ ، ثم لماذا يجعل الأستاذ الزاوي الأعراب عرباً ؟ ويبنى على ذلك هذا التعليق الذي يحرص بما يملك من حيلة الأسلوب وخدعة التعبير ، أن يجعل

الموضوع بين عنصري الأمة ، حتى يفتح أبوابا للخلاف ، ومن يا ترى يسعى لتأريث الكراهية بين الناس ؟ أهذا الذي يحمل اليوم قلمه لبحث بين مطاوي التاريخ عما يفرق به بين أبناء الأمة الواحدة ؟ أم ذلك الذي يحتاط فيما ينقله ويعلن أنه لم يشاهد .

وهل عن حسن نية يذكر الأستاذ الزاوي هذه القصة وأشبابها ليعلق عليها بهذه العبارات التي تدعو إلى الفتنة السافرة ! ؟ إن الشماخي توفي قبل أربعة قرون ، وكتابه لا يطلع عليه إلا قلة من الباحثين الذين يرجعون إلى مصادر التاريخ ، فلماذا يعمد الأستاذ الزاوي إلى التنقيب ، ونقل هذه القضية اليوم ؟ لماذا لم يتركها نائمة بين أحداث التاريخ الماضي ؟ إنه لو فعل ذلك لما وجد سبباً يوجد به هذه الطعنة إلى قلب الأمة ليذكرها بأنها تتكون من عنصريين .

أنني سوف أعود إلى الأستاذ الزاوي والشماخي في حديث قريب ، ولكنني الآن أريد أن أناقشه في قضية الكرامة .

قلت في أول هذا الفصل : إنني حين قرأت كتاب الزاوي ووجدته يعلق على هذه القصة التي نقلها الشماخي بأنها خرافة ، حسبت أن الزاوي لا يصدق بكرامات الأولياء ، ولو كان كذلك فليس من حقي أن أطلبه بتصديق هذه الكرامة أو غيرها . ولكن هل حقا أن الأستاذ الزاوي لا يصدق بكرامات ؟ لنأخذ بين أيدينا كتاب " أعلام ليبيا " ولنتصفح منه بعض الفصول .

قال الزاوي في كتابه " الأعلام " صفحة 47 : " ومن كراماته أنه لما حج بقى أمام النبي صلى الله عليه وسلم وقال في نفسه

: أنا لا أذهب لزيارة حمزه ولا غيره . النبي صلى الله عليه وسلم يكفيني ، قال : فأخذتني سنة ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقال لي : يا أحمد يا حبيبي ، عم الرجل عوض أبيه ، قال فقممت في الحين وذهبت لزيارة سيدنا حمزه ، وكان وقت خوف ، فلقيت هناك ثلاثة رجال ، آخرهم الخضر عليه السلام .

وفي فوائده قال : أخبرني الشيخ اللقاني أن الوزغ يتغذى بعبئه ، وأنه - أي اللقاني - كان ذات يوم يأكل بطيخا ووزغ ينظر إليه من السقف ، فأمر بقتله ، فوجدوا معه من الخضراء التي كان الشيخ يأكلها " انتهى

قال الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 147 : " قال أبو القاسم : فلما حججت وزرت ، سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت : يا رسول الله أبو الفضل الغدامسي يقرأ عليك السلام ، وصاحبك ، قال : فسمعت صوتا لا شك أنه صوت عمر بن الخطاب لجهارته ، وهو يبلغنا . وكان يتكلم على الخواطر .

ويقول الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 199 : " كان أستاذا فاضلا - أبي عبد الوهاب القبسي - ورجلا صالحا وكان يرى النبي صلى الله عليه وسلم ويتحدث معه ، ويقال إن هذه المحادثات وجدت بعد موته مكتوبة بخطه وبتواريخها . " انتهى .

قال الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 225 : (يحكى عنه - أي على ابن محمد البشت - إذا شكوا إليه أحد ضياع حاجته قال له : اذهب إلى المحل الفلاني جدها فيه ، فيذهب

فيجدها كما ذكر . أنتهي "

وقال الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب يتحدث عن محمد بن احمد الطرابلسي صفحة 264 : شيخ متعبد فضله مشهور . قال في كتاب " رياض النفوس " قال أبو عبد الله مكي بن يوسف : نزلت بطرابلس عند انصرافي من الحج فكنت أداوم الاختلاف إليه ، فإني جالس إليه ذات يوم ، إذ أتته امرأة بصبي قد احدثت ظهره ، فلا يقدر أن يمشي ، ولا يرفع رأسه ، وأجلسته بين يديه ، فقال له الشيخ : يا ابني : ارفع رأسك فما قدر فالتفت إلي وقال : يا أبا عبد الله أما ترى هذا الصبي ما استطاع أن يمشي . فقلت له نعم يا سيدي ! فأمر بيده على ظهره ، ثم كتب أسطراً لم أقف على ما فيها ، ثم قال له : ارفع رأسك ، فرفع رأسه ثم قال له : أَمْش ، فَمْشَى . واختصم مرة في طرابلس قوم من المسلمين مع قوم من النصارى على حجر ، فزعم المسلمون أنه كان بمسجد انهدم ، وأن النصارى قد أدخلوه في ركن من أركان كنيستهم عماداً له - وزعم النصارى أن الحجر لهم قديماً . فقال أبو العباس : اذهبوا بنا إلى موضع الحجر ، فساروا حتى حازوا المكان ، فوقف أبو العباس ووقف الناس معه ، فقال : أيها الحجر : إن كنت كما قال المسلمون فقع بإذن الله وقدرته ، وإن كنت كما قال النصارى فاثبت مكانك . فمال الحجر حتى وقع على الأرض ، فقال للمسلمين : ارفعوا حجركم .

وقال الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 20 : " وهو من جملة الصلحاء الذين بعثهم العارف الأكبر مولاي العربي الدرقاوي وتبرك بهم . وقد أورده في رسائله قائلاً ما نصه : "

وكننت أعرف سيدي أبا بكر الطرابلسي المكنى عند أهل فاس " سيدي أبو بكر بوفلاس " وجدته بمدينة فاس حين عرفتُها ، وكان من المجاذيب الكبار ، غائبا عن حسه دائماً ، وقد شربت بوله يوماً لشدة تصديقي بولايته . وحدثني الأستاذ الجليل أبو عبد الله سيدي محمد اللحائي عنه أنه قال لبعض الطلبة : هل تسيح معي ؟ فقال نعم : فخرجنا معا على باب الفتوح - أي من فاس - فإذا هما بباب من أبواب طرابلس التي هي بلدته . وسمعت أنه كان من أولاد البايع الذي كان هنالك ، وكان هذا البايع لما فقده يعطى عليه قنطاراً من المال لمن يخبره به ، والحاصل أنهما دخلا إلى المدينة الطرابلسية . وجالا فيها ما شاء الله ، وهذا لا يكلم هذا ، ثم خرجا ، فإذا هما بباب الفتوح بفاس . " انتهى كلام الأستاذ الزاوي .

نقلت إليك هذه القصص من كتاب الزاوي أيها القارئ الكريم لا لأنتقدها ولا لأنتقد أصحابها ، فإن ذلك ليس موضوع بحثي ، وإنما أريد منك أن تعرف موقف الزاوي من التاريخ .

ينقل الشماخي مع الاحتراس أن نورا ينزل على قبر أبي حاتم حتى دفن إلى جنبه أعرابي فانقطع النور ، فيثور الأستاذ الزاوي ويغضب ويكذب ويجعل نقل مثل هذه الكرامة مما يبعث الشك في أمانة المؤلف .

ولكن الزاوي ينقل إلينا أن ولما استطاع أن يكلم الرسول في النوم ، وأن يذهب لزيارة حمزه فيجتمع بثلاثة رجال آخرهم الخضر ، وينقل أن الوزغ يتغذى بعينه ، وأن فلانا كان يأكل بطيخا

ووزع ينظر إليه ، فلما قتل الوزغ وجد البطيخ في أمعائه ، وأن حاجا يبلغ سلام رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيرد عليه عمر بن الخطاب تحيته . وأن رجلا كان يحادث النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما مات وجدت محاضر هذه الجلسات مكتوبة بخطه . وأن رجلا يعرف مواضع الأشياء التي تسرق أو تضيع ، فما يجيئه أحد يشكو ضياع شيء حتى يدلّه على مكانه ، وأن وليا من الأولياء يوضع بين يديه طفل أحذب لا يستطيع المشي أو رفع الرأس ، فيمسح عليه بيده ثم يأمره بالرفع فيرفع . وبالمشي فيمشي . ويختصم ناس على حجر أقيم عمادا ، فيأمره بالوقوف فيقع . وينقل عن ولى آخر يأخذ معه ابن الباقي في فاس ليسيح معه وعندما يخرج من باب الفتوح يجد نفسه بباب من أبواب طرابلس ، ثم عندما تخطر لهما العودة فيخرجان من طرابلس يجدان نفسيهما بباب الفتوح في فاس ، ويبلغ من ولاية هذا الرجل أن يشرب العارف الأكبر مولاي العربي الدرقاوي بوله لشدة تصديقه بولايته .

هذه قصص ينقلها الأستاذ الزاوي في كتابه ، وهو لا ينقدها ولا يتعرض لها بتعليق . ولا يخاف أن يشك الناس في أمانته حين ينقل مثل هذه القصص . والذي أريد أن أقوله للأستاذ الزاوي : أن الوقائع السالفة - سواء ما وقع منها لهؤلاء الذين تحدث عنهم في كتابه ، أو لأولئك الذين تحدث عنهم الشماخي في كتابه - أشياء لا جرى على سنة الطبيعة ، فهي إما أن تكون متعلقة بقدرة الله ، وإرادته وحينئذ فلا معارضة سواء ما قبله العقل أولم يقبله ، ويستوي في ذلك قصة مهدي النفوس وأبي

حاتم الملزوي ، وهذا الذي يجد باب فاس وباب طرابلس متجاورين ، وهذا الذي يحدث عمر بن الخطاب وبينهما عدد غير قليل من القرون الزمنية وغيرها كثير جد كتب مشحونة بها لكل طائفة من طوائف المسلمين .

أما إذا أراد فهمها على قانون الطبيعة والحياة المادية للخلق فإن شيئا من ذلك لا يصدق ولقد كان جميلا أن ينقل الأستاذ الزاوي عن الشماخي كما نقل عن غيره دون أن يجعل من هذا النقل وسيلة من وسائل الطعن ، أو أن يترك ما لا يثق في صحته من هذه الحوادث ، فإنها ليست حادثة من حوادث التاريخ البشري التي لها علاقة مباشرة بالأمّة ، ولكن الأستاذ الزاوي لا يريد ذلك إنه يتلمس وسائل الطعن ، وحين كان يؤلف كتاب " الفتح العربي في ليبيا " لم يكن يقدر أنه سيؤلف كتاب الأعلام وينقل فيه ما كذب غيره فيه .

على أن الذي يقرأ كتاب أعلام ليبيا للأستاذ الزاوي وهو يحشر فيه ما لا يحشره رجل أوتى عقلا وتفكيراً سليمين في هذا العصر بأسف لهذا الإسفاف ، ما الذي يدعوا الأستاذ الزاوي إلى ذكر قصة الوزغة في هذا العصر ، إنه لم ينقلها على أنها كرامة ، وإنما نقلها على أنها حقيقة علمية توصل إليها عالم من العلماء في ذلك العصر بالتجربة ولكن الأستاذ الزاوي يعلم أن هذه التجربة غير صحيحة ، فما الداعي إلى ذكرها ؟ .

وينقل الأستاذ الزاوي قصة هذا العارف الأكبر الذي يشرب بول آدمي ، ومهما كانت ولاية هذا آدمي فإن بوله يبقى قدرا

- ولو طهرته ولايته - على أنه لا شيء يجعل بول الإنسان طاهراً . وكان ما يفهم من القصة هو التشكك في سلامة عقل هذا العارف الأكبر . لماذا ينقل الأستاذ الزاوي هذه القصة ؟ وما الحاجة إليها ؟ ألشيء يزيد في تدعيم الخرافة في هذا البلد ؟ ويقوى جانب الشعوذة ، حتى يطمئن أولئك الذين يستغلون عواطف الناس الدينية ؟ إن هذه القصة بالتأكيد لا ترفع من مقام الشارب ، كما أنهما لا تزيد من مقام المشروب بوله ، إن الكرامة لا تكون معصية أو سببا إلى المعصية .

فلماذا يسود الزاوي صحائف كتابه بهذه الخرافة ؟ هل يعتقد أن أحد من الناس يمكن أن يصدق ذلك ؟ .

انتقال القيادة من ليبيا

بعد المعركة الطاحنة التي قتل فيها أبو حاتم وخيرة جنده وقواده في جندوبه، وبعد أن أصبحت القوة بأيدي عمال بني العباس الظلمة، الذين لا يتورعون عن دم أو مال أو عرض، انتقل مركز مقاومة العدوان من ليبيا إلى الجزائر، وتكونت في تاهرت دولة الرستميين.

وليس معنى هذا أنه حينما كف الإباضية عن الثورة، أن الثورة قد توقفت في ليبيا.

إن الثورة لم تتوقف يوما واحدا في جميع المملكة الإسلامية، وإن كانت أغراض الثورات وأسبابها تختلف، وما دامت الدولة مستبدة وعمالها ظالمين. فإن الناس لا يكفون عن المطالبة بالحقوق، وإقامة العدل، إما باللسان وإما بالسيف.

كان الإباضية في ليبيا وتونس مستقلين عن بني العباس؛ وحينما انتقلت قيادة الحركة الثورية إلى الجزائر أصبحت أدوارهم في تاريخ السياسة وكفاح العدوان تابعة لتلك القيادة، وهم وإن كانوا يتبعون دولة بني رستم في تاهرت إلا أنهم شبه مستقلين.

وقد عمد أكثر الإباضية في ليبيا، بعد انقراض الدولة الرستمية، إلى سكنى جبل نفوسة وإن بقيت بقايا منهم منتشرين في كامل القطر. وكان أغلب هؤلاء المنتشرين يعيشون حياة سكان البادية الرحل، أو حياة شبيهة بتلك الحياة.

وقد أستطاع عمال بني العباس بما أوتوا من مال وسلطان ومكر أن يشحنوا نفوس الناس بكرهة هؤلاء القوم، وأن يحكموا عليهم أحكاما غير صحيحة، من حيث الدين والمعتقد، وبذلك تسنى لهم أن تفترق الأمة فيما بينها لتستقر كراسيهم على هذه الدعامة، دعامة التفريق التي يحسنها الحكام الجابرة في كل زمان ومكان.

رجع الإباضية إلى أنفسهم، واستمرت حياتهم على طريقتهم المعروفة : عمل دائم لله، ومحاسبة للنفس، ومجاهدة للشيطان والهوى، وإحياء للسيرة المرضية، لا يأبهون للعالم ولا يقيمون لها أي وزن، إنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة، فكانت مساجدهم عامرة، وأعمالهم في البر متواصلة، ودعوتهم إلى التمسك بدين الله وسيرة السلف الصالحين مستمرة، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر لا يتوقف، واستقامتهم في الأعمال مضرب الأمثال، ونشرهم للعلم كما لم ينشر في أي مكان.

وكان الأئمة في تاهرت يبعثون إليهم، فيخبرونهم في الولاية فكانوا - يجتمعون ويتشاورون ثم يبعثون باسم من يقع عليه اختيارهم إلى الأمام، فترد إليهم الموافقة عليه، فلما انقرضت الدولة الرستمية صاروا يجتمعون فيختارون من بينهم من

يثقون في دينه وخلقه وعلمه، فيسندون إليه أمورهم، ويولونه شؤونهم، وقد استمروا على هذه الحال حتى مجئ الأتراك وامتداد الخلافة الإسلامية في ليبيا.

السَّمْعُ بن أبي الخطاب

بقي الإباضية في ليبيا بعد قتل أبي حاتم شبه مستقلين عن جميع الحكومات فعمال الدولة العباسية لا يجراؤن على مطالبتهم بشيء، وعبدالرحمن بن رستم لم يطلب منهم الطاعة، رغم الولاء المتبادل، واعترفهم بإمامته فلما تولي الإمامة عبدالوهاب بن عبد الرحمن واستقرت الأمور واطمأن إلى ارتياح السكان، وانتشار السلام، وخمود الحروب والثورات، فكر في تفقد أحوال الإخوان في كل من الأراضي التونسية والأراضي الليبية، وقرر أن يقوم بذلك وهو في طريقه إلى الحج.

وكان الناس يقبلون عليه ويقدمون له البيعة، فيولي عليهم ولاية بوصيهم أن يسيروا سيرة السلف الصالحين، ولما وصل إلى الأراضي الليبية ودخل جبل نفوسه اجتمع إليه العلماء الأعلام، ودرسوا معه موقف الدولة، وما ينبغي للإمام فعله، وصارحوه بأنهم لا يوافقونه على قيامه بالحج، فإن أعداء الإمامة الذين يتحينون الفرص للإنقضاض عليه، لا يقفون مكتوفي الأيدي، وقد دخل ممالكهم وحيداً فريداً بدون جند أو أعوان، واقتنع الإمام برأي هؤلاء العلماء الناصحين.

ولكنه أراد أن يطمئن، فبعث برسالة إلى علماء المشرق يستفتيهم في أمره، ويستوضحهم مشكلته في حق ربه،

ووصل الرسول إلى أئمة الإباضية في العراق ورجع بالرد.

أما الإمام المحدث الربيع بن حبيب فقد أجاز له أن ينيب عنه أحداً يقوم عنه بالحج مادام مشغولاً بأمر المسلمين، أما العلامة ابن عباد فأفتى له بسقوط الحج لعدم أمن الطريق بالنسبة إليه، وأمان الطريق شرط أساسي في وجوب الحج، وطلب للإمام العظيم أن يقيم في جبل نفوسه وأن يتخذ قرية "ميرى" مقراً له، هذه القرية الصغيرة التي أصبحت اليوم خراباً، وكانت في ذلك الحين مركزاً من مراكز العلم والدين والخلق العظيم، وبني هنالك مسجده الفسيح الذي لا يزال منصّباً إلى اليوم في روبة شامخة يطاول الزمن، ويستعرض التاريخ، ويحتفظ باسم الإمام العظيم، والذي لا يزال أبناء القبائل المجاورة من الرجبان يلوذون بعدله فيضعون في حرمه نتائج زراعاتهم فلا يتعدى عليها ولا تنالها اللصوص.

طابت للإمام الإقامة في هذا الجبل، وانصرمت سبع سنوات كأنها ليلة واحدة، وكان يعيش كما يعيش المسلمون، وكان من أهم مايشغله التدريس، فكان مسجده هذا من أعظم المدارس التي نشرت العلم وهدت الناس، لقد كانت حلق الطلاب تتعاقب عليه أكثر النهار وزلفاً من الليل، وكانت دروس الوعظ والإرشاد وشرح أسرار الإسلام للناس من أهم ما يتناوله الإمام العظيم، على أن أعظم موضوع أخذ الوقت منه وحرص أن يتفهم الناس أسرارهِ ومعانيهِ هو موضوع الصلاة، هذا الركن الذي يجعل المسلم يناجي ربه عدداً من المرات في اليوم، ويستلهم منه الرشاد والهداية والتوفيق والذي لا يزال يتقرب بفرائضه ونوافله

إلى الله، حتى يحبه.

ولكثرة ما أنشغل الإمام بتدريس موضوع الصلاة على الناس، بالغ بعض المؤرخين فحسب أن الموضوع الوحيد الذي انشغل الإمام بتدريسه سبع سنوات في جبل نفوسة - هذا الجبل التي كان حينئذ يروج بالعلماء الأعلام - هو موضوع الصلاة فقط. والحقيقة أن الإمام العظيم كان يتناول جميع فروع العلم، ولكنه حبب إليه موضوع الصلاة، فكان لا ينجي يوم إلا ويتحدث عنه.

وعندما فكر في مغادرة ليبيا والرجوع إلى مركز الخلافة، اجتمع إليه الناس وطلبوا منه أن يولي عليهم عاملاً يفصل مشاكلهم، ويجمع منهم الحقوق ويوزعها على مستحقيها، ويتولى قيادة الدفاع إذا هاجمهم عدو. فخيرهم الإمام فاختاروا السمع بن أبي الخطاب المعافري؛ وكان السمع في مقام الوزير للإمام. يلازمه دائماً. فيعرض عليه المشاكل، ويستشيريه في النوازل. ويكل إليه الفصل والتدبير في كثير من الأمور. ولا يكاد يستغنى عنه في شأن من الشؤون. فعز عليه أن يفارقه، إنه من أعز أصدقائه إليه، وهو أخلص مستشاريه وأحب أصحاب الرأي والعلم إليه، فحاول أن يرضيهم بغيره، ولكنهم أصروا على موقفهم وألحوا عليه فيه، فاضطر أن يستجيب لهم، وأن يؤثرهم به وأن يقلده ولاية ليبيا - ماعدا شريطاً رفيعاً من الساحل كان تابعاً للأغالبة - معتمداً في ذلك على دينه وأمانته، وعلى دينهم وأمانتهم، وشمر الوالي القوي عن ساعد الجد، واستعد لتحمل الأمانة في هذه الولاية الشاسعة، التي تشتمل على معظم

المملكة الليبية وبعض المملكة التونسية، لا يخرج منها إلا شريط ساحلي ضيق بقي للأغالبة بعد المعاهدة التي عقدت بينهم وبين الإمام عبدالوهاب سنة 196.

وتولي السمع تنظيم الولاية وترتيب القضاة، وأمراء الجند وجباة الزكاة، فساد الأمن، وانتشر السلام، ووجد الناس الحياة التي ينشدونها في ظل الإسلام. حرية في العمل والكسب، وكفاح لله، وعدل يشمل الغنى والفقر، والقوي والضعيف، وسيرة كسيرة عمال الخلفاء الراشدين، قوة في غير عنف، ولين في غير ضعف، وإيصال للحقوق إلى أصحابها من أكرم السبل وأقربها. فأحسست البلاد الراحة والطمأنينة، وذاقت لذة العيش الهنيء، الذي لا يكدره الاستبداد ولا يشوبه الظلم، وماذا ينتظر من وال أخذ الدروس الأولى من أبي الخطاب عبدالأعلى؟ وأخذ الدروس الأخيرة عن الإمام عبدالرحمن بن رستم؟ وصحب الإمام عبدالوهاب؟ إنه أقتبس الهدى والدين والخلق من ثلاثة أعلام، كان كل واحد مهم حجة من حجج الله في الأرض.

عندما مرض السمع مرض الوفاة، اجتمع إليه الناس، وطلبوا منه أن يوصيهم 8، فأوصاهم بتقوى الله واتباع الشرع الشريف، ونصرة الأئمة ما ساروا على الحق، واستقاموا على الطريق، وهي وصية وإن كانت مختصرة في ألفاظها، ولكن لا مزيد عليها لمستزيد، إن تقوى الله في السر والعلانية واتباع الشرع الشريف هو كل ما يطلب من مؤمن يطلب السعادة لنفسه في الدنيا والآخرة، أما قضية الأمة فقد لفت إليها هذه اللفتة الكريمة التي هي القاعدة التي تبني عليها سياسة الأمة، والتي جرى

عليها الإباضية منذ نشأتهم. فإن الأئمة أو الخلفاء الذين تسند إليهم الأمة مهلة الحكم. وتضع في أعناقهم أمانة الدولة، تجب لهم الطاعة الكاملة من هذه الأمة، ما أقاموا كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام. وصاروا بسيرة السلف الصالحين. فإن انحرفوا عن هذا الصراط السوي وحادوا عن الطريق القويم، وخانوا الله والأمة في الأمانة، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ وعلى هذا النمط كانت السيرة: سيرة الولاة وسيرة الأمانة من هذه الفرقة في أزمنة الظهور وفي أزمنة الكتمان.

أبو الحسن أيوب بن العباس

بطل آخر من الأبطال الذين يملؤون الدنيا ويشغلون الزمان، يشهد له أبو العباس الشماخي بأنه: "من أهل التقى والصلاح، والاشتهار في طرق الخير وسبل الرشاد".

ولكن هل تكفي هذه الشهادة للدلالة على منزلة الرجل في عصره، ومقامه بين قومه، وأثره في الحياة؟ إن أبا العباس الشماخي من أولئك المؤلفين الحريصين على الدقة في الوصف، والصدق في الحديث، وهو يختار كلماته اختياريًا يقصد ما ترمي إليه من معان، وتؤديه من أغراض؛ ولذلك فإن هذه الجملة القصيرة التي وصف بها هذا الفارس البطل بالاشتهار في طرق الخير وسبل الرشاد، قد تقتضي من مؤلف آخر عددًا طويلاً من الصفحات ليدل بها على هذا المعنى الكبير العميق.

إن الشهرة في طرق الخير وسبل الرشاد أمراً ميسوراً يستطيع أن يحصل عليه الإنسان بعمل يسير، أو كفاح قريب، أو مظهر خادع غرار، وحتى لو استطاع الإنسان أن يحصل على شهرة في جانب من جوانب الخير، فإن هذه الشهرة الكاذبة سرعان ما يبدو زيفها، وتنضح حقيقتها، ويزول البهرج الذي غطيت به.

إن الإنسان لا يمكن أن يشتهر في طرق الخير وسبل الرشاد إلا إذا اتخذ ذلك المبدأ يعتمد عليه ويعتقه ويعمل به لنفسه، ويكافح

من أجله، ويحاول أن يجعله مبدأً للناس جميعاً يعتقدونه حقاً ويعتقدونه مبدأً. ولا يصل الإنسان إلى هذه الميزة إلا إذا كان عمل الخير خلقاً يتحلى به، ويحمل من تحت رعايته على اتباعه ويدافع عنه في جميع الأحوال.

وإذا كان أيوب بن العباس من ذوى العقائد الثابتة، والأيمان الراسخ، والخلق المتين، والعلم الغزير، إذا كان هذا الرجل يتحلى بجميع هذه الفضائل، وبما هو أكثر من هذه الفضائل، فإن له ميزة أخرى يمتاز بها عن الناس، وينفرد بها دونهم. هذه الصفة: هي الشجاعة التي لا تعرف التردد أو الهزيمة أو الخور، إنها قوة القلب الكبير في قوة البدن السليم الذي وهبه الله الصحة والعافية والسلامة، وهو بهذه النعمة التي خصه الله بها يثق في ربه ثقة لا تحسب للخذلان حساباً ويثق في قوته ثقة لا تخشى الضعف أو الخور، ويثق في مهارته وذكائه وعبقريته الحربية ثقة لا تخشى مراوغة أو مكيدة أو حيلة، وهذه الثقة بنفسه، جعلت الأمة تثق فيه، وتعتمد عليه عندما يحزبها أمر أو يشدد عليها كرب، ولعل في القصص الآتية برهاناً على هذه الصفات الممتازة التي لا يتحلى بها إلا أفراد في تاريخ البشرية الطويل. يقول عن نفسه: "لا أعلم من فاس إلى مصر فارساً يبارزني" فهل يكون هذا القول من هذا البطل غروراً سولت له به نفسه، ووسوس به إليه الشيطان؟ هل يكون هذا الإدعاء باطلاً عندما يجبهه بالحقائق ويصطدم بالأبطال؟ إنه يتحدى نصف قارة كاملاً، يزعم أنه لا يجد فيه من يقف له يرد له الضربات، ويكيل له اللطمات، ويغدق له كؤوس الشراب من حياض المنون المترعة.

إننا ولا شك سنتردد في تصديق هذا القول حين يعرض علينا في هذا الدعوى الفضفاضة الواسعة حتى نعرضه على التاريخ، وللتاريخ حق الحكم على صحة هذا الإدعاء أو بطلانه، فهل تكفى شهادة التاريخ؟

كان عبد الوهاب بن عبدالرحمن بن رستم أميراً للمؤمنين، وخليفة للمسلمين على أغلب شمال أفريقيا من مراکش إلى سرت، ما عدا شريطاً ساحلياً ضيقاً ينقطع في بعض الجهات، وثار على الإمام جماعة من المعتزلة في الجزائر، لهم علم ولهم قوة ولهم بطولة، وتضايق الإمام من هذه الثورة التي كانت تهدد أمن الدولة والبلاد فاستنجد بجبل نفوسه، وطلب منه أن يمدّه بمائة من خيرة الفرسان الشجعان، على أن يكون معهم ثلاثمائة من الفقهاء والمفسرين وعلماء الكلام، وتشاور الناس في هذا الطلب، وبحثوا أمر الإمداد، وقرروا بالإجماع أنه واجب عليهم، ولكنهم فكروا في هذا الجيش الذي سيكلفهم ويكلف الإمام مؤونة وتعباً، واقترح مقترح أن يختاروا أربعة أشخاص يقوم كل واحد منهم مقام المئة، ووجد الاقتراح قبولا، فصادق عليه الجميع، ثم بدأت عملية الاختيار: إن الإمام يريد مائة فارس من الفرسان المغاوير، وهم يريدون أن يرسلوا إليه فارساً واحداً يقوم مقامهم ويغنى غنائهم، ومن لهذا الموقف غير هذا البطل الذي يتحدى نصف القارة كاملاً في اعتداد وشجاعة، إنه الرجل المطلوب أو هو رجل الساعة كما تجرى تعابير السياسيين.

وعرض عليه القوم الطلب والاختيار، فهل فكر وتردد؟

موقف صعب يوضع فيه الرجل أمام أقصى امتحان. إنه لم يكلف بالدخول في معمرة حرب يجالد الأبطال كواحد منهم. ولكنه وضع في مقام جيش يسير من قطر إلى قطر ليهزم جيشاً يهدد الإمامة. قبل البطل هذا العرض بإعتداد واستبشار. وبرهن أنه أحق رجل بالثقة التي وضعت فيه. واجتمع بزملائه الآخرين وقرروا المسير. قرروا أن يقطعوا هذه القفار الموحشة من جبل نفوسة إلى غربي الجزائر. ليقفوا أصعب موقف وقفه بطل في التاريخ. ووصل أيوب بن العباس حتى ينتظره الموت، فاغر الفم. مكشراً الأنياب. وعرض خدماته على الإمام وأعلن أنه مستعد أن يقوم مقام العدد الذي يطلبه الإمام من أبطال الكفاح ورجال الحرب. فكانت ذراعه القوية : وسيفه البتار أقوى ضربة وجهها الامام عبدالوهاب إلى الواصلية من المعتزلة الذين طالما حككوا بالإمامة. وعلنوا عليها الثورة أو العدوان.

إن هذه القصة تشرح معنى الشهرة التي أشار إليها أبو العباس الشماخي في أول هذا الحديث. فهل استطعت أن أكشف النقاب عن الغرض الذي أرمي إليه ؟ أم لا يزال يكتنفه الغموض ؟ إنه لو لا الشهرة بالسير في طريق الخير والرشاد ولو لا الشهرة بالصلاح والسداد. ولو لا الشهرة بالقوة والشجاعة والمضاء. لما اتفق شعب كامل على وضع ثقتهم في رجل واحد ينوب عنهم في الدفاع عن الكرامة في بلد بعيد بجهلون كثيراً من قوة أصحابه واستعداداتهم. ولو لا الشهرة لما اتفق شعب كامل على أن يقاوموا رجلاً بمائة رجل. لقد سبق للتاريخ أن قص قصص الزعماء والأبطال. وأشار إلى أن كلمة بعضهم

لا تسقط في الأرض. ولكن ذلك لم يكن لقوة الشخص نفسه. ولكن لمن يتزعمه. كما قيل : إن للأشتر ألف سيف يسألها غضبه. ويغمد لها رضاء.

إن هذه القصة التي ترونها كتب التاريخ عن بطولة أيوب بن العباس. تكفي شاهداً على ثقته في نفسه. وثقة الناس فيه. واستحقاقه لتلك الثقة.

ولكن لماذا نقتصر على شاهد واحد وللرجل مواقف كثيرة لا تقل مجداً وعظمة ؟

اتفق الواصلية من المعتزلة فيما بينهم بعد أن أوقع بهم هذا البطل العظيم القوي وقتل أبطالهم وفرسانهم. وأذاقهم مرارة الهزيمة. اتفقوا أن يكيدوا له فيقتلونه غيلة إذا استطاعوا. وهم يعرفون أنهم لا يقدر على مواجهته. ويعسر عليهم أن يجدوا منه غرة في الأحوال العادية. ولذلك فقد دبوا المكيدة الآتية.

إنهم قوم بداء يسكنون الخيام. ويرعون الأغنام. فلماذا لا يستضيفونه إلى حبيهم. ويكثر لهم أطائب الطعام والشراب. حتى إذا ثقل عليه وغلب عليه النوم وثبوا عليه وقتلوه.

وجاءوا يعرضون عليه ضيافتهم فقبل وهو يعرف أنهم أشد الناس حقداً عليه وبغضاً له.

ونصح الإمام ونصح الأصدقاء أن يرفض هذه الدعوة غير الكريمة. ولكن البطل العظيم أصر على قبول الدعوة وتشريف الحى بالزيارة. وركب مع القوم ووصل إلى الحى المحتفى المضيف. فقدم إليه العشاء الذي تعبت في إعداده بنات الحى : طعام

كثير. وشرب كثير. ولبن حامض كثير. وأكل هذا الرجل الشره الأكل. أكل حتى أتم الطعام. وأكل حتى أتم اللحم. وانتقى العظم. وشرب حتى أستنفذ ما في الركاء من اللبن. وكان القوم ينظرون إليه وهم يتغامزون مستبشرين فرحين ...

إنه يأكل كأنه في منزله. لا يتكلف ولا يتعفف. ولا يخاف ولا يحذر. ونتيجة ذلك سوف تظهر سريعاً. سوف يثقل عليه الطعام والشرب. وتأخذه سنة من النوم فيجدون الفرصة التي انتظروها بفارغ الصبر. وأعدوا لها الأسباب والوسائل. ولكن الرجل خيب ظنهم. فقد قام بعد أن نظف الأواني بما فيها من طعام. فصلى صلاة العشاء الآخرة. ثم تربع في مجلسه وبدأ يتلو القرآن الكريم. واستمع الناس إليه. فأطال. وبدأ الملل يتسرب إلى نفوسهم. والنوم يهز أعناقهم ويؤرجح رؤوسهم. وطالت التلاوة وامتدت حتى بلغت صلاة الفجر. فصلاها ثم أستاذن رجال الحي في الرجوع. إن الفرصة الأولى قد ضاعت إلى غير رجعة فما العمل ؟ وفكر أذكى القوم وأشجعهم فقال : لو طلبنا منه أن يعلمنا الفروسية حتى إذا لاح لنا منه غرة قتلناه. وتكفل أن يقوم بمهمة القتل. وأعجب الشباب بالفرصة الثانية واستعدوا لها. وحمل رئيس القوم سيفه وجاء إلى المحارب المقدام يعرض عليه ملتمس الشباب. فأجابهم إلى ما طلبوا. واصطفوا على مقربة من الحي. وبدأ الدرس.

كان الشباب يحملون عصياً في مقام السيوف. وكان الفارس الكبير يدرّبهم على مقارعة الأقران ومجالدة الفرسان. وأساليب الكر. وخدع الفر. حتى ظن رئيس القوم أن صاحبهم قد استغرق

في الدرس ونسى الحذر. وأمكنته منه الفرصة. وواتته الغرة التي كان يتحينها. فوجه الضربة القاضية فيما يظن. ولكن الفارس الذي عرف نوايا القوم مقدماً. ولم يغفل عنه لحظة عين. راغ عن الضربة. واجّه إلى يمينه فقتل. واجّه إلى يساره فقتل. وأطلق بقية الفتیان أعنة خيولهم. وأوغلوا في الفرار. فالتفت الشيخ إلى نساء الحي وهن يعولن وقال لهن : أزيدكن أم كفاكن ؟ فصحن به كفى كفى. ولكز جواده فطار به إلى تاهرت عاصمة الأمامة ومقر زملائه الذين كانوا ينتظرون في كل لحظة أن يوافيهم خبر مقتله. ولكن أيوب بن العباس الذي يتحدى الفرسان ما بين فاس ومصر عاد سالماً موفوراً ...

إن هذه القصة صورة أخرى من صور الشجاعة والبطولة والثقة بالله وبالنفس. يذهب البطل إلى عقر دار العدو.. العدو الذي لا يتورع عن الغدر والخديعة والغيلة. يذهب ليأكل طعامهم ويشرب شرابهم ويبيت بين أعدائه في حبيهم. ويسلك في كل ذلك سلوك الرجل المطمئن المؤدب حين يكون مع أعز الأصدقاء وأوفى الأحبة الذين يكرمونه بكل ما تميل إليه النفس والشهية.

إن هذا الرجل بهذا السلوك نادر من نوادر البشرية في خلقه وفي خلقه. وفي دينه وأمانته وعلمه وثقته بربه وبنفسه.

وصل إلى تاهرت بعد سفر شاق قطع فيه آلاف الأميال في صحاري قاحلة جرداء. ومهما كانت قوة الجواد الذي أعده لهذه المغامرة الفريدة في التاريخ. فإن التعب لا بد أن يلحقه. إنه

يتكون كما تتكون جميع المخلوقات الحية من لحم ودم وعصب، ولذلك فقد طلب من الإمام أن يعطيه جواداً يستطيع أن يدخل به المعركة ويقارع عليه الأبطال، واستجاب الإمام العظيم للبطل العظيم فخيره في خيول الدولة وقد كانت الدول في ذلك الحين تستمد بالخيول [وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ] ودخل البطل إلى اسطبل الدولة وبدأ يختار الجياد واحداً واحداً فهل وجد ما يرضيه؟ وهل نجحت خيول الدولة في هذا الامتحان الذي يقوم به هذا البطل الليبي العتيق؟ لقد كان يمسك بناصية الجواد ويجذبه إليه فيقع على ركبته، ولم يزل كذلك بها حتى اختبرها جميعاً، حينئذ رجع إلى هذا الجواد الذي قطع الصحراء، وظن أن التعب أنهكه وطول السفر أضناه، فلما أمسك بناصيته وجذبه إليه لم يستجب له الفرس ولكنه رفعه إلى أعلى في اعتزاز وخيلاء جديدها الجياد، عند ذلك انطلقت من شفتي الفارس الكبير هذه الكلمة التي تدل على الإعجاب والإعزاز والحب لهذا الجواد الأصيل: " البركة في البرذون " فضربت مثلاً، وكلام هؤلاء الفحول كله مثل وعبرة.

هذا بطل عرف الإمام عبدالوهاب دينه وخلقه وشهرته بالصلاح والتقوى وعرف شجاعته وقوته وثقته في ربه وثقته في نفسه وعمله الخالص لله والأمة، فلما بلغه خبر وفاة عامله على ليبيا، هذا القطر الذي كان يعرف في ذلك الحين " بحيز طرابلس " ويعنون بذلك جميع الأراضي الواقعة ما بين سرت والقيروان وجبل دمر ما عدا طرابلس المدينة.

لما بلغت الإمام وفاة عامله السمع، ذلك العامل الذي

تتلمذ عن أعظم إمامين في ذلك العصر، وهما أبو الخطاب وعبدالرحمن، ثم دربه على شؤون الإدارة الإمام عبدالوهاب، الإمام العالم القوي في دين الله، كان من أوائل الأسماء التي قفزت إلى ذهن الإمام: أيوب بن العباس، ومنذ ذكره لم ينسه، ولم يستطع اسم آخر أن يطغى عليه رغم كثرة العظماء في ذلك العصر، إنه لم يفضل عليه حتى بعض زملائه الذين سافروا معه في الوفد، والذين قد يفوقونه علماً ومعرفة، ولذلك رأي أن يحمله هذا العبء الثقيل وهو مطمئن إلى أنه أسند الحمل إلى أكفأ رجل يستطيع القيام به، ولما استشار بعض خواصه من أهل الشورى وافقوه فأرسل إليه يوليه مكان سلفه العظيم السمع المعافري.

تولي العمل وقام به كما قام به سلفه، قوة في دين الله، ومحافظة على شرع الله، وعدل بين جميع الناس في الحقوق والواجبات، وحفاظ على الأمن والسلام، حتى كانت أيامه خير وبركة ورخاء.

أبو عبيدة عبد الحميد

عندما توفى البطل العظيم أبو الحسن أيوب بن العباس أصابت الإمام حيرة وريبة فيمن يختاره ليقوم بالعمل في ليبيا. من هذا الرجل الذي يستطيع أن يقوم مقام أيوب بن العباس؟ وبملاً فراغه؟ ولا تعنى هذه الحيرة أن الأبطال كانوا قليلاً في ذلك الحين. أو أن المسلمين الخالصين الذين يوثق بدينهم وخلقهم. ثم هم يقيمون على حمل أعباء هذه الأمانة التي توضع في أعناقهم كانوا من النزرة بحيث يبحث عنهم الباحث فلا يهتدى إلى واحد منهم إلا بعد عناء. ليس هذا ما تعنيه حيرة الإمام. وإنما احتار الإمام لأن عدداً جماً تتوفر فيه شروط الكفاءة للقيام بهذه المهمة. ولم تنبأ إلى ذهنه ميزة خاصة بأحدهم حتى يكون ذلك سبباً لإناطة هذا الواجب به. ولذلك بعث إلى نفوسه يستشيرهم في الأمر. ويخبرهم في الوالي الذي يضعون بين يديه مقدراتهم. واجتمع أهل الشورى وبحثوا الموضوع من جميع أطرافه. واستعرضوا الرجال الأكفاء. واحداً واحداً. وأخيراً قرأهم على أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني: فأخبروه أنهم رشحوه لأن يتولي أمروهم. وأنهم كتبوا بهذا الترشيح إلى الإمام. وما عليه إلا أن يستعد للقيام بهذه المهمة الخطيرة. ولو كان أبو عبيدة من أولئك الرجال الذين يطلبون الدنيا. ويبحثون عن الجاه ويلتمسون

وسائل السلطة. لو كان من هؤلاء لطار فرحاً. ولا متلاً غبطة. ولكنه كان مؤمناً مخلصاً في إيمانه. تقياً صادقاً في تقواه. فلما أبلغ القوم اختيارهم له. وتكليف الإمام له. امتنع كما امتنع سلف 12 له من قبل عن تولي الأمامة. وبذل الشعب كل وسيلة ليحملوا الرجل على قبول هذا الشرف الذي توليه إياه الأمة والإمام. فلم يقبل. وكان جوابه لهم في كل محاولة قوله: أنا ضعيف: أنا ضعيف: أنا ضعيف. يكررها في إصرار وتأكيد. ولما لم يتمكنوا من إقناعه كتبوا إلى الامام برفض أبي عبيدة واعتذره لضعفه.

لو كان القوم طلاب دنيا لتبدل وجه التاريخ ولسخر الإمام من هذا الرجل المغفل الذي يعرض عليه الجاه والسلطة فيزور عنها. ولأنطأ الإمام هذا الشرف بغير هذا الرجل الجامد العزوف. لكن الإمام لم يكن من أولئك الناس الذين ينظرون إلى الأشياء بقيمة الحياة الدنيا. ولكنهم يزنونها بميزان الإسلام. فلما وجد هذا الرجل الذي يفر بدينه في حرص وتشدد. عرف أنه وقع على أصلح رجل للأمر. وأن هذا الرجل حقيق أن لا يخاف غير الله. وأنه لا يطمع في غير الله. وهاتان الصفتان هما أكرم الفصائل التي يجب أن يتجلى بها من يلي أمراً من أمور الدولة.

بعث الإمام رسالة أخرى يؤكد فيها أمره الأول بتولية أبي عبيدة. وأقسم في هذه الرسالة بكل اللغات التي يعرفها أن لا يولي أمر المسلمين إلا رجلاً يخاف ضعف نفسه. ثم حلل العذر الذي اعتذر به أبو عبيدة فقال: "إن كنت ضعيف البدن فتول

أمر المسلمين والله يقويك، وإن كنت ضعيفا في المال ففي بيت المال غناء للجميع، وإن كنت ضعيف العلم فعليك بأبي زكريا التوكيتي"، إنها رسالة من راع يعرف كل شيء عن رعية هو مسؤول عنها أمام الله، وأصبح أمر الإمام واجب الطاعة حتى التنفيذ، ولو كان متردداً، إنه يطلب مهلة للتفكير وتقليب الآراء، ولذلك طلب من إخوانه الذين يسكون برسالة الإمام، ويطلبونه بالتنفيذ أن يمهله إلى الغد ليستشير.

من يستشير أبو عبدة ياترى؟ ومن هذا الرجل العظيم الذي يلجأ إليه أبو عبدة يلتمس منه الرأي والنصيحة؟ لعله أبو زكريا التوكيتي؟ لعله أبو مهاصر؟ لعله أبو زيد؟ لعله أبو مرداس؟ لعله واحد من عشرات العلماء الأعلام الذين تغص بهم المدن والقرى في ذلك الحين! ... لا!! لا!! إنه لم يكن واحد من أولئك، إنه آخر من يخطر على بال شباب اليوم، الشباب الذي يدعوا إلى تحرير المرأة، وهو يعتقد أن معنى حرية المرأة أن تنطلق في الميادين العامة شبه عارية تزرع الفتنة، أو تدخل سكرتيرة في مكتب المدير لتعمل عمل المنبه في إثارة الأعصاب الغافية، أو مضيعة تسلى الركاب باللفتة والبسمة، أو موظفة تندس بين صفوف الموظفين تحمل أيديهم على العمل بشهوة عيونهم الزائفة التي تخملق في جوع إلى وجهها الجميل أو قدها المياس، أو متنزهة تزاخم الناس في المراكب العامة، والمجالس العامة، والميادين العامة، تزاخمهم بالصدر والعجز، فإن لم تفعل ذلك واحتفظت لنفسها بكرامتها، ولزوجها بجمالها، ولولدها بحبها وحنانها حسبت أسيرة لا تخدم المجتمع.

ولكن الواقع غير ذلك، فلقد استطاعت المرأة المسلمة في مختلف أدوار التاريخ - وهي محتفظة بكرامتها - أن تؤدي للأمة والمجتمع أجل خدمة، دون أن تغمر بعين، أو تميمس بقدر بين أنظار الجائعين، أو أن تكشف عن الصدر والنحر، وأن تطلو وجهها بالمساحيق، وتثقل ميزانيتها وميزانية زوجها بمصاريف الأزياء والتجميل.

قلت إن أبا عبدة ذهب يستشير المرأة، المرأة الكريمة العالة، التي يجهل شباب اليوم ماضيها المشرق في العصر الذهبي للإسلام، كانت هذه الشخصية العظيمة التي فزع إليها أبو عبدة والتي كان رأيها أرجح من رأي جمع غير قليل من أفاض الرجال، والتي استطاعت أن تخضع هذا الرجل العتيد لإرادة الأمة والإمام وأن تقنعه بالحجة والبرهان، كانت هي "مارن" العالة الذكية البارة، جدة المشائخ: هذه المدرسة التي لا تزال آثار مدرستها تطاول الزمن في القرية الجميلة "الجماري" هذه القرية التي تنحني بدلال على الزرقاء الفاتنة، وترنو في حب وإعجاب إلى زميلتها "مزو" إنهما قربتان شاعريتان تحضنان وادي الزرقاء الجميل، إحداهما تستقبل قبلة الشمس عند بزوغ والأخرى تتلقاها عند الغروب، عرض أبو عبدة قضيته على جدة المشائخ، عرض عليها هذه المشكلة التي حيرته، وأقضت مضجعه، فماذا كان الجواب؟

إن العالة العجوز، لم ترد أن تبسط له في الرجاء، وأن تسند طلب المشائخ والإمام، وإنما وضعت المشكلة أمام حساب الضمير، وضعتها أمام المحاسبة النفسية التي لا يستطيع الإنسان أن

بتملص منها. إنك تستطيع أن تملص من جميع الناس بالحق أو بالباطل، ولكنك لا تستطيع أن تهرب من ضميرك، ولذلك فقد قالت له: "إن تقدمت فأنت في النار، وإن تأخرت فأنت في النار" وأوضحت له مقصدتها فقالت: إن تقدمت وأنت تعرف أن في المسلمين من هو أكفأ منك، فأنت في النار، وإن تأخرت وأنت تعلم أنك أكفأ المسلمين، فأنت في النار. وصمت الرجل العظيم وفكر طويلاً واستعرض الأشخاص حتى إذا اقتنع بالنتيجة رفع إليها رأسه، وهو يقول في صدق، وصراحة، وأسف: أما في الرجال فلا! يعني أنه لا يعرف أن في الرجال من هو أكفأ منه للقيام بأمر المسلمين. وودع العجوز واستمد للقيام بالأمر، ورجع إلى المسلمين الذين ينتظرونه فأخبرهم باقتناعه وقبوله 13.

وسر القوم واستبشروا، ولكنهم كانوا يعرفون أن الفضل في حل هذه المشكلة يرجع إلى الجدة "مارن" ولذلك قال قائلهم، هلم بنا نزر "وقاية" هي خير من عمائمنا، والوقاية ما تضعه المرأة على رأسها لبقى ثيابها ما تدهنه به من زيت وغيره، وزار المشايخ الجدة وشكروها على ما قدمته لأمتها ودينها دون أن تقف خطيبة تتلوى على المنصة وهي تستعرض مفاتن جسمها أكثر مما تستعرض مواهب عقلها، وتستدر الإعجاب بجمالها أكثر مما تستدر الإعجاب بفكرها ورأيها ...

لماذا ياترى يصير الإمام ويصر المسلمون على تولية رجل يشكو الضعف، ويتباعد عن تحمل المسؤولية، وقد كانت البلاد مملوءة بالرجال الأكفاء.

إن الإمام ذكر حادثة من حوادث التاريخ التي تمر بالإنسان فتترك أثرها الذي لا ينسى ولا يمحي. إن مواقف البطولة والشجاعة والاستمساك بالحق هي المعايير التي تقاس بها الرجولة عندما تناط الأعمال.

زار الإمام عبدالوهاب طرف المملكة في الشرق هذه القطعة التي نسميها اليوم ليبيا، واتخذ مقره في قلب جبل نفوسه في قرية "ميرى" من بلد الرُّجبان اليوم، هذه القرية التي أندثرت ولم يبق منها إلا المسجد العظيم الذي بناه الناس للإمام عبدالوهاب، يلقي فيه المحاضرات العلمية، ويتولي فيه التدريس والصلاة والفصل في مشاكل الناس، ذلك أن الأئمة العدول لم يكونوا يترفعون عن العامة ولا يتعدون عنهم، ولا يتخذون مجالس خاصة بهم لا يصلها إلا المقربون بعد استئذان، إنهم كانوا يقومون بأعباء الدولة بين جموع الأمة وفي المساجد التي هي بيوت الله يؤمها جميع المسلمين، وبقي الإمام الكبير وطاب له البقاء، فانصرمت من الزمن سبع سنين، وكان بعض مرافقي الإمام خافوا على أنفسهم العنت فتزوجوا عدداً من إماء بني زمر، وولد الأمة هو ملك لسيدها لا لزوجها كما ينص الشرع الكريم، وعندما ركب الإمام للرحيل وركب رفاقه معه، أخذ كل واحد منهم ولده من الأمة التي تزوجها، وشغل الإمام بالوداع، فغفل عن هذا الموضوع، واستحي الناس، استحي العلماء والقضاة والعمال أن يتكلموا، وأن يؤلوا خواطر هؤلاء الضيوف الذين رافقوا الإمام في آخر لحظة، لحظة الوداع، ولكن أبا عبدة لا يخاف شيئاً في الحق، ولا يجامل عليه أحد، ولا يساير حتى

الإمام نفسه، ولذلك فما سمع بالحادث حتى جاء والناس في موقع الوداع، فلم يستأذن الإمام ولم يهمس في أذن العامل أو القاضي بكلمة لطيفة أو توسل ذليل، ولكنه صرخ بما يملك من قوة الصوت: "خذوا عبيدكم يابني زمو" إنه حكم الله. ولن يسكت عن مخالفة حكم الله ولو غصب البشر جميعاً.

وكان هذا الموقف الصلب الصريح القوي، الذي لا يحايى ولا يلين، هو الميزان الذي رجع به أبو عبيدة على غيره من الأقران في نظر الإمام. لقد أقر الإمام أمر أبي عبيدة وأعجب به، ولما جاء مجال الاختيار بين من تسند إليه مهام أمور المسلمين ذكر الإمام صلابته الرجل في الحق، وقوة إيمانه وعلمه وحصانة خلقه، فأصر على توليته، وتولي أبو عبيدة.

لقد كان أبو عبيدة من أولئك المؤمنين القلائل الذين يفرقون بين المواقف ويعرفون متى تكون الشدة ومتى يكون اللين، إنه يترسم خطأ الفاروق رضى الله عنه، لاتأخذه في الله لومة لأثم، ولكنه إلى كل ذلك لا يرى نفسه إلا رجلاً ضعيفاً قد ألقيت عليه تكاليف ينوء بها القوي الأمين. وهو إذا خرج منها سالماً فقد جأ.

ولذلك فقد كان شديد الاحتياط، ولكنه عندما يستبين له الطريق لا يتردد ولا يقف ولا يحيد، وعندما تولي شؤون الجبل، كان هناك "خلف 14" رجل من غرته الحياة، واستعبدته الشهوة، وأذلت نفسه المطامع، فاستهان بحرمة المال والدم، وطلب لنفسه الخلافة ليقم ملكاً كالذي أقامه طلاب الدنيا في كثير من نواحي العالم الإسلامي، وكان "خلف" يستعلى

ويتقوى في النصف الشرقي من الجبل الأشم، فلم يهتم له أبو عبيدة ولم يبال به، لأنه لم يكن من طلاب التوسع أو الراغبين في تمديد الحكم على أوسع رقعة، وإنما شمر للقيام بما أنيط به، والعمل على توفير أسباب الراحة والاطمئنان، فأعطى الحق، ونشر العدل، وبسط الأمن، كما فعل سلفه أبوب بن العباس، وسكت "خلف" في بادئ الأمر كأنه يزن هذا الرجل الجديد، فلما رآه لا يلتفت إليه ولا يتحكك به ظن فيه الضعف، فبدأ يناوشه ويغير على بعض القرى المتطرفة، ويتعدى الحدود بينهم، فطلب إليه العامل العالم الشجاع أن يترك هذا الاستفزاز، وأن يكف عن هذه الأعمال التي لا يقوم بها مسلم يرعى الله في دينه وفي عمله، ولكن "خلف" اعتز بالإثم، وواصل العدوان.

بعث خلف بعثة عسكرية من الفرسان فأغارت على حدود حوزة أبي عبيدة، وقتلت ونهبت في قرية (أدرف) التي لا تبعد عن (جادو) بما يزيد عن 6 كيلو مترات، ووصل الخبر إلى أبي عبيدة، وتحقق من وقوع الغارة، وعلم أن ما لا يقل عن عشرة من المسلمين المسلمين أريقوا دماؤهم ظلماً وعدواناً، وأنه قد استحلّت أموال، وانتهكت أعراض، فقال لأصحابه لا يحل لنا السكوت بعد هذا العدوان، وخرج لتأديب هذه البعثة، فلقيت منه الصفحة المؤلمة التي يوجهها الأب أو المربي إلى خد الإبن العاق، أو التلميذ الشرير.

ولما تولت هذه البعثة منهزمة فارة، أصدر أمره إلى جنده أن لا يتبعوا مديراً، ولا يجهزوا على جريح، وأن لا يستحلوا مالا، أو يغنموا شيئاً، إنه ذلك الموقف الذي عرفته من الخلفاء الراشدين.

وعرفته في سيرة الحارث، وأبي الخطاب، وأبي حاتم، إنه نفس الموقف لا يتغير إلا في الزمان والمكان : سيرة عطرة، ووقوف عند حدود الإسلام، وتخلق بخلق الإنسانية الرفيع.

ورجع بعد أن ضرب هذا المثل الرائع، وبرهن أنه قوي حين تستدعى الظروف القوة، وعنيف إذا تطلب الموقف العنف، وشديد إذا كانت مصلحة الأمة تتوقف على الشدة، ولكن هذه القوة وهذا العنف وهذه الشدة لا تبلغ حد الطغيان، ولا تتجاوز الحدود التي رسمها الإسلام لرد العدوان، ولما رجع العامل القوي إلى مركزه، بعث رسالة إلى خلف يقول فيها وهو يرجو أن يحقن بذلك دماء المسلمين : " وإذا نزعنا يا خلف يدك عن الطاعة فكن في حيزك وأكون في حيزي وما بال الحرب ".

ووصلت الرسالة إلى " خلف "، فماذا فهم ؟ إن الشيطان إذا نفخ بالغرور في قلب إنسان لا يترك فيه مجالاً للاستبصار والرشاد.. إن " خلفاً " لم يفهم إلا أن أبا عبيدة قد كان له صفقة مؤلمة يجب أن يردها له بأعنف منها، وأن أبا عبيدة هذا ما بعث بهذه الرسالة اللينة الوادعة القائمة، وما رضى بإقامة الحدود بينهما إلا لأنه شعر بالخوف، وأحس في نفسه ورجاله الضعف، وإذا كان كذلك فلماذا لا يهجم عليه هجمة يستولي بها على الخوزة التي يتولى أمرها هذا الرجل الخائف الذي يقنع بإقامة الحدود.

إن تفكير " خلف " لا يسمو به إلى تفكير " أبي عبيدة " ولذلك فهو لا يفسر الإلحاح في طلب السلام إلا بالضعف والخوف، لأنه لا

يقيم لأموال المسلمين ودمائهم وزناً، فهو من أولئك الرجال الذين يعيشون تحت ضغط الشعور بالحقارة، فهو يبذل كل مجهود ليكون لنفسه سلطة، وليظهر بين الناس بمظهر العظمة.

وأعد خلف عدته، وكون جيشاً لجبا، وهجم علياًبي عبيدة في حين غفلة، ولما بلغ الخبر أبا عبيدة كان الجيش المعتدي قريباً من مركز أبي عبيدة، فلاقاه بمن حضر من الرجال الأبطال، ولما تراءى الجمعان كان جيش أبي عبيدة لا يتجاوز ألفاً، وكان جيش خلف لا يقل عن أربعين ألفاً، وبدأت حرب الأعصاب، ولعب الغرور بقلب الفتى، فزين له الشيطان سوء علمه، فأطلق جمعا من جيشه اللجب في القرى المجاورة الوادعة، وفي الناس الأمنين المسالمين، يعتدى وينهب ويسلب ويقتل، ثم بعث إلى أبي عبيدة يطلب منه الانسلاخ من بيعه الإمام الرسمي، وبيعة خلف.

انقلاب في التفكير، وقلب للأوضاع، ونظرة حولاء لا تستبين الحق ولا تهتدي إلى سبيل الرشاد : وحاول العامل الحكيم أن يقنع الوفد الذي يطالب بالبيعة لهذا الباغي الذي لا يفرق بين الحلال والحرام من شرع الله، ولا يلتزم الحدود التي حدها الإسلام، فلما ألزمهم الحجة، رجعوا إلى قائدهم يحملون إليه خبر الفشل وتصميم الرجل على الدفاع.

سلك أبو عبيدة كل طريق لحقن الدماء وإراحة المسلمين من مصائب الحرب ودمارها، ولكنه لم يجد إلى ذلك سبيلاً، وفسر عدوه هذا الموقف النبيل، وهذا التحريج، بالخوف والخشية، بل لقد سولت لخلف نفسه أن يبعث لأبي عبيدة من يقول له : " دع

عنك القتال. فإنك لا طاقة لك اليوم بمقابلة خلف وعساكره. ولا حاجة لك في لقائه "15. وغضب الرجل الشجاع! هل بلغ الموقف بالطامعين إلى هذا الحد؟ هل ظن المغرور أن أبا عبيدة لم يتخذ هذا الموقف إلا خوفاً منه. وطلباً للسلامة، وخامياً للسيف والقواطع. وهنا برزت تلك القوة التي يغطيها الرجل العظيم باللين: تلك القوة التي يودعها الله في قلب من يشاء من المؤمنين الأوفياء..

إنه الغضب لله، الغضب الذي لا يبرد إلا بإحقاق الحق. فأقسم بكل لغة يحسنها لهذا المغرور قائلاً: "لأقاتلن خلفاً. ولو ألقاه منفرداً بسيفي هذا" وضرب بسيفه على فخذه، ثم طلب ماء فاغتسل وتوضأ وصلى ركعتين لله، وتوجه إليه بقلب المؤمن الذي لا يلجأ إلا إلى الله فيما دق وعظم من أمره، وقال في دعائه: "اللهم يا من لم أعرض عنه منذ استقبلت أمره، لا تفرق هذه العصاة على يدي. إنك على كل شيء قدير"16 وبعد ذلك تهيأ لرد العدوان وبدأت الحرب، ولكنها لم تستمر طويلاً، فلقد انهزم الجيش اللجب القوي، الذي يتكون من أربعين ألفاً، وانتصر الجيش الصغير الذي لم يبلغ ألفاً من الأبطال.

وعندما ولى المنهزمين الأدبار، صاح أبو عبيدة بصوته القوي الأمر الذي يعرفه المؤمنون إذا حاربهم البغاة من الموحدين، صاح في أصحابه: لا تتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تتعرضوا لمسالمة، ولا تستحلوا مالا، فاستمع الجند لكلمة القائد المظفر، ووقفوا عند حدود النصر، فلم يبعثوا، ولم يطاردوا هذه الفلول المعتدية ليثخنوا فيها الجراح، ويكثروا فيها القتل، ولم يذهبوا

إلى أرضهم ليحتلوها ويطردوا منها خلقاً فتذوب أحلامه، ولم يقطعوا الرؤوس ليرسلوا بها إلى تاهرت، عاصمة الإمامة، فيكون هذا الرأس وسيلة أخرى يرتفع بها شأن أبي عبيدة عند الإمام، إنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك، لأن الإسلام لا يبيح شيئاً من ذلك، وهم إن لم يقفوا عند حدود الإسلام في هذا الموضع فاحرى بهم أن لا يقفوا عند حدود في غير هذه المواضع، وانكمش خلف وتفرق عنه الأتباع، وتبخر الحلم الذي كان يملأ رأسه، ولكن أبا عبيدة لم يستغل هذه الظروف ليثب على تلك الحوزة فيدخلها تحت الطاعة، لأن الحكم عند أبي عبيدة وأضرابه لم يكن القصد منه جمع الضرائب واستغلال السلطة، وتكديس الثروة لترفيه صاحب السلطان على حساب الشعب، بسبب ما خول له من وظيفة، وأسند له من عمل ومنح له من ثقة، ولكن الحكم في نظر أبي عبيدة مسؤولية تلقى على العاتق، يتجردها فيها المسلم المؤمن من أعماله الخاصة، ليتولى شؤون الأمة العامة، فيتولى قوبهم بالتربية والتهديب، ويتولى ضعيفهم بالعناية والرأفة والرحمة، ويوصل الحقوق إلى أصحابها من أقرب السبل في أقرب الأوقات، ويعدل في الأحكام، ويوفر الأمن والطمأنينة والسلام، وليس له مقابل ذلك غير ما يقيم أوده من طعام بسيط، ويستتر ظهره من لباس بسيط، لا ترف فيه ولا إسراف، وليس له بعد ذلك حق التصرف فيما يجمعه من مال ليضمن به مستقبله ومستقبل أبنائه، كما يفعل الناس في هذا العصر، لأن كل الخيرات التي تستخرج في زمن ما هي إلا حق لأبناء ذلك الزمن، لا تدخر لغيرهم، ولا تمنح لسواهم، أما المستقبل فبيد

الله، ولا يفكر فيه الإنسان، لأن تفكير الإنسان لا يمتد إلى ما بعد الحاضر، أو المستقبل القريب، وعلى هذا التفكير كان يعيش أولئك المسلمون، الذين حملوا رسالة الله، فقد مات محمد صلى الله عليه وسلم ولم يترك لبناته وأقاربه ما يمكن أن يورث، وعاش أبو بكر رضى الله عنه على القوت الضروري، واللباس الضروري، وخدم عمر الأمة الإسلامية خدمة بلغت النهاية في الإخلاص والتضحية، وفتح لها وبها مشارق الأرض ومغاربها، وكانت زوجته الحبيبة طوال خلافته تتمنى قطعة من الحلوى ! الحلوى الرخيصة التى توجد في بيوت المتوسطين والفقراء، فلم تظفر زوجة أمير المؤمنين الغالية بهذه الأمانة الرخيصة، وعندما اقتطعت ثمن هذه الحلوى من القوت الضروري الذي كان يتناوله عمر وآل بيته، رأي عمر أن ذلك زائد عن استحقاقه اليومي، فرده إلى بيت المال ! إنه لم يأخذ من الأمة حتى حق الأجير الذي يعمل في الحقل أو المصنع، ولم يطالب بتحديات ساعات العمل ليكون الوقت الباقي لنفسه وأهله وعياله، وعلى هذا النمط كان يسير أولئك العمالقة الذين يسهرون على شؤون الأمة، ليلهم ونهارهم، ويؤرقهم أن يبيت فرد من الأمة عاريا أو جوعان، و يحز في نفوسهم أن يتعطل حق من الحقوق، فلا يصل إلى صاحبه في أسرع وقت.

إنهم وقد تقلدوا هذه المسؤولية العظيمة، وتحملوا تلك الأمانة الغالية، ووضعت فيهم تلك الثقة العظيمة، حسبوا أنهم أقل من أجراء فوضعوا أنفسهم وأموالهم ومالهم من قوة البدن، وقوة العلم، وقوة الفكر، وضعوا كل ذلك لخدمة الأمة.

وهم يشفقون مع ذلك أن تكون أعمالهم تلك غير مقبولة عند الله، إن تولي الإمارة والقيام بمهمة الحكم في الأمة الإسلامية، لا يعني سوى تضحية الفرد، تضحية كاملة، ينسى فيها نفسه وأهله وقرباته من أجل هذه الأمة التى أولته الثقة، وحكمته في مصيرها وشؤونها.

حدث أبو العباس الشماخي عن البطل الذي يندر أن تجد له مثيلا فقال: " وكان أبو عبيدة شديد الشكيمة، قوى العريكة، لا تأخذه في الله لومة لائم".

إنها شهادة رائعة من مؤرخ أمين مطلع على أسرار التاريخ، عارف بسير الرجال، فهل لأبي عبيدة شواهد من هذا التاريخ تسند هذه الشهادة، وتثبت هذا الحكم؟

إن الباحث الذي يريد أن يدرس حياة هذا العامل الصادق المخلص يجد في سيرته عشرات الشواهد والشهادات، ويكفي عن كل ذلك فيما يظن، شهادة أربعة أعلام أجمعت أمتهم حينئذ أن كل واحد منهم يقوم مقام مائة، إنهم الوفد الذي سافر من جبل نفوسة إلى تاهرت، لينصروا الإمام في الميدانين العسكري والعلمي، ولما أعجب بهم الإمام سألهم: هل تركوا أحد في الجبل يبلغ ما بلغوا إليه من العلم والخلق والدين، قالوا: تركنا من هو خير منا 18: أبا عبيدة عبد الحميد الجناوني، فكانت هذه الإجابة منهم أو كد شهادة عرفها التاريخ في الاعتراف بالحق والفضل.

وشاءت إرادة الله أن يزور الإمام عبدالوهاب جبل نفوسة - هذا

الجبل الشامخ. الضارب في السماء الذي نسميه الآن : الجبل الغربي - في حاشية عظيمة من أهل العلم والفضل والادب. وأن يختار قرية " مبرى " التي تعتبر قلب الجبل في ذلك الوقت مركزاً لإقامته، وأطلق سراح الخيل بعد عناء السفر الشاق. هذه الخيل التي حملت الركب العظيم من تاهرت الى جبل نفوسة. فتساهل الرعاية في حفظها إكراماً لها، واحتراماً لمن جاء عليها. فدخل بعضها إلى الغابة، ونالت من هذه الغابة التي يحرص الناس عليها. لأنها مدار زراعاتهم، ومنبت أرزاقهم. وكان أبو عبيدة في ذلك الحين رجلاً عادياً من سائر الناس. لا يمتاز عنهم بشيء غير ما يقدمه لربه، فلما سمع بوصول الإمام إلى قرية " مبرى " وبتهاون رعاته في رعاية الخيل وحفظ المزارع منها، خف إلى ملاقة الإمام. لا ليسلم عليه، ويرحب بمقدمه، ولا ليمتلقه ويتزلف إليه، لم يخف إليه لذلك، ولم يذهب إلى الإمام ليرفع إليه الشكاة، ولم يراع سلسلة المراتب، فيتقدم إلى العامل أولاً. ليكون هذا العامل هو واسطة الحديث، ولكن وقف أمام الإمام وقبل أن يرفع إلى اعتابه العالية، ومقامه السامي، أرق التحايا. وأخلص النوايا، كما يفعل المتملقون من طلاب الدين، الذين يتزلفون للحكام، قبل أن يفعل شيئاً من ذلك، صرخ بصوته القوى، الذي يعتز بالإسلام وبالحق. قال : " إنه الرعاية عن المضرة، إن لم تعرف فقد اعلمناك، والا فصل بيننا هذا "19 وهز السيف في وجه الإمام الضيف.

كان الإمام ينظر إلى هذا الرجل الخشن القوى العنيف في أعجاب، ثم سأل عنه من يكون ؟ ف قيل : أبو عبيدة عبد الحميد.

وذكر الإمام شهادة الوفد في تاهرت، فقال : صدق الشيوخ، هو مثلهم أو خير منهم.

ثم ابتسم الإمام في بشر وتواضع وأصدر أوامره المشددة على الرعاية لتحرص على حفظ أموال المسلمين.

فهل تكفى هذا الحادثة لتكشف عن الخلق العظيم الذي يتحلى به هذا المسلم المؤمن، إنك تستطيع أن تضعه في صف مع ذلك المؤمن الذي أجاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين هدد بإمالة رأسه إلى الدين فقال له : إذن نقومه بالسيف فحمد عمر الله أن جعل في المسلمين من يملك من القوة والشجاعة ما يردع به حكام الدولة، ويلزمهم السير في الطريق اللاب الذي اختاره الله ورسوله لسلوك البشرية الواعية.

إن أول عمل قام به أبو عبيدة بعد أن تولي أمر المسلمين في الجبل أن أدب رجلاً دعا بدعوى الجاهلية فقال : يا آل فلان، يستنجد بقبيلته. وإنك إذا أردت أن تعرف من أعماله مثل هذه الحادثة، فستحتاج إلى صفحات كثيرة.

إن هذا الكتاب ليس كتاب تاريخ خالص يحصى الخطوات ويسلسل الحوادث، ويربط الأحداث بعضها ببعض. إنه صور مشرقة من أولئك الذين ملأوا الدنيا حقاً وعدلاً ومروعة، وشهامة واستقامة، إنهم أولئك الذين كانوا على الإسلام الحق في حربهم وسلامهم، في عقيدتهم وعبادتهم، لم تمتد أيديهم إلى زخرف الدنيا بالباطل، ولم تلوث سيوفهم بالدماء المظلومة، ولم تمتزج عقيدتهم بالبدعة المنحرفة، ولم تمتزج عبادتهم بالخرافة الضالة.

ولعله من المناسب أن أختتم هذا الفصل بما جاء في كتاب السير القيم: "وما إلى ما طبع عليه من الورع. واطراح الحرص على الدنيا وترك الطمع. وكان غاية في إنفاذ الأمور وإمضاها. وفائما بالمدافعة لأحوال البغاة ودفاعها. ووافيا بما أمر من إصلاح النفس والدين والدنيا وخصيها. ولما ولي أحسن السيرة."

العباس بن أيوب

بطل من أبطال الكفاح. ومؤمن من أخلص المؤمنين. رجل من أولئك الرجال الذين خلقوا أقوياء لتحمل الأعباء الثقالة. أولئك الرجال الذين يضعون أنفسهم لخدمة الأمة، وصيانة الدولة. وإقامة الحق.. إقامة الحق دون نظر إلى من يقام عليه الحق.. ومع هذه القوة أناة يزينها الحلم. وتفكير تسدده الاستشارة. وتردد في بعض المواقف يفرضه استبانة الحق. واستيضاح الدليل ...

كتب مشائخ نفوسة إلى الإمام في تاهرت يعزونه في أبي عبيدة. ويطلبون منه إسناد أمرهم إلى وال آخر. يكون قويا في دين الله. حريصاً على المؤمنين. ففوض إليهم أمر الاختيار. وأخبرهم أنه سوف يولي عليهم من يشيرون به، فتشاوروا وأجمع أمرهم على العباس بن أيوب. وكتبوا إلى الإمام برأيهم دون أن يخبروه.

أصدر الإمام أمر الولاية إلى العباس. وبعث إليه برسالة التولية، فلم يفرح بالمنصب. ولم يتهرب من المسؤولية. ولكنه جمع الناس وأبلغهم رسالة الإمام. واستشارهم في أمورهم. ودرس معهم ماجد من الحوادث والمشاكل. ثم رتب أموره. وهياً نفسه للقيام بالمهمة العظمى الملقاة على عاتقه.

كان "خلف" قد انكمش بعد الضربة القوية التي وجهها إليه أبو عبيدة عندما غرته نفسه، ومنته الأمانى. فهاجمه في مركز حكمه، ولم يتحرك بقية مدة ذلك العامل القوي. فلما توفى أبو عبيدة وبقيت البلاد بدون عامل، وانصرمت أيام طوال تجرى فيها المحاطبة بين رجال الشورى والإمام في تاهرت، حرك الشيطان للعمل، ووسوس لخلف فأوحى إليه أن الفرصة سانحة. وأن هذا وقت العمل لتحقيق الحلم اللذيذ: الحلم الذي كان يداعب خلفاً ليرتفع إلى مرتبة السلطان، ويتربع على كرسي الحكم. وحرك الرجل من جديد، وبدأ في تجهيز الجيوش وإعداد العدة فما يكون موقف العباس بن أيوب، أو توفيق بن أيوب كما يحلو لأبي مرداس أن يسميه.

بعث العباس بن أيوب العامل الجديد إلى خلف أن يكف عن العدوان، وأن يلتزم حوزته، وأن لا يتعدى على أموال الناس وارواحهم. ولكن خلفاً أخطأ مرة أخرى في فهم هذه الرسالة. وظن هذه الملاينة مرة أخرى ضعفاً وخشية لقوته. ورهبة من جيشه، فتمادى في غيه وأصر على موقفه، واستمر في عداوته، وسار بجيشه الكثيف، نحو مركز العامل الحريص على سلامة البلاد والعباد.

ولما علم العامل الفتى الشجاع هذا الموقف من خلف، ورأى منه هذا الأصرار والعناد، وسمع بمسيره نحوه، استعد له وكون حملة لتأديب هذا الرجل العاق، الذي ينحرف عن الإسلام، ويستحل ما حرم الله من دماء المسلمين وأموالهم، والتقى الجيشان داخل حوزة العباس وتراءى الجمعان ...

كان جيش خلف كالموج الزاخر، يضطرب بالفرسان، كثير العدد، حسن التجهيز، وكان جيش العباس عبارة عن حملة تأديبية، عبارة عن سرية صغيرة قصد منها رد العدوان، ورأي بعض ضعاف النفوس من جيش العباس، هذه الكثرة الهائلة في جيش العدو، وهذا الاستعداد المتين فخاف العاقبة، فذهب إلى أبي مرداس وهو من رجال الشورى الذين يؤثرون على قائد الجيش، ذهب إليه يكشف له عن رأيه، ويبين له أن العدو يفوقهم عدداً وعدة، ولكن أبا مرداس أجابه إجابة المؤمن الواثق بربه الراجى للنصر، العارف بقيمة الأبطال، الذين يحاربون إلى جنبه: الأبطال الذين يحاربون عن الحق، ويرغبون الشهادة، ويثبتون على المبدأ، إن الفرق كبير جداً بين رجل يحارب من أجل جاه أو مال، ورجل يحارب من أجل حق وعقيدة: إذ أن الأول إذا تعسر عليه الحصول على الجاه أو المال، تركها محافظة على الروح، محافظة على سلامة نفسه، أملاً أن يجد فرصة أحسن، ووقتاً أكثر ملائمة، أما الثانى: فإن أول ما يقدمه هو روحه، أو لذلك فليس له إلا أحد اثنين: أما النصر، وإما الشهادة، وليس له شئ يحافظ عليه، ويبقى على سلامته.

قال أبو مرداس: لا أخاف على جيش فيه أبو الحسن الأبدلاني، وسكت الرجل، ولكن الجواب لم يقنعه، إنه يريد جواباً عملياً، إنه يريد تأخير المعركة حتى يستعد لها كل الاستعداد ولذلك ذهب إلى أبي الحسن الأبدلاني في الطرف الآخر من الجيش، وأخبره نفس الخبر، وأطلعه على الحقيقة الخفية: أراه كثرة العدو واستعداده، وأراه قله جيشهم بالنسبة إلى عدوهم، ولكن أبا الحسن الأبدلاني أجابه إجابة الواثق بربه، العارف بصحبه، فقال

له : لا أخاف على جيش فيه أبو مرداس. وعجب الرجل من حسن الاتفاق وصدق الفراسة، وعظم الثقة في الله، واقتنع أن النصر لا يأتي من كثرة العدد وقوة الساعد فقط، ولكنه ينبع من القلب. ينبع من الإيمان ووقعت الحرب، وتصادم الجيشان، وطال بينهما النضال ...

لم يهزم جيش الباطل بالسرعة التي يظنها المؤمنون الصادقون، فذهب أبو مرداس إلى العباس، عامل الإمام، وقائد الجيش العام، وقال له : "تب إلى ربك فما تأخر عنا النصر إلا لأن شيئاً ما وقع منك، وما كان للباطل أن يقف أمام الحق هذا الوقت الطويل.. " ولم يغضب القائد على هذا الرجل الذي يتهمة بالمعصية، ويحمله مسؤولية تأخر النصر، ولكنه قال في حرارة وصدق وأخلاص. اللهم إني أتوب إليك من كل ذنب ارتكبته، ثم اندفع إلى الميدان، وصاح في القوم : اعملوا كما تروننى أعمل. ولم تمض على هذه التصفية إلا لحظات فلائل، حتى أنهزم الباطل بكثرتة، وانتصر الحق بقلته، ووقف أبو مرداس وقلول جيش العدو تولى منهزمة مدبرة، وصاح في الجيش : لا تتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تستحلوا ما لا، ولكن جندياً في طرف الجند تحدى البطل العظيم، أحد أولئك الأفراد الذين لا تهمهم الشخصيات، ولا تعظم في أعينهم الأوامر، إلا إذا كانت متسمة بالحكمة والحق. وأعلن هذا الجندي العادي لقائد الجيش، ولأبي مرداس، أن قلول العدو لا تزال داخل الحوزة وأنهم سوف يطاردونهم حتى يخرجوا من الحدود، وعرف أبو مرداس الصواب في رأي الجندي البسيط، فسكت، ووافق القائد على هذا الرأي

فطوردت تلك الفلول حتى تجاوزت وادى الآخرة 22، وهو آخر الحوزة في ذلك الحين، وقضى منذ ذلك الحين على هذه الفكرة التي كانت تراود خلفاً، فلم يحلم بها من بعد، ولم ينهض لقتال.. انتهى خلف بعد هذه الصفعة المؤلة، فلم يعد يحلم بالإمامة، ولم يطالب بالبيعة، ولم يعد يباشر عمل السلطان الغشوم : يقتل الأرواح ويسرق الأموال، ولكن أولئك القوم الذين كانوا يناصرونه ويعقدون عليه آمالاً طوالاً، وتعودوا العدوان بالغارة، واستمروا طعم النهب والسلب، واستحلوا الأموال بالباطل، أولئك القوم لم ينفكوا عن موقفهم : فكانوا يغيرون على أطراف الحوزة يقتلون ويسلبون ويغزون، ولما أصبحوا لا يجتمعون تحت إمرة قائد عظم خطرهم وكثرت غاراتهم، وتواصلت تعدياتهم، ولهذه الأسباب قرر العامل الحازم أن يقضي على هذا الفساد، وأن يفرض الأمن على البلاد التي لا تخضع لحكم ولا تتبع نظاماً، وكون جيشه القوي، وسار فكان الناس يتسابقون إليه مرحبين به منضمين إليه، وقد تعترضه شرادم متفرقة فتراق دماء، وتذهب أنفس، وكان أبو مرداس من أخلص المستشارين وأحرص المؤمنين على مصلحة الأمة، وأكره الناس لإراقة الدماء، فلما رأى تسابق الناس وترحيبهم بعامل الإمام، أمل أن يتوب أولئك العصاة المارقون دون قتال أو استعمال شدة، فجاء إلى العامل الذي يزمع التقدم بنصحه بالرجوع، ويطلب إليه أن يعطي القوم فرصة لعلمهم يفكرون فينضمون إليه، أو يقلعون عن الشغب، ولكن العباس وقد استعد وصمم على إقرار الأمن، رأي أنه لا داعي للرجوع بعد أن أمن مجموعة من القرى والمدن، وأقبل الناس عليه

فرحين مستبشرين، وهو يأمل أن يتم هذه المهمة في أسرع وقت. فقال أبو مرداس أرجع وإلا صحت في الناس أن يرجعوا.. ولما رأى العامل هذا الإصرار من أبي مرداس استجاب له، ووقف خطيباً فقال: "أيها الناس نفذ الزاد، وضعف الكراع، فارجعوا حتى إذا سمنت الدواب وجددنا الزاد، رجعنا".

لم تكف هذه الحملة لتأديب أتباع خلف، فما رجع حتى عادوا إلى ماتعوده من الاعتداء على الأمنين، وسلب أموالهم ونهب أرزاقهم. وجرّد العامل الخازم حملة أخرى لتأديبهم ففروا من أمامه، وأراد هذه المرة أن يستأصل الداء، وأن ينتهى من هذه المشكلة التي طالت، ولكن أبا مرداس كان لا يزال عند رأيه الأول. كان لا يريد استعمال القوة، وكان يرجو أن يثوب أولئك العصاة إلى رشدهم، ويتوبوا إلى ربهم، فنصح للعباس بالرجوع، ولكن العباس هذه المرة كان مصمماً على المضي، فلم يمتثل لنصيحة الشيخ ولم يستجب لدعوته، فرجع أبو مرداس إلى نفسه وقال: "ما أعظم جنون مهاصر - يعني نفسه - حين يترك ربه ويلجأ إلى رجل مثله، يطلب إليه امرأً ثم أجه إل ربه داعياً أن ينزل عليهم غيثاً عميماً، فاستجاب الله دعاء الشيخ ونزل الغيث مدراراً، سالت به الأودية، وارتوت به الهضاب، فجاء الجند إلى القائد يستأذنونهم في الرجوع: لأن الموسم موسم زراعة وهم جند يقاتلون دون أن تكون لهم مرتبات، وليس لهم مطمع في غنيمة لأنهم يقاتلون الموحدين البغاة، واضطر القائد إلى تلبية رغباتهم، فقال له الشيخ ردهم الآن إن استطعت! وهكذا انتهت الحركة الثانية وفق رغبة أبي مرداس، ولكن آمال أبي

مرداس لم تتحقق، فلم يثب أولئك القوم إلى رشدهم، ولم يتوبوا إلى ربهم، ولم يحاسبوا أنفسهم، بل ما كف عنهم حر القتال، حتى عادوا لما نهوا عنه.

لقد كان الشيخ يعتقد أن هذه المناورات التي يقوم بها الجيش القوي المظفر، كافية لإرهاب العدو، وإيناس الصديق، فينكمش المعتدون، وأما المسالمون فإنهم سوف ينضمون إلى الإمامة، وبذلك يكون قد استطاع أن ينشر الأمن في جميع الربوع، دون أن يريق الدماء.

ويظهر أن رأي القائد كان أنسب لهؤلاء الذين طبعوا على العناد، وألفوا الغارات، وتعكير الأمن، وسلب أموال الناس. ولذلك فقد جهز للمرة الثالثة حملة قوية لتأديبهم، وصمم على أن يقضي على الأيدي العابثة، ولما كان ببعض الطريق تفقد الجيش، فلم يجد أبا الحسن الأبدلاني وأبا مرداس، فحبس الجيش ورجع يلتمسهما مخافة أن يكون وقع حدث دون أن يعرف، غضب منه الشيخان، وهو حريص أن يكون عند رضائهما بل إن الأمة كلها كانت حريصة على رضائهما.

أما الشيخان فقد تعبوا من المسير، وضعفا عنه لكبر السن فرأيا أن يستريحاً قليلاً بالطريق، وقصدا "أغرميمان" بتغرمين عند العجوز، هذه العجوز العالمة الصالحة التقية، التي قصرت نفسها في مجلس الذكر كما تدل عليه كلمة "أغرميمان" التي تعنى قصر النفس في مجلس الذكر، وأصلها أغرم إيمان، وفرحت العجوز أم الخطاب بزيارة الشيخين، فذبحت شاة

لضيافتهم، وكانت تناقشهما في مسائل العلم ومعاني العبادة وما لبثا حتى وصل العباس يلهث من التعب ويتسائل في حيرة وارتباك عما أرجعهما عنه. فبادر أبو مرداس يطمئن القائد قائلاً: "إنك على الحق لم ننكر عليك شيئاً" وأوضحا له أنهما تعباً وأصبحا لا يطيقان السير العنيف. ومصاوله الأقران. فاطمأن قلبه وقال لهما دعا الحرب لمن يطيقها.

كانت العجوز تستمع إلي الحديث الذي يدور بين الأبطال الثلاثة وكانت لم تعرف أنهما رجعا إليها من الجيش. فلما علمت بذلك. وعرفت أن العباس ذاهب إلى قتال العدو. عمدت إلى اللحم وكان قد نضج واستوى. فوضعت في خرج العباس. وقدمت إلى الشيخين الرق فائلة لهما وهي تشير إلى العباس وقد امتطى جواده وانطلق به: هذا الذي يستحق اللحم أما أنتما فيكفيكما الجلبان تعنى العدس وما معه. فابتسم الشيخان في رضا واستحسننا منها هذا السلوك.

أما العباس فقد تعقب الجناة واستمر ينشر الأمن ويقيم العدل ويحافظ على قواعد الإسلام. حتى بلغ كَكَلَة فأمن الناس وعم الرخاء. وانقطعت أسباب الفتنة.

لقد كان العباس مثل أبية، قوة وشجاعة وإيماناً. لا يهرب بطلا ولا يخشى معركة. ولا تغره دنيا. ولا يدخله الشيطان من باب. يتواضع للمؤمنين حتى تحسب به ضعفاً به ويقسو على العصاة والمجرمين حتى تخال به عنفاً. ولا يتمسك برأيه في عناد وإصرار. ولكنه يستمع النصيحة ويرجع إلى الشورى. ويعمل بما يقول به المخلصون.

أبو ذرَّ أبان بن وهيم

نشأ كما ينشأ الفقراء من أبناء العوام. كفاح متواصل في سبيل العيش. وعمل دائم في زراعة الأرض. حتى شب عن سن الدراسة. واستعصى عوده عن حمل المحفظة. وأصبح رجلاً من أولئك الرجال الذين لم يتح لهم أن يغترفوا من مناهل العلم العذبة. فنشأ جافاً. وإن كان ذا ذكاء متوقد ونفس حساسة. وعزيمه دونها الفولاذ مضاء.. مرض يوماً فلزم حجرة مع أخيه عبدالله: العالم الفقيه فكان الناس يزورونهما. ينصرفون بأحاديثهم ووجوههم وقلوبهم ومؤسساتهم إلى أبي عبدالله. ولا يلتفتون إلى أبان إلا إذا نهضوا للخروج. فتنتقل منهم كلمة المجاملة: "كيف حالك يا أبان؟". فيجيبهم ونفسه تكاد تنفجر: "إن عاش أبان جعل للدنيا جزاءها إن شاء الله.. وعاش أبان. وسلم من هذه المرضة. وشفى من ذلك الداء. وخرج لا ليواصل كفاحه في غرس الأشجار ورعي الأبقار. وجمع وسائل العيش: ولكنه خرج ليستقبل عملاً جديداً. يخجل أكثر الناس أن يقوم به. ويضربون لذلك المثل فيقولون: "بعد ما شاب دخل الكتاب". خرج ليزيد إلى كفاحه في سبيل حياة الجسم. كفاحاً في سبيل حياة الروح... كفاحاً أشد. يقتضى صبراً وسهراً. وقوة إرادة. وصدق عزيمة. وبدأ يتعلم...

بعد أن ينتهي من كفاحه المادي، يذهب إلى علامة زمانه أبي خليل الدركلي، للدراسة، وكان أبو خليل، من أولئك الذين خلقوا بطبعهم للتعليم، وتبليغ رسالة الله، وتوجيه الناس إلى المثل العليا، فلم يكن يقتصر في تعليمه على وقت، أو يقف عند نظام، أو يراعي طبقة، إنه وهب نفسه كلها، ووقته كله للتعليم : يلقي الدروس النظامية على الطبقات النظامية في مدرسته العامة، في الأوقات المخصصة، ولكنه عند ما يخرج من المدرسة إلى السوق، إلى المسجد، إلى البيت، في الليل أو في النهار، كان لا يكف عن التدريس، ولا ينقطع عن التعليم، ولا ينتظر أن يكثّر الطالبون، أو أن تستدير به الحلقة، ولذلك فقد كان نبعاً ثاراً عذباً، يستقى منه أبان في أي وقت أمكنته الفرصة وحضر إليه،

وواظب أبان على هذه الدراسة، وتفتح قلبه وعقله للعلم والفهم، يساعده على ذلك عزيمة صادقة وصبر على المتاعب والمصائب، راض نفسه عليها يوم كان يكافح من أجل الحياة، وإيمان بأن حياة الانسان بدون علم لا تستحق أن تحيا، أو تحسب من العمر، وبلغ في درجات العلم فوق ما أمّل، وأجازه أستاذه أبو خليل الدركلي، إجازة لم يتحصل عليها أحد من طلابه الأذكياء النجباء، وما كانت تجاز إلا للقليل من الأعلام، الذين يدركون أسرار الشريعة، ويفهمون مقاصدها العميقة، ويفرقون بين الحالات المتشابهة المظاهر، ويعرفون بواطنها، ويتعمقون في دراسة نفسيات الناس، ومدى ارتباط أعمالهم بإيمانهم، فقال له : " افت للناس بالرخص، لكل زمان نذير، وأنت نذير زمانك ". إن الفتوى بالرخصة لا تصح لكل أحد، ولا لكل حالة، ولا تكون قاعدة عامة

تبنى عليها الأحوال المتشابهة، ولا يفتى بها كل متعلم، إنها كالدواء الضروري، الذي لا يعطى إلا في حالات خاصة : تراعى فيها جوانب معينة، لا يمكن أن يدركها إلا قلة من العلماء، الذين أوتوا فهما لأسرار الشريعة، وحكمة الفريضة، ومعرفة نفسيات الناس : وكان من هؤلاء الصنف : هذا العلامة الذي درس بعقله، واعتمد على فكره، وبلغ أعلى مراتب علم الشريعة، بفهمه لا بحفظه، فأصبح أعظم مرجع للإسلام، وقدوة للعلماء الأعلام، ولا يخلو كتاب من كتب الإباضية عن آرائه وفتاواه وتحقيقاته، وكثيراً ما تكون تلك الآراء هي خاتمة النقاش، ومحز الخلاف.

لقد كان نافذ البصيرة، حاد الذكاء، عميق الفهم، قوى الحجة، واسع الاطلاع، ولكم وجهت إليه الأسئلة في معضلات المشاكل، فوجدت عنده الجواب السهل القريب، وكان بعض المتعلمين يؤلفون أسئلة فيما يظنونهم مستحيلاً أو قريباً من المستحيل، ويوجهونها إلى ذلك العلامة، فيجيبهم دون روية أو تفكير ...

قيل له يوماً : كيف أخرج لرجل حلف لإمرأته بالطلاق أن لا يزوج ابنتهما لمن يحبان : ولا لمن يبغضان ؟ وظن السائل أنه وضع بين يدي الشيخ سؤالاً معقداً يحتاج إلى تفكير على أقل تقدير، ولكن الشيخ خيب ظن السائل وأجابه على الفور : يزوجه لمن لا يعرفان، واقتنع السائل وسكت.

وقد كان الطلبة كثيراً ما يضعون أمثال هذه الأسئلة التي يعتقدون استحالتها أو صعوبتها، ويأملون من وراء ذلك أن يقف

هذا البحر حائراً مرتبكاً. ولكنه كان في كل مرة يخيب ظنهم. ويجد الجواب الشافي دون حيرة أو ارتباك ...

لهجت الألسن بعلمه، وفضله، وتقاه، وقوة إرادته، واتباعه للحق، فهمه للأسرار، وشدة ذكائه، وكان الإمام في " تاهرت " يبحث عن مثل هذا الرجل ليؤليه أمور المسلمين. إن العلماء والصلحاء والتقاة كثيرون في ذلك الحين، ولكن العلم والصلاح وحدها لا يكفيان للاختيار؛ إن الذكاء وقوة الإرادة والصلابة في دين الله، أمور ضرورية لمن يتولي شأن المسلمين.

كان الإمام يبحث عن هذه العقول النيرة، والقلوب البصيرة، ليحملها أمانة الأمة، ويضع بين يديها تلك المهمة العظيمة. فبحث إليه بعد وفاة العباس بالولاية على جبل " نفوسة ". وما والاه.

إن تولي أمر المسلمين عند أولئك الناس لا يعني جاهها ولا منصباً ولا ثروة، ولكن يعني تحمل أعباء ثقال، يحاسب عليها الرجل من ضميره، ومن الإمام، ومن الأمة، ومن الله ؛ ولما جاء أمر الإمام إلى العالم الكبير بالولاية لم يرد ؛ ولكنه قبله في حزن وأسف، ثم أجه إلى الخالق الذي بيده الموت والحياة، وتضرع إليه في حرارة : أن لا يطيل مدة هذه الولاية، وأن يجعلها لا تتجاوز سبعة أيام، فإن تجاوزتها فلا تتجاوز سبعة أشهر. وأستجاب الله لدعوة عبده، فلم تتجاوز مدة ولايته سبعة أشهر. " إن لله رجالاً لو أقسمو عليه لا يبرهم ".

أبو منصور إلياس

مؤمن عميق الإيمان، وبطل لا يهاب أعباء البطولة، نشأ في " تَنْدَمِيرَة " في هذه القرية التي كانت ولم تنزل مقرأً للعلم والدين، ومنبعاً للذكاء والخلق المتين، لم تنح له فرصة الدراسة في صغره، وكان في خلقه خشونة وعرامة. وفي بنيته أسر وقوة، وفي طبيعته حدة وشدة، لم يهذهبه من ذلك في زمن الصغر إرشاد المدرس، ولم تنل منه عصا المؤدب، فشرب صلباً قوياً، ولكنه في هذه الصلابة والعزة كان يجلب العلم والعلماء.

كان ذات يوم في " تيجي " في هذه القرية الجميلة الوسنانية، التي تستلقي في استرخاء عند أقدام الجبل الشامخ، تمتص الزلال العذب من منابعه الصافية، وكان ينحدر الماء إليها من القمم الشماء التي تناطح السحاب في كبرياء، وكانت " تيجي " في ذلك الحين مدينة أهلة بالعلم والعلماء، وكان سعد بن أبي يونس الذي أسندت إليه ولايتها بعد أبيه، يتولي شؤونها، ويرعى أمورها، ويقيم فيها كتاب الله، ويشرف على المدرسة العامة، التي أسسها أبوه فيها، والتي خرجت فيمن خرجت أبا معيد الجنائوي : العالم الزاهد، الذي يقوم مقام أمة.

قلت : إن أبا منصور كان في تيجي لشأن من الشؤون، فلقني أبا مرداس مهاصر، وكان أبو مرداس حافي القدمين، منهك القوى،

قد أدمى الشجر والحجر قدميه، وكان في سنة فحط وشدة، فرق له أبو منصور، ونزع نعليه فأعطاهما للشيخ، فتقبل الشيخ هذه الهدية، ثم أجه بقلبه إلى ربه وقال يخاطب أبا منصور - وكان أبو منصور فتى قويا من أهل الجملة - : " نزع الله منك يافتي ما لا يرضي، ورد فيك ما يرضي". قال أبو منصور يتحدث عن نفسه : " فأحسست حين دعا بما غشيتني " فوقع في نفسه التعلق بالمراتب العالية من العلم والعمل.

وهكذا تغير وجه التاريخ بالنسبة إليه، وأجه اتجاهها جديدا، حتى بلغ غاية يقصر عنها كثير من العاملين. واشتهر علمه وخلقه ودينه بين الناس. حتى بلغ ذلك، الإمام أبا اليقظان في تاهرت، فعينه واليا على ليبيا، وسار في عمله السيرة التي يعرفها المسلمون : قوة في الحق لا تبلغ الطغيان، وعدل بين الناس يجري على ما أمر به كتاب الله وهدى محمد صلى الله عليه وسلم، وخلق كأخلاق الصحابة، يدفعها الإيمان للعمل، ويقف بها الإيمان عن الانحراف عن سبيل الله، يبلغ في شدته على العصاة والمجرمين والمنحرفين، ما يملأ قلوبهم خشية للحق، ويقف لكلمة حق يسمعها من أي شخص عادي، لا تغلبه نفسه عن الرجوع إلى الحق في أي موقف أو أي مكان، إنه كان صورة ثابتة للفاروق رضى الله عنه، ولو لم يتح له ما أتيح للفاروق : من إقامة دين الله، والحفاظة عليه ...

جاءته رسالة من أحد عماله يطلب فيها إقامة الحد على حاملها، وكان جماعة من العلماء حاضرين : فيهم القاضي عمروس : وقرأ الوالي الحريص على إقامة حدود الله الرسالة،

وفهمها، وبدأ في إقامة الحد.

وفي هذه الأثناء وصل العالم الزاهد أبو الليث 28، فأفسح له المشائخ في المجلس، وطلبوا منه أن يشرف مجلسهم، ولكنه أجابهم - وهو يشير إلى الوالي - حتى أنظرما يقع هناك، ووصل إلى الوالي وهو يباشر إقامة الحد، فسأله عن عمله هذا ؟ فأخبره الوالي أنه يقيم الحد برسالة وردت إليه من أحد عماله، فقال له : " أمن أجل سواد في قرطاس، تضرب الناس، يا إلياس ؟ " وقرعت كلمة الحق سمع الوالي العظيم، وتمكنت من قلبه، فأوقف يده الضاربة : ووقف موقف التلميذ المذنب أمام المدرس الحازم، وسأله عن رأيه في القضية، فقال الشيخ العالم : تضع الرجل في الحبس، وتبعث بالأمين، فإذا ثبت عليه الحكم أنفذت فيه الحد، وإلا وجب أن تقاصصه من نفسك : وأطاع الوالي، وبعث بالأمين، فثبت عنده أن الرجل مظلوم، وأن الجاني المطلوب لم يحضر، وإنما سلم الرسالة إلى هذا الغافل، ونزل الوالي على حكم الشيخ، وقاصص الرجل من نفسه.

هذا مثل يوضع بين يديك أيها القاريء الكريم، يوضح لك قيمة العلم عندما يقوده الإيمان والحق والدين الصحيح، إن العلماء هم حجة الله في الأرض، يستوي عندهم الحاكم والمحكوم : لا يقع بين أيديهم شأن من شؤون الدولة والأمة حتى يفهموه حق الفهم، ثم يصدرون فيه حكم الله : وما دام هؤلاء العلماء في الأمة، فإن الأمة بخير : فإذا انقلب العلماء إلى أتباع للحاكم، يبررون أعماله، ويساندونها بالفتوى، ويوجبون طاعته على الناس، ويطالبون الشعب بالصبر، ويتلقون ما يقذفه عليهم هذا

الحاكم من أرزاق وعطايا.

إذا انقلب العلماء إلى مهازيل، يسكرون وراء القافلة يَحْدُون ويصفقون، فإن الأمة سوف تنحدر إلى هوة سحيقة العمق، لا يعلم إلا الله قرارها.

لم يكن أبو منصور جباراً ولا طاغية، ولكنه أخطأ بعدم التثبت؛ وكان مجلسه جمع من العلماء جاز عليهم هذا الخطأ كما جاز على أبي منصور. فلما عرف الحق رجع إليه، وأفاد من نفسه. وهو موقف رائع، يدعو إلى الإعجاب والتقدير.

إنه موقف الحاكم المسلم، الذي لا يعتز بالأثم بالسلطان، ولا يعتصم بالقوة، ولا يتردد في قبول الحق، مهما كان هذا الحق، وكيفما كان هذا الحق، وعلى من كان، ولن كان ...

عرف الناس ما عليه أبو منصور من الصلابة في دين الله، فلزموا الجادة، ولكن أبناً خلف بن السمع، خطر له أن يجدد أمر أبيه، وأن يدعو لنفسه، وأن يعكر الأمن الذي ساد، والسلام الذي انتشر؛ فطارده أبو منصور حتى ألقى عليه القبض في جربه، وحبسسه أياماً ثاب من بعدها، وصلح حاله، وأصبح يسمى بعد ذلك "الطيب بن الخبيث بن الطيب".

حصل بين العباس بن أحمد بن طولون وبين أبيه نفور وسوء تفاهم، فانتهز العباس غياب أبيه عن مركز الدولة في القاهرة، وأخذ ما في خرائن الدولة²⁹ من الذهب، ويقدرها بعض المؤرخين بحمل ثمانمائة حمل من الدنانير الذهبية، وجهز جيشاً واجه إلى المغرب.

كان ينوي أن يحتل هذه البلاد الواسعة الغنية، التي تقع ما بين الإسكندرية والمحيط الأطلسي، ويكون فيها دولة مستقلة مركزها القيروان -عاصمة الأغلبية في ذلك الحين - وسار بجيشه الذي زحف على برقة زحف الجراد.

فلما وصل إلى طرابلس حاربه عامل الأغلبية فيها "ابن قهررب" ولكنه انهزم وخُصن في المدينة، ولما وصل إلى "لبده" خرج إليه عاملها وأهلها وأكرموه، ولكنه لم يرع حق هذا الإكرام، فأمر بنهبها فنهبت على حين غرة، وقتل رجالها وانتهكت حرمانها. قال الزاوي: "وقد امتدت يد جند ابن طولون إلى البوادي الذين يسكنون خارج المدينة، وكانوا من البربر الإباضية، ومن أتباع إلياس أبي منصور النفوسي: صاحب جبل نفوسة، ونالوا من حرمانهم وأموالهم فاستغاثوا به من جيش بن طولون

وقد كتب إليه ابن طولون حينما كان يحاصر طرابلس: "أن أقبل بسمعك وطاعتك، وإلا وطئت بلدك بخيلي ورجلي، وأبحت حرمانك" فرد عليه إلياس: "أما أنك أقرب الكفار مني، وأحقهم بمجاهدتي، فقد بلغني من قبيح أفعالك ما لا يسعني التخلف معه عن جهادك، وأنا على أثر رسالتك إليك" وجهز جيشاً من اثني عشر ألف مقاتل، والتقى بابن طولون في قصر حاتم سنة 267، فانهزم ابن طولون، وتشتت شمله، واستبيحت أمواله، وأخذ أهل طرابلس كل ما معه من مؤن وعتاد، ولم يأخذ البربر شيئاً من الغنائم، لأنهم يرون حرمة أموال الباغين من الموحدين، ولا يستبيحون دمائهم ماداموا محاربين لهم، ولا يستبيحونها في حال السلم.

ووصل ابن الأغلب إلى طرابلس بعد أن تمت المعركة وانهزم ابن طولون، ورجع أبو منصور إلى مركز حكمه.

وصل ابن الأغلب كما تصل الغربان، يبحث عن الدنانير التي عفا عنها أبو منصور، ويلتقطها من الناس، حتى أن الجندي كان يبيع دنانير ابن طولون سرّاً بأي ثمن، خوفاً من وجودها عنده.

في هذه الحادثة التاريخية يلتقي ثلاثة قواد من قادة الأمة الإسلامية : هم العباس ابن احمد بن طولون، وابراهيم بن احمد بن الأغلب، وأبو منصور إلياس ...

وفي إمكانك أيها القارئ الكريم أن تقارن بين هؤلاء الرجال، وأن تعرف أيهم كان يتبع في جميع تصرفاته هدى الإسلام، وأيهم كان يتبع هواه، ويسير في سبيل الشيطان ؟

أيهم كان يمثل الإسلام حق تمثيل ؟ وأيهم كان لا يبالي بدين ؟ ولا يقف عند حدود الله ؟ ... هذا فتى يجد غرة من أبيه السلطان فيسرق خزائن الدولة، لأنه يتعجل الوصول إلى الحكم، ثم يكون جيشاً ويتجه إلى المغرب، يقتل الأنفس البريئة، وينتهك الحرمات المصانة، ويجازي من أحسن إليه شر الجزاء، ويهدد مسالماً لم يتعرض له فيقول : " أقدم بسمعك وطاعتك، وإلا وطئت بلدك بخيلي ورجلي، وأبحت حرمك ".

ما مقدار إيمان هذا الرجل الذي يسرق خزانة الدولة، ثم يتوغل في بلاد المسلمين : يقتل ويسلب ويغنم، وينتهك الحرم، ولا يقف عند هذا الحد العملي، بل يتجاوز به إلى أن يسند لنفسه التشريع، فيقول لمؤمن عصم الإسلام ماله ودمه وحرمه : " وأبحت حرمك "

إن الذي بيده الإباحة والتحريم، إنما هو خالق الخلق، وليس لغيره أن ينزل ديناً على حسب هواه، يحلل ويحرم.

إن الرجل الذي يستحل ما حرم الله، ثم ينسب ذلك إلى نفسه في غرور ووقاحة وتبجح، لا يخشى أمر الله، ولا يستحي من مخالفة دينه وأمره، ليبعد عن الإسلام !

وضع إلى جانب هذا الموقف الظالم الخارج عن حدود الله، موقف خصمه، هذا الخصم الذي اعتدى عليه في مقره، وهدد بإباحة حرمه، وبأن تطأ الخيل بلاده : وطولب أن يقدم السمع والطاعة لفتى مغرور، أقل ما يوصف به عقوق الوالدين.

لقد ثار! ... وأي حر لا يثور ؟ ... ولاقى الطاغى الجبار في قصر حاتم ... وكانت المعركة.. وشاءت إرادة الله أن ينتصر الحق والشهامة ولمروعة ! ... وأن ينهزم الطغيان المتكبر الجحود ! ... فماذا كان من المنتصر ؟.. ما هو موقف أبي منصور إلياس ؟.. هل ذبح الأسرى ؟.. هل قطع الرؤوس ؟ هل انتهك الحرمات ؟ : حرمات المحاربين، أو حرمات المسالمين، هل أطلق أيدي الجند للغنيمة ؟ هل جمع الأموال ليستأجر بها المرتزقة ؟ أو لبني بها القصور ؟ أو ليكدسها في بيت المال ؟ هل جمع الذهب الذي يتناثر في المعركة كما يتناثر الحصى ؟ إن وقرثماناً حمل تنتشر هناك ! ... ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك !..

وعند ما ولّى العدو منهزماً، وركب ابن طولون فرسه هارباً، أوقف أبو منصور رحا القتال، ثم أمر جيشه بالرجوع، هذا الجيش الذي يقاتل في سبيل الله، لا يأخذ من الدولة مرتباً، ولا من

ساحات القتال غنيمة، ورجع أبو منصور بجيشه المظفر بريئاً من الإنتقام، بريئاً من الظلم، بريئاً من العدوان، نظيفاً من الدماء المسالة، نظيفاً من الحرمات، نظيفاً من جميع الأموال ! ... أموال المسالمين، وأموال المعتدين، إنه لم يأخذ من هذا الذهب المتناثر في ميدان المعركة قطعة واحدة يحتفظ بها للذكرى، أو يجعلها في دور الآثار ...

وجاء الطامعون، بعد ما خلا الميدان من المنهزمين والمنتصرين، يتخاطفون ما عفا عنه أولئك الأبطال المؤمنون، الذين يعرفون أين يقفون من حدود الله ... ووصل القائد الثالث، الذي كانت الحملة الطولونية موجهة إليه، وصل بعد أن انتهى كل شيء، فماذا فعل ابن الأغلب ؟.. إنه رجع إلى أشلاء المعركة، يجمع بقية الأسلاب، ويطارد الناس الذين غنموا من غير جهد، فينتزع منهم ما أخذوه، ويفتش الأفراد والجماعات، ليتحصل على هذا الذهب، الذي فرطت فيه خزائن القاهرة، حتى كان الرجل يبيع ما معه من دنانير ابن طولون بأي ثمن، ليتخلص منها، مخافة أن يجدها عنده أعوان الطاغية الثاني.

وسار التاريخ، لا يلتفت، وفنى الذهب الذي سرقه ابن طولون من خزائن أبيه ليبنى به عرشاً، فنثره أبو منصور النفوسي في ميدان المعركة، وفنى ابن الأغلب، رغم هذه الدنانير التي كان يفتش عنها بدقة، ويجمعها بحرص، وفنى أبو منصور أيضاً، كما يفنى جميع الناس، ولكن هذا المثل الرائع، الذي ضربه للحكام، وهذه السيرة العطرة التي سار بها بين العدو والصديق، وهذا الخلق الكريم الذي اقتبس من أخلاق النبوة، وهذا الدين القويم،

الذي يعصمه من الخطأ والزلل، هذه الصفات وما إليها، بقيت خالدة مع الإنسان، توحى بالعبرة والذكرى لكل من يتولى أمر أمة.

إن الشهامة التي يتصف بها أبو منصور والعبرة التي تركها للأجيال، والقذوة الحسنة التي خلقها لقواد الجيوش؛ أغلى من ملء الدنيا ذهباً، وما عند الله خير وأبقى ! ...

الزاوي وأبو منصور

كتب الأستاذ الطاهر الزاوي عن مجيء العباس ابن طولون إلى طرابلس، وملافاة أبي منصور النفوسي له. ورغم أن الأستاذ الزاوي في هذا الموضوع لا يجد مفرّاً من ذكر حقائق التاريخ، إلا أن قضية العنصرية لا تزال تشغل فكره، وتستحوذ على قلمه. يقول في كتابه " تاريخ الفتح العربي في ليبيا " صفحة 152 وهو يتحدث عن أبي منصور: " وأخذ أهل طرابلس كل ما معه من مؤن وعناد - أي مع ابن طولون - ولم يأخذ البربر شيئاً من الغنائم لأنهم يرون حرمة أموال الباغيين من الموحدين ". لست أدري لم يحشر كلمة البربر في هذا الموضوع؟ وهم قبائل متعددة في ذلك الحين، وفيهم صفرية يستحلون دماء وأموال الموحدين، وفيهم مرتزقة مع مرتزقة العرب 33 التي يتكون منها جيش الأغالبة على رأي الأستاذ الزاوي نفسه. ليس الموضوع موضوع عرب وبربر، ولكنه موضوع إيمان ودين ... إن أبا منصور وجيشه لم يتورع عن غنم أموال المسلمين لأنهم بربر، ولكنهم تورعوا عنها لأن الإسلام قد صان أموال المسلمين، فلم يبحها إلا بشروط معينة، وأبو منصور وأتباعه، يقفون عند حدود الإسلام: قاتلوا المعتدين، فلما انهزموا عفوا عن دمائهم وأموالهم: لأن الإسلام يأمرهم برد العدوان، ويحرم عليهم أموال الموحدين. ويظهر أن

للأستاذ الزاوي رأياً غير رأي أبي منصور ورأي الإباضية ورأي الإسلام في قضية الأموال والغنائم، وفي الصورة الآتية تتضح لك معاني ربما لم تتضح من تعبيره في الجمل السابقة :-

كتب الأستاذ الزاوي عن أبي منصور في كتابه " أعلام ليبيا " ولعله ما يهتم القارئ الكريم أن أنقل إليه هذه المقتطفات من هذا الكتاب القيم: قال الأستاذ الزاوي: " ومن أظرف ما وقع، أن الإباضية لم يأخذوا من هذه الغنائم شيئاً، لأنهم يرون حرمة أموال الباغيين من الموحدين، ويستبيحون دماءهم ما داموا محاربين لهم، ولا يستبيحونها في حال السلم. مع أن إلياس كتب إلى ابن طولون رسالة قال فيها: أما أنك أقرب الكفار مني ... الخ، وكثيراً ما يريد الإباضية بالكفر. كفر النعمة. "

قرأت هذا الكلام، وأنا أعجب لهذا المسلم الذي لم يجد ما يعلق به على هذه الحادثة التاريخية الهامة إلا قوله: ومن أظرف ما وقع ... الخ. ماذا يقول الزاوي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عندما انتصر في وقعة الجمل ولم يغنم الأموال ...؟

أبى أن ذلك شيئاً ظريفاً؟ وهل عادت أحكام الإسلام من التفاهة في نظر المؤرخين، بحيث يحكم عليها بالأحكام التي نطلقها على بيت من الشعر أو قطعة من الأدب؟!.

ما وقع الظرافة في هذه القصة يا ترى؟ أن وقف المؤمن الورع حيث يقف به الإسلام، لا يظلم ولا يبغي؟ إن هذا ليس فيه ظرافة ... إنه حق، وعدل، ودين ... وقف عنده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ووقف عنده أبو منصور إلياس، هذا الرجل الذي لم

تنتكس له راية، ولم يهزم في موقعة ولم يلوث يديه بدم برئ، ولم يملأ جيبه بمال حرام، وأمثال هؤلاء الأبطال يجب أن يكونوا قدوة لولاة أمور المسلمين.

ويقول الزاوي: "الإباضية يرون حرمة أموال الباغين من الموحدين" فهل يرى حضرة الأستاذ الكبير غير هذا الرأي؟ أليس هذا هو حكم الإسلام؟ ألم تعصم كلمة الشهادة دماء المسلمين وأموالهم إلا بحقها؟ أم يرى أن الإباضية أخطأوا سبيل الإسلام، حيث لم يرتكبوا من الفواحش ما يرتكبه أولئك الذين اتخذوا الحروب ذريعة للغنيمة، ووسيلة لكسب المال.

ولم يجد الأستاذ الزاوي شيئاً يلمز به هذا البطل العظيم في جميع أعماله وسيرته، فأورد الكلمة التالية: "مع أن إلياس كتب إلى ابن طولون رسالة قال فيها: "أما أنك أقرب الكفار مني ... الخ. وكثيراً ما يريد الإباضية بالكفر كفر النعمة".

وما دام الأستاذ الكبير يعرف أن كلمة الكفر قصد بها كفر النعمة في استعمال أبي منصور، فما وجه إيرادها؟ أم أن الأستاذ الزاوي يرى أن ابن طولون وهو يسرق خزانة الدولة، ويقتل الأبرياء، ويغتصب الأموال، وينتهك الحرمات، إنما يقوم بأعمال البر والإحسان ...

ثم لماذا لم يذكر أن هذه الرسالة كانت جواباً لرسالة من ابن طولون يقول فيها لأبي منصور "أقبل بسمعك وطاعتك، وإلا وطئت بلادك بخيلي ورجلي، وأبحت حرمك"؟ وأيهما أكبر في نظر الأستاذ الزاوي: إطلاق كلمة الكفر على رجل يرتكب من

الفواحش ما يندى له وبين الإنسانية، وينسب تشريعاً يخالف تشريع الله؛ فيحلل ويحرم حسب الهوى؟ أم هذا الموقف المتجرد من الدين والخلق، المحاد لأحكام الله، الزائغ عن طريق المؤمنين؟ ...

إن الحق أحق أن يتبع، وهو لا يخفى على الأستاذ الزاوي، ولكن شيئاً في صدره يحيد به عن منهج الصواب، ويجعله يسلك طريقاً ملتوية، وهو يتصدى لكتابة التاريخ.. وليت الأستاذ الزاوي ضرب مثلاً أعلى في النزاهة للشباب المسلم الذي نرجو أن يرتفع عن دنايا النفوس المريضة، ويرجع إلى الحق الذي جاء به الإسلام، ويستمسك بهدى العدول من أبناء أمة محمد صلى الله عليه وسلم، لا تؤثر عليه طائفية، ولا تميل به عنصرية، ولا يقدس إلا ما قدمته شريعة الله ...

أفلح بن العباس

بطل آخر من أبطال الكفاح. الكفاح بأوسع معانية، كفاح النفس والهوى ... وكفاح الظلم والباطل ... وكفاح الباطل من أي طريق جاء ... وثقت فيه الأمة ... ووثق فيه الإمام، فاسند إليه الإمامة على ليبيا ... وسار على النهج الذي سار عليه أسلافه : أبان، وأبو عبيدة، والسمح، وأباؤه : العباس وأيوب.

تواضع للمؤمنين يكاد يكون ذلك ... وقوة على العصاة والمجرمين تصل إلى درجة الحدة ... وحمل للناس على السير في السبيل الواضحة، وقيام بأمر المسلمين ومهامهم دون تفریط في قليل أو كثير، وحب يشمل جميع المسلمين.. وشورى تقف حيث يريد لها خيار الأمة، وتتجه أنى يطلبون فلا يقطع أمراً دون رأيهم، ولا يصبر على عمل وهم له كارهون، ولا يقف عن أمرهم فيه راغبون. ولعل موقفه هذا يتجلى في الموقعة التاريخية المشهورة، التي حطمت فيها سيوف نفوسه ... وقعة مانو.. جهز إبراهيم بن أحمد بن الأغلب جيشاً عظيماً من تونس يريد به غزو مصر، ولما وصل إلى رقاد، أقام بها مدة يستكمل عدته، ثم أجه إلى مصر يريد حرب ابن طولون ... وطريق هذا الجيش يمر بليبيا، ولبيا إباضية المذهب، تابعة للدولة الرستمية، ماعدا طرابلس العاصمة والبحر - حسب المعاهدة التي وقعت بين

عبد الوهاب الرستمي وعبد الله ابن الأغلب. وكان الوالي على ليبيا حينئذ هذا البطل الذي تحدث عنه.. إنه أفلح بن العباس بن أيوب، وكانت شواطئ البحر والسهول الممتدة بين طرابلس والجبل ملوذة بالسكان، عامرة بالقرى والدساكر، وكان هؤلاء كلهم من الإباضية الذين يرجعون إلى أفلح ...

ولما سمعت نفوسة في الجبل بعزم ابن الأغلب على محاربة ابن طولون في أراضيهم، وأرادوا منعه من المرور، ووقع خلاف بين أهل الرأي والمشورة، فكانت الأكثرية تريد الوقوف في وجه هذا الغازي الظلوم، وكان بعض أهل الرأي يفضل عدم التعرض له ما لم يكن قصده محاربة الإباضية في ليبيا، وكان على رأس أصحاب هذا الرأي الوالي أفلح بن العباس، وعامل فنطراة سعد بن أبي يونس. ولكن أهل الشورى والغالبية الكبرى من الأمة كانت ترى وجوب رده عن المرور في أراضيهم، وعدم السماح له بالاجتياز، وخضع الوالي الشجاع لرأي الأغلبية، واستجاب لمطلبهم، وجهز الجيش وقاده، حتى التقى بعسكر ابن الأغلب في قصر " مانو " على ساحل البحر، قرب قابس.

والتحم الجيشان، ووقعت معركة ندر أن يقع مثلها في التاريخ، وكثر القتل في جيش أفلح، وخاف أن يضعف إخوانه، فأمر حامل الرؤية أن يركزها في الأرض حتى تثبت، ولا تحدث أحداً من أصحابه نفسه بالتخلي عنها. وحاول حامل الرؤية أن يمتنع عن هذا العمل الخطير الذي كان حرياً أن يقضي على الجميع، ولكن الوالي البطل أصر على أمره، وركزت الرابية في الأرض، واستمرت الحرب، وكانت الرؤوس تتساقط من حولها حتى كاد

يفنى الجيش ولا يبقى منه أحد، وحينئذ تشجع أحد العقلاء الذين أيقنوا بالهزيمة، وعلموا أن الدفاع عن هذه الراية المثبتة يعني انتحاراً جماعياً. فضرب الراية وأسقطها وتفرقت البقية القليلة التي سلمت - وهم عدد قليل. وكان الوالي فيمن جأ. فرجع إلى مركز حكمه في الجبل. ورغم أن الوالي كان معارضاً لفكرة هذه الحرب، وأنه ما قاده إلا مكرها، رغم ذلك وجد بقية المشايخ قد استاءوا منه، وتشاءموا من ولايته، وحملوه مسؤولية الهزيمة، واتفقوا على عزله. وولوا عليهم ابن عم له ... وآله هذا الموقف من إخوانه، وحز في نفسه، وفكر في أن يستمسك بالولاية، فاستشار العلامة أبا معروف حاكم شروس. فاقتنعه أبو معروف بضرورة الموافقة، والخضوع لرغبة المشايخ: مادامت هذه الولاية ليست أمراً دنيوياً. يطلب منها العلو في الأرض. وجمع الثروة والمال: فرضى بحكمهم، ووافق على رأيهم..

ولكن ما لبث المشايخ إلا قليلاً حتى أدركوا خطأهم. وعجز الوالي الجديد عن القيام بمهامهم. فعزلوه، ورجعوا إلى أفلاح يطلبون منه أن يتولي أمرهم من جديد... وفكر هذا البطل المؤمن أن يمتنع عن قبول هذا العرض، ويرفض الولاية التي نزعت عنه أمس دون سبب، ولكنه نظر إلى مصلحة الأمة، واستعرض حالة البلاد، فوجد أن المؤمنين الأقوياء في دينهم، وعلمهم، وخلقهم، قد أكلتهم الحرب في وقعة "مانو" ولم يبق إلا شيوخ يقعد بهم ضعف الشيخوخة عن حمل هذه الأعباء الثقالة، أو رجال ليس لهم من العلم والكفاءة ما يؤهلهم لشغل هذا المنصب الخطير، ولذلك فقد أنتصر على نفسه مرة ثانية، فرضى بما عرضه عليه

أهل وطنه، وقبل الولاية، وسار بهم سيرة السلف الصالحين ...
رحم الله تلك النفوس المؤمنة، التي تدور مع الحق حيث دار ...

لم أعترض الإباضية طريق ابن الأغلب

لكي تعرف السبب الذي حمل الإباضية في ليبيا أن تمنع ابن الأغلب من المرور في أراضيها بجيشه اللجب، يجب أن نذكر حقيقتين تاريخيتين :

الأولى تتعلق بتاريخ مضى، وتلك هي محاولة ابن طولون المرور في أرض ليبيا، فإن هذا الجيش الذي لا يخاف الله ولا يتقيه، عندما كان في ليبيا ارتكب من الفظائع ما تقشعر له أبدان المؤمنين، ولم تسلم منه القرى الوادعة، ولا الأحياء الضاربة بأنعامها وسط البراري، تنتجع الماء والمرعى، ولذلك فما سمع الناس بتكون جيش آخر يزمن المرور بأراضيهم، حتى كثر اللغط حول الموضوع، وبدأوا يفكرون في الفرار بأموالهم، وأعراضهم، ودينهم، عن هذه الجيوش الخربة، وعلى أثر هذه الحركة تكونت فكرة معارضة هذا الجيش ورده قبل أن يدخل البلاد ...

أما الحقيقة الثانية فهي تتعلق بإبراهيم بن أحمد بن الأغلب نفسه، وأراني مضطراً أن أضع للقارئ الكريم صورة صغيرة عنه، ليدرك شيئاً من طبعه وخلقه، ويعرف بعضاً من دينه وسيرته وعمله، ويفهم السبب الذي حمل الإباضية في ليبيا ولا سيما

نفوسة على معارضته، ومحاولة منعه من الدخول إلى البلاد ... يقول الأستاذ الزاوي في كتابه " تاريخ الفتح العربي في ليبيا " صفحة 151 : " ولكن الناس طالبوا بإمارة إبراهيم بن الأغلب، لما عرفوه فيه من الحزم وحسن السيرة " .

وينقل الأستاذ الزاوي بعد ذلك وفي نفس الكتاب صوراً رائعة من هذه السيرة الحسنة التي يتصف بها إبراهيم بن الأغلب، فاستمع إليه إليها القارئ الكريم... يقول الزاوي :

" فسار إلى طرابلس - أي بعد وقعة " مانو " التي انتصر فيها على الإباضية - وكان بها ابن عمه أبو العباس محمد بن زيادة الله بن الأغلب فقتله. "

" وسار إبراهيم في جيشه من طرابلس إلى تاورغ، وهناك قتل خمسة عشر رجلاً وأمر بطبح رؤوسهم، وأظهر أنه يريد أكلها هو ومن معه " .

" فكان يكثر القتل في أقاربه وأبنائه وإخوانه وخدمه وأنصاره، فقد قتل ابنه بين يديه صبراً وقتل ثمانية إخوة له : ضربت أعناقهم بين يديه، " وأخفت عنه أمه بنات له، حتى رأت منه ذات يوم انشراحاً فأزادت أن تزيد مسرة فأخبرته عنهن، وقدمتهن إليه، وما خرجت بهن حتى أمر بقتلهن جميعاً، وكن ست عشرة بنتاً كالأقمار. "

هذه سيرة الرجل، وهذا دينه وخلقه وعمله، وعندما يكون أمثال هذا الوحش على رأس جيش من المرتقة، يخضعون له كل الخضوع، ولا هم لهم من الحرب إلا الغنيمة والمتعة، ثم يمر

هذا القطيع من الوحش المتعطش على بلد من البلدان، فإن الآثار التي يتركها لن تكون إلا الخراب والدمار. وكان الإباضية في ليبيا وفي نفوسة على الأخص يعرفون هذا الرجل. ويعرفون سيرته وسيرة جيشه الذي لم يهذهبه الإسلام. ولم يحترم في يوم من الأيام الحرم التي صانها الدين. وحفظها الخلق. وقدستها الإنسانية. كانوا يخشون من هذا الجيش المرتزق الذي يقوده رجل مجنون أن يبسط يده بالأذى والخراب في كل مكان يمر به. ولذلك أرادوا منعه والوقوف في وجهه... إنه موجة عارمة من الحيوانية التي لا يتحكم فيها خلق ولا دين ولا ضمير ولا حياء! ... فلم لا يحاول كل عاقل أن يبعد هذا الخطر عن وطنه وأمتة؟ ...

حاول الإباضية أن يقفوا في وجه هذا الفساد. ولكن الله أراد غير ذلك فقتل من قتل من أبطال الإباضية. وانتصر ابن الأغلب. انتصر هذا الوحش الذي وجد ناساً يأثمون بأمره. ويخضعون لسلطانه. ومر على البلاد كما يمر الوباء. لا يسلم منه قريب ولا بعيد. لأنه لا يرى حرمة للنفس ولا للمال ولا للعرض. لا يقف عند حدود شريعة أو دين.. وحسبك وحشية وشرّاً من رجل يقتل أبناءه صبراً. ويقطع رؤوس بناته دون أن يرتكبن إثماً. ويطبخ رؤوساً بشرية ليجهز منها عشاء له ولجنده... إنه عمل لم يرتكبه المتوحشون من بني آدم منذ أقدم العصور... فهل أخطأ أولئك الذين دعوا إلى الوقوف في وجهه. وحبسوه في مكانه. كما حبس الأوبئة الفتاكة المعديّة؟ ...

لا ريب أنهم كانوا على حق! ...

عمروس بن فتح المساكني

قمة شامخة من قمم العلم. يندر أن تجد له مثيلاً. ومؤمن مخلص في إيمانه. فهم حقيقة الإسلام وأسرار تشريعه. وبطل من أبطال الكفاح. يتضاءل أمامه الأقران. ويسوق الجموع في الميدان كما تساق القطعان. يملك إرادة بلغت من القوة مرتبة تذلل الصعاب. وتسهل العقاب. وتيسر الأسباب.

نشأ في "قطرس": هذه القرية الجائمة على ضفة وادي تاله العميق من أرض الرحيبات. وفيها درس وبلغ هذه المرتبة السامقة من العلم. ولقد كان - على هذا البعد عن مركز الاتصال والحركة - يستورد نفائس الكتب وغرائبها من كل مكان. وتصل إليه فيدرسها دراسة المتعمق الفاهم. في أقل الأوقات: وعندما يحس بالتعب أو السآمة كانت أخته تنولي عنه القراءة أو الكتابة أو النقاش. وكم شهد بناء ذلك المنزل العامر من نقاش واع لمشاكل العلم والاجتماع. يدور بين ابنة فتح وأخيها. بين هذه الصبية الحسناء الذكية المثقفة التي تمثل المرأة المسلمة حتى التمثيل. وبين أخيها الذي كان حجة من حجج العلم.

ويطول النقاش بين الأخوين العالمين حتى تقتنع بصحة رؤية فتسلم أو يقتنع بوجهة نظرها فيرجع إليها. وعندئذ يستمران في الدراسة أو يستمر عمروس في التحرير والكتابة.

بمساعدة هذه الأخت الفاضلة العالمة، التي تهىء لأخيها العالم المصادر وتنسق له العمل، وتعد له ما يحتاج إليه ما أداة العلم: الكتاب، أو القلم، أو الورق، أو الدواة، وقد تتولي عنه إنجاز العمل إذا كان ذلك في إمكانها ...

ولقد بلغت هذه الصبغة هذا المبلغ من العلم دون أن تمرق الحجاب، وأن تسعى بين الرجال عارية الصدر مكشوفة الرأس؛ إن محافظتها على المظهر المحتشم لم يمنعها أن تبلغ ما لم تبلغه كثير من بنات اليوم، السافرات المتخلعات، الخبيرات بالحركات والغمزات ...

مر بقطرس - القرية التي أُنِجبت عمروس - العالم المحدث الفقيه "بشر بن غانم" يحمل معه مدونته، واستقبله عمروس استقبال الأخ المسلم لأخيه المسلم، وعندما أراد الرحيل ترك المدونة وديعة عند القاضي الأمين، حتى يعود ...

لم يخطر للقاضي أن يستأذن المؤلف في استنساخها، ولكنه فكر في نفسه ورأي أنه إذا لم يغتنم هذه الفرصة فإن هذه الثروة العلمية سوف تفلت من يديه، واستعد للعمل، أحضرت له أخته ما يحتاج إليه من ورق وقلم ومداد، وكانت تملأ عليه وهو يكتب في فناء الدار، حتى إذا وصلتها الشمس تحول إلى الظل، ولم يمس عليها وقت طويل حتى أتت نسخها، ورجع صاحب الوديعة "بشر بن غانم" يطلب وديعته فأرجعها إليه عمروس، ولكن بشراً كان يتوقع هذا العمل من عمروس، ولذلك فما تصفحها حتى ظهرت له آثار النقل، في قطرات المداد، واستعمال الصحائف،

فقال لعمروس وهو يبتسم: لقد سرقتها، وأجاب القاض يوهو جذلان: سمى سارق العلم.

أخذ العالم الكبير بشر بن غانم الخراساني مدونته وارتحل إلى المغرب، وقصد عاصمة الإمامة في "نيهرت"؛ وزين مكتبتها "المعصومة" الشهيرة بكتاب قيم جديد، هو مدونة أبي غانم، وكانت "المعصومة" من أعظم المكتبات الإسلامية، حوت أقيم الكتب وأندرهما.

وعندما استولى الجاني مولى عبيد الله الشيعي على تاهرت، أحرق المعصومة بما فيها من نوادر الكتب ونفائسها، واحترقت مدونة أبي غانم فيما احترق، ولو لا حرص عمروس وخدمته للعلم وجده في تحصيله، لخسر العالم الإسلامي كنزاً نفيساً من كنوز الشريعة الإسلامية، كما خسر من قبل ديوان جابر حين احترقت مكتبة بغداد.

كان عمروس من أكبر أئمة العلم والدين، وله أقوال انفرد بها، وحسب من أجلها إماماً، ألف في علم الكلام وفي الفقه، ولا يخلو موضوع في علوم الشريعة من آرائه وأقواله، وقد وضع تصميمًا لتأليف موسوعة علمية على طريقة حديثة في ذلك الحين، فبين فيها الأحكام التي استخرجت من الإجماع، والأحكام التي استخرجت من القياس، ولكن المنية أعجلته عن إنجاز هذا العمل العظيم.

بعث إليه العلامة عبد الخالق الفراني أن يؤلف له كتاباً في الأصول، فبعث إليه كتابه المعروف بالعمروسى، ودرسه العالم

الكبير. وكان قليل النظراء. فاعترف في صراحة المؤمن وصدقته بأن صاحب هذا الكتاب أغزر مادة منه فقال : " النفوسي أقوى مني " 37 وكانت للفرزاني كتب قيمة في هذا الفن. ولكن الاعتراف بالحق. والابتعاد عن الغرور. كانت من الصفات التي يتحلى بها أولئك السلف الصالحون.

حج في جماعة من أهل الجبل. وحضر مجلساً للإمام الكبير محمد بن محبوب رحمه الله، وهو عمدة المذهب وإمامه حينئذ. فوجه إليه عمروس سؤالاً. فقال الإمام : إذا كان أبو حفص في شيء من هذا البلد فهذا السؤال منه. ثم أجاب عن السؤال. وتعارف العالمان الكبيران. ووقف عمروس موقف الطالب النجيب من المدرس البار. فكان يسأل وكان الإمام يجيب. حتى قال له الإمام : هذا من مكنون العلم. ولا يصح النقاش فيه بحضور العوام.

وكان إلى علمه وذكائه وسرعة بديهته لا يخشى أحداً في الحق. سألته رجل بمحضر أبي مهاصر : عمن أخذ من مال ابن طولون خرجاً فتأب ولم يعلم له صاحباً. فأجاب القاضي العالم : تسأل عن صاحبه. فإن أعياك أمره فتصدق به. فغضب أبو مهاصر وقال : لا أقعد في مجلس يفتى فيه بمثل هذا.

قال عمروس : إن شئت أن تقعد فاقعد. فإن من شأن المسلمين أن لا يؤيسوا أحداً من رحمة الله ...

لقد كان أبو مهاصر شديداً. وهو يرى أنه يلزم صاحب الخرج أن يبعث عن صاحبه أو ورثته مهما كلفه الأمر. ولن يبرئه من

التباعة غير ذلك.

أما عمروس فقد كان أعمق فهما لأسرار الشريعة وروح الإسلام. والعمل بمقتضاه. وقد أصبح قول عمروس هو القول المعمول به في الأحوال المشابهة.

دعاه أبو منصور إلياس. وعرض عليه القضاء.

ومَن غير عمروس يمكن أن يلي القضاء لأبي منصور. إنهما نسخة مكررة من طبعة واحدة : في الإيمان. والنزاهة. وقوة الإرادة. والشجاعة. وليس بينهما فرق في غير غزارة العلم. هذه الغزارة التي يتحلى بها عمروس : العالم الذكي الذي انقطع للدراسة منذ صغره. بينما رجع إليها أبو منصور بعد أن صلب عوده واشتد ساعده. ونضجت رجولته. فقال عمروس : " إن لم تأذن لي في قتل مانع الحق. والطاعن في الدين. والدال على عورات المسلمين فخذ عني قمطرك وخاتمك " واستجاب الوالي لشروط العالم. وتولي عمروس القضاء. وسار فيه سيرة المؤمنين الأئمة. الذين يحافظون على حقوق الناس. ويخشون الله في عبادته ويتقون. وكان شديداً على الظالم. قوياً عليه حتى يأخذ الحق منه.

اختصم إليه رجلان في مجلس الحكم بمحضر أبي منصور وجمع كبير من المشائخ. فأدلى المدعي بالحجة. فاسترده المدعي عليه الجواب فسكت. وأعاد فسكت. ثم أعاد فبقي المدعي ساكناً ولم يقل شيئاً. فاستبان للقاضي لد الرجل في الخصومة. فقام إليه فركله برجله. فقال الجلوس للقاضي : عجلت على الرجل.

فالتفت القاضي الذكي إليهم. وجمع أصابع يده وقال لهم

: كم هذه ؟ فأجابوه : تلك خمسة !.. وتبسم القاضي وقال لهم : لقد عجلتم، لماذا لم تبدأوا العدا من الواحد ؟ ... إن الحق إذا استبان، واتضحت براهينه لا يحتاج إلى الاطالة وتضييع الوقت وتعطيل الحقوق.

جاء قوم إلى أبي منصور يذكرون له : أن قطاع طرق غالبوهم على غير لهم ولما ذهب الوالي إلى محل العير، وجد كل فريق من القوم يدعى أن العير له، وأن الفرقة الثانية هم قاطعوا الطريق، فحار وبعث إلى القاضي.

جاء عمروس، فأبعد الطائفتين عن العير، ثم فتش أمتعهما حتى عرف أسرارها ودخائلها، وعندئذ انفرد بكل من الفرقتين يسألهم عما في متاعهم، حتى استبان الفرقة التي تعرف كل شيء في العير، والفرقة التي لا تعرف إلا الظاهر فقط، وجاء بهم إلى الوالي وقال له - وهو يشير إلى أصحاب العير : هؤلاء أصحاب الرفقة، ثم أشار إلى الغاصبين وقال لأبي منصور : وهؤلاء أضيافك، يكنى بذلك عما يجب من حبسهم، والتنكيل بهم.

قلت في صدر هذا الحديث : إن عمروسا كان شجاعاً بطلاً في ميدان الحرب كما كان عادلاً في ميدان القضاء، وذكياً في حل المشاكل، وقوياً في إثبات الحق ...

حضر وقعة " مانو " بين نفوسة والأغالبة : تلك الوقعة الكبرى بين الإباضية في ليبيا، والأغالبة الزاحفين من القيروان. وكان لعمروس فرس في مثل قوته وإقدامه، فكان يحلق على العدو كما يحلق العقاب، وعندما يلحظ ضغطاً على جانب من

جوانب جيشه، يطير إليه، فيفرج عنه الكرب، ويشنت الجموع، وحار العدو في هذا البطل الذي ينزل بهم ضربات القاتلات في جميع جهات الميدان، فقال قائلهم : إنكم لن تخرزوا نصراً إلا إذا هوى هذا الشهاب، فاعمدوا إلى الحيلة - والحرب خدعة - فتبّتوا حبالا في مكان، ما ووجهوا ثقلهم إلى تلك الناحية، ورأي البطل الكبير ما يقع في ذلك الجانب لأبطال جيشه المغاوير، فآجّه إليهم ليخفف عنه الضغط، ولكن الحبال اختلفت بين أرجل الجواد، فتعثّر وسقط الفرس والفارس، وتسارعت عشرات الأيدي والسيوف إليه فأخذ أسيراً، وجئ به إلى أمير القوم : إلى إبراهيم بن الأغلب، إلى الرجل المسعور، الذي لم يرتكب فظائعه قائد حرب في تاريخ البشرية الطويل - فيما أعلم - وأراد القائد المجنون أن يشمت بالبطل المؤمن، فقال له : سلنى العفو فأعف عنك، فأجاب البطل : إن الأعمار بيد الله، وتلك كلمة لن تسمعها منى أبداً !.. فقال إبراهيم : إذن فارجع عما أنت عليه لتتركك، فقال : تلك كلمة لا أقولها حتى ألحق بالله ! ...

وكانوا يوجهون إليه هذه الطلبات وهم يوالون تعذيبه، أملا منهم أن يجدوا منه ضعفاً ولو في آخر اللحظات ... فكانوا يقرضون يديه بمقاريض من الحديد، شيئاً فشيئاً، ويقدمون إليه عروضهم، وكان ثابتاً في إيمانه، ثابتاً في عقيدته، ثابتاً في مبدئه، ثابتاً في شجاعته وبطولته، حتى بلغوا بقطعهم ليديه إلى المرفقين، ففاضت روحه، رحمه الله !!! وسجل التاريخ على إبراهيم المجنون صفحة أخرى سوداء، مع الصفحات السوداء الكثيرة، التي تركها في حياته.

حالة سياسية

كان أغلب المملكة الليبية تابعاً للدولة الرستمية في تاهرت ما عدا المدينة، حسب معاهدة عبد الوهاب وعبدالله بن إبراهيم بن الأغلب، وبعد وقعة مانو بقليل، تغلب أبو عبدالله الشيعي على تاهرت وخربها، وأحرق مكتبتها، فانقرضت الدولة الرستمية، وانقطعت الصلة السياسية بين ليبيا والجزائر، فأصبح مركز الإباضية في ليبيا جبل نفوسة، وبسقوط تاهرت صار هذا الجبل وما يتبعه مستقلاً عن جميع الدول الأخرى؛ إنه لم يخضع لابن طولون، ولم يخضع للأغالبة، كما لم يخضع قط للدولة الفاطمية أو لغيرها من الدول التي تعاقبت على الحكم في المغرب الإسلامي إلى الاحتلال التركي.

ولكنه مع هذا الاستقلال لم يعلن ميلاد دولة جديدة، ولم يبايع إماماً وإنما كان يختار من رجاله الأكفاء حاكماً يتولي شؤون الأمة؛ فيحل المشاكل، ويوصل الحقوق، ويدافع العدو، ويوجه الأمة بإستشارة العلماء، وبالجملة يقوم بجميع ما يقوم به الإمام دون أن يتسمى بذلك.

وفي الصفحات المقبلة سوف أحدثك أيها القارئ الكريم عن عدد من هؤلاء الحكام الذين تولوا أمر الأمة في الجبل، فساروا بها في الطريق القويم؛ الذي سار عليه السلف الصالح من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وأنا حين حدثتك عن ولي الحكم في ليبيا ابتداء من عدوان العباسيين على الإباضية دون حدث، وقتلهم للعلامة عبدالله بن مسعود التجيبي إلى انقراض الدولة الرستمية، أو حين أحدثك عن ولي الحكم في جبل نفوسة إلى الاحتلال التركي، لا أتبع سلسلة التاريخ، ولا أتقصي الأشخاص، ولم يكن عرضي شاملاً لجميع أولئك المؤمنين الذين ألقيت على كواهلهم أعباء الأمانة العظيمة، أمانة القيام بأمر المسلمين، ولكنني أحدثك عن بعضهم كأمانة لما سار عليه الجميع.

وللقارئ الكريم أن يرجع إلى التاريخ المبسط المنصف، وسوف يجد أمثال ما أعرضه عليه من الصفحات المشرقات في أولئك الذين تولوا أمر الحكم، سواء كان ذلك في مناطق فزان المختلفة، أو في سرت، أو في زواغة، أو في فنطرار " تيجي " أو جبل نفوسة، إنه لن يجد في حكم هؤلاء وفي سيرتهم وفي أخلاقهم وفي دينهم إلا ما يرضي الله، ويرضي رسوله، ويرضي صالحى المؤمنين، ويشرف الإنسانية المعتزة بالحق والعدل، اللهم إلا إذا لم يفرق بين الإباضية والنكار، أو بين الإباضية والصفيرية، أو بين الإباضية والشيعية، أو بين الإباضية وغيرهم من الفرق، فينسب إليهم ما ارتكبه أولئك من الفظائع، أو ينسب إليهم ما يرتكبه أعداء الأمة من أعوان السلاطين الظلمة، الذين لم يحترموا حكماً من أحكام الله.

أبو محمد عبدالله بن الخير

نشأ في قرية صغيرة من قرى الرحيبات تسمى " تيو نُزيرف " والحرف (تي) في اللغة البيرية معناه : آل، أو أهل. وقد يستعملون [أت] بدلا من (تي).

تقع " ونُزُفُ " هذه على قمة جبل شامخ، وتطل على وادٍ سحيق العمق، يفصل بينها وبين " تميجار " (أولاد بوجديد) اليوم، وهى مركز الرحيبات في هذا العصر، وتبعد عنها نحو أربعة أميال.

في هذه القرية الصغيرة الجميلة، وعلى ضفة هذا الوادي العميق الأخضر، وفوق تلك القمة الشاهقة، نشأ أبو محمد عبدالله بن الخير. واستقبل أول ما استقبل من حياة العمل : مدرسة القرية : فحفظ كتاب الله، وتأدب بأداب المسلمين، ودرس مبادئ الدين الحنيف على مشائخ القرية الفضلاء، فلما وجد أنهم لا يُشبعون نهمه، انتقل إلى مدرسة نذير زمانه العلامة أبان بن وسيم، ومن تلك المدرسة العامرة تخرج، فكان موسوعة علمية متحركة حتى ضرب به المثل فقيل : من ضيع كتاباً كمن ضيع خمسة عشر عالماً مثل عبدالله ابن الخير ...

وهذا المثل كاف في الدلالة على مال الرجل من شهرة في العلم.

رجع من بقي من الإباضية بعد وقعة مانو، وقد قتل فيها أكثر العلماء، وبعد زمن يسير من هذه الوقعة تغلب الشيعة على الدولة الرستمية في الجزائر، وخبروا تاهرت، وأحرقوا المعصومة، وبذلك أصبح جبل نفوسة وما يتبعه شرقاً وغرباً مستقلاً عن الدولة المجاورة، غير مرتبط بواحدة منها، كما أن الإباضية في ليبيا لم يشاءوا أن يبايعوا أحداً بالإمامة، أو يدعوا إلى إقامة دولة، ولكنهم كانوا يكتفون بحكم خاص بهم.

يجتمع أهل الرأي والمشورة، فيختارون أكفاهم : يسندون إليه أمورهم، ويضعون بين يديه شؤونهم، فيتولي القضاء بين متنازعيهم، والفصل في مشاكلهم، ومدافعة العدو بهم، وكل ذلك لا يتم إلا باستشارتهم، فإن سار على النهج وأعجبهم منه السلوك ساعدوه، وإلا عزلوه واختاروا لكانه غيره، وفي أكثر الأحيان يتم هذا الاختيار بين مستشاري جبل نفوسة كلهم، وتكون صلاحيات الحاكم الذي يختارونه جارية على جميع الإباضية في الجبل وتوابعه، ولكن قد يقتصر حكم أحدهم على ناحية من نواحي الجبل، بينما يتولي غيره رعاية شؤون الأمة من الناحية الباقية : وحينئذ تكون العلاقة بينهم علاقة تعاون ومشاركة في السراء والضراء، وليس توزيع الحكم بينهم إلا تقسيماً للعمل، كي يتيسر القيام به على أهون سبيل، أما الأمة فهي لا تزال أمة واحدة، مرتبطة بالمصالح، لا تفرقة ولا خلاف، وعندما ينقضي هذا الوضع، تعود الأمة إلى ما كانت

عليه من وحدة السياسة والهدف والحكم.

لست أعني بذكر الحالة السابقة، أن نزاعاً على الحكم، أو اختلافاً في الرأي، أو تفرقة بين أبناء الأمة قد جرى في زمن من الأزمنة، التي تقع بين سقوط الدولة الرستمية ودخول تركيا إلى ليبيا، إن شيئاً من ذلك لم يكن في حظي، ولا في المصادر التي بين يدي من كتب التاريخ، ولا استثنى من ذلك إلا الخلافات الفردية العادية، التي تقع عند كل أسرة.

ذهب أبو محمد عبدالله بن الخير فيمن ذهب إلى مانو، وكان من الأفراد القلائل الذين قدرت لهم الحياة بعد هذه الواقعة، فرجع سالماً إلى قريته الصغيرة، وهو يتحسر ألماً على الخسارة التي منى بها الجبل. وعندما توفي أفلح بن عباس هرع بقية المشائخ إليه، يعرضون عليه طلبهم، ولم يشفع له كبر سنه، فإن الحاجة إليه شديدة، إذ لم يبق من الأعلام الكبار بعد تلك الواقعة غيره، وغير أبي القاسم البغطوري، وكان أكبر منه سناً، وأوهن عظماً، فاسندوا إليه الحكم عليهم، والقضاء بينهم، فسار بهم سيرة أولئك الأعلام الذين عرفت تقواهم لربهم، ولزومهم لهدي محمد صلى الله عليه وسلم، وتمسكهم بدين الله القويم، ورأيت نماذج من حكمهم: مساواة في الحق، وعدالة في الحكم، وسهر على مصلحة الأمة، ينبعث كل ذلك عن فهم عميق لأسرار الشريعة، وإيمان خالص بدين الله، ومحبة صافية للمؤمنين ...

كان الإباضية في جبل نفوسة من أحرص الناس على اتباع السنة، والعمل بها، فكانوا لا يولون أمر الصلاة بهم إلا من

تجتمع فيه شروط الصلاح الكاملة، ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وكان أبو عبدالله من اجتمعت فيه هذه الشروط: فهو أعلم القوم، وأحفظهم لكتاب الله، وأشدّهم استمساكاً بدين الله، وأكبرهم سناً؛ ولذلك فقد كان يتولي أمر الصلاة بالناس، وغلب عليه الكبر، وأثقل طول الزمان سمعه، فكان يجهر بصوته في القراءة السرية حتى يسمعه من خلفه فقال له يحيى بن يونس السدراتي يوماً: ماتسعننا الصلاة خلفك وأنت تجهر بالقراءة حتى نسمعك، فقال الإمام العالم: لم أكلف سماعك يا بنيونس؟.. وكان هذا الجواب كافياً أن يعرف ابن يونس وغيره أن تكليف الله لعباده إنما يتعلق بما عندهم من قوى، لا بما عند غيرهم، إنه عندما يقرأ في صلاة السر لا يراعي إلا أذنيه، فإذا كان صوته عالياً بحيث يسمعه من خلفه - لأن في أذنيه ثقلاً - فلا يعني أنه قرأ جهراً في موضع السر، لأنه مكلف أن يسمع أذنيه في قراءة السر.

جلس للتدريس والتقوى بعد وقعة مانو، وبذل من الجهد في نشر العلم ما يعجز عنه من كانوا في عنفوان الشباب، ولم يحل دون قيامه برسالة التعليم المقدسة لا كبر السن، ولا ضعف البدن، ولا الإنشغال بمهام الحكم، ولقد استطاع بما بذل من جهد أن يعيد في مدة ليست بطويلة ما خسرت الأمة في معركة مانو الطاحنة، ولم يسانده في هذا العمل إلا أبو القاسم البغطوري، الذي بذل من الجهد العلمي أكبر مما بذل أبو محمد عبدالله، لأن أبا القاسم لم يشغل بالحكم، وكان حكمة الله أرادت أن يكون هذان الرجلان هما دعامة النهضة، فأتاحت لهما من العمر الطويل ما لم يتح لغيرهما، فقد عاش أبو

محمد مائة وعشرين سنة. أمضى أولها في الكفاح من أجل التعلم. والاعتراف من مناهل الثقافة الواسعة. وأمضى آخرها في كفاح الجهل والظلم والباطل. حتى قبضه الله إليه. فرحمه الله رحمة واسعة.

أبو يحيى زكريا الأرجاني

"أرجان" اليوم، أطلال قرية قريبة من "مَزُو" تقع إلى الشرق منها على نحو ميل. وهى فوق ربوة عالية تشرف على مايجاورها من الأرض. وعلى قمة تلك الربوة يجثم اليوم في وفار وخشوع مسجد فسح. ينسب إلى أبي زكريا، الأرجاني ولد أبي يحيى. ولا يزال هذا المسجد إلى اليوم مقصد المسلمين عند صلوات الاستسقاء والاستغاث.

وفي هذه القرية التى تقتعد قمة ربوة عالية كالحصن المنيع، يحيط بها آلاف من شجر الزيتون كما يحيط الإطار الجميل بالصورة الرائعة، في هذه القرية المفتحة للحسن نشأ أبو يحيى زكريا الأرجاني. وفيها درج. وبين رياضها الغناء وقممها الشامخة الشماء. وضة وأديها العميق سرح. وفي شلال ماصر وبحيرة الزرقاء عبث وسبح. في هذه المناظر الجميلة الساحرة تكونت المواهب الأولى للطفل. ثم انطلق إلى معاهد العلم ينهل منها بذهن متفتح. ويغترف من المنابع الغزيرة التى كانت متوفرة في ذلك الحين. فبلغ في المعرفة أسمى الدرجات. وخلق بما يتحلى به أولئك المؤمنون من الخلق الرفيع. وسار سيرتهم العطرة. التى لا

توجد إلا عند الصفوة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وعكف بعد ذلك على دراسة كتاب الله وسنة رسوله، وتفهم أسرار الشريعة، حتى كان في ذلك مرجعاً، وعرف فيه المسلمون هذه الصفات النادرة، من العلم، والعمل، والخلق، فأولوه ثقتهم، وولوه أمرهم، وبايعوه إمام دفاع، على أن يتولي شؤونهم حتى في حالة السلم؛ فيفصل مشاكلهم، ويحكم بين متنازعيهم، وبأخذ الحقوق من أغنيائهم ليضعها في فقرائهم، إلى آخر ما هنالك من شؤون أمة يوجه سياستها الداخلية مؤمن أمين ...

وقد قبل ما عرضوه عليه، وتحمل هذه الأعباء الثقالة بما عرف فيه وفي أسلافه، من أمانة ودين وحرص على مصلحة الأمة ...

عندما تشاور المسلمون في أمر الحكم، وعرضوه عليه، واتفقوا على إسناده إليه، لم يتهرب من المسؤولية، وقبلها مستعينا بالله على القيام بواجباته، كانت أمه وأخته وهما من العائلات الصالحات خائفتين عليه من هذا العبء الثقيل، وعندما كانت النساء مقبلات عليهما للتهنئة بهذا المنصب الرفيع، وبهذه الثقة، وهذا الاختيار، كانت الأم والأخت تنتحبان، وتذرفان الدموع، وتجيبن المهنئات: أنهن قدموه إلى النار: أنهن وضعوا على كاهله أعباء ثقالة ينوء بها: أنهن اختاروه ليفصل مشاكلهم ويفرز بين حقوقهم، فيبوء الناس بالمشاكل المفصولة، والحقوق المتاحة، ويؤوب بالحساب العسير، والغرم الكبير.

وانتصب الحاكم المدافع للقيام بهذه المهمة الثقيلة رغم معارضة أمة الرعوم، وأخته الحنون، ولم يتردد في التضحية

بنفسه عندما احتاجته أمته، فكان مثلاً للمؤمن الذي يرى الأمانة ويتبع الحق، ويفصل المشاكل، ويستमित في الدفاع، وهو في كل ذلك معرض عن متاع الحياة وزخرف الدنيا.

ولد له ولد، فجاءه الناس للتهنئة، وقدم فيمن قدم جماعة من اليهود، جمعوا له أربعين ديناراً للمولود الجديد، فقال لهم: لو كنت أقدر على صيانتكم لأخذتها منكم جزية، ولكنني لا أقدر على صيانتكم، فخذوا أموالكم 42. وعبثاً حاولوا أن يقدموها إليه هدية، إنه لا يقبل الهدايا وهو في منصب الحاكم أو الأمير، ولعله كان يذكر في ذلك الحين حديث رسول صلى الله عليه وسلم: (أما بعد: فإني استعمل رجالاً منكم على أمور ما ولاني الله، فيناجي أحدهم فيقول: هذا لكم، وهذه هدية أهديت إلي، فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهم إليه أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأخذ منه شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبتيه، إن كان بغيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر). ثم أطعم هؤلاء اليهود عنباً، وانصرفوا وهم يعجبون، كانوا يتحدثون وهم يقولون: عجبا: "ما رأينا مثل هذه البلاد، لا يطمع سلطانها في أموال الناس". وحق لهم أن يعجبوا، فهم يعرفون ما يرتكبه أصحاب السلطان من الجرائم للحصول على المال من أي طريق، فكيف يمتنع هذا عن قبول هدية طابت بها النفس، واستراح لها الضمير ...

كان بين بني زمر 43 وطرميسه سوء تفاهم وعناد، يؤدي في كثير من الأحيان إلى المشاغبة والنزاع عندما يتلاقون في أسواق جادو - ومركز الحكم، ومدينة جبل نفوسة في ذلك الحين - فخص

كل واحد من الفريقين بسوق واحدة في الأسبوع. لا يجوز للفريق الآخر حضورها. حتى لا يقع هذا الشغب الذي طال مداه. وكان ذلك كافياً ليسود الهدوء بينهم.

بين جادو مركز الحكم وأرجان بلد أبي يحيى مسافة تبلغ ميلين أو تزيد. وكان أبو يحيى يقدم كل صباح إلى مجلس الحكم. وكان أول عمل يقوم به: أن يتجه بهذا الدعاء إلى ربه في إيمان وإخلاص: "اللهم اعط الحق الذي لذي الحق. ياذا الحق. ولا حجة محتج إذا احتج بلا حق".

وبعد هذا الدعاء الحار يستقبل الناس بوجهه. ويستعرض مشاكلهم حتى يفرغ منها. وقد أنهكه التعب. تعب البدن وتعب الفكر. فيرجع إلى قريته الجميلة على قمة الربوة. وقد يستريح في الطريق عدداً من المرات قبل أن يبلغ إليها. لما ناله في مجلسه ذلك من النصب والعناء...

قلت في صدر هذا الحديث: أن الأمة بايعت أبا يحيى إمام دفاع. فقام بمهمته هذه خير قيام. وكم حاول أبو عبيد الله الشيعي أن يحتل الجبل. فيقف له هذا البطل بالمرصاد. ويرده محطماً الآمال. خائب المسعى...

أغار جيوش أبي عبيد الله الشيعي بقوة عظيمة على الجزيرة - وهي قرية حصينة على قمة جبل شامخ في جهة الحراية - فتصدى له الإمام أبو يحيى. والحق به شر هزيمة. وسولت للشيعي نفسه أن يعيد الإغارة على قرية بعيدة من مركز الحكم. لعله يستطيع الحصول على شيء قبل أن يتمكن حاكم

الجبل برد العدوان. فهاجم على "تيركت" وهي قرية أخرى تقع في الحوامد. بين "لالوت وكباو" فتصدى له إمام الدفاع القوي. وألحق به هزيمة أخرى شراً من الأولى. وهكذا استطاع أن يحمي حوزته. كما يحمي الأسد عرينه. رغم كثرة المعتدين ومحاولات المستغلين: الذين غرتهم الدنيا. وسولت لهم أنفسهم. لقد كان رحمه الله صورة رائعة للمؤمن القوي. الحريص على إيمانه. الوثيق الصلة بربه. المحب لأتمته.

استشهد في "تيركت" بعد أن هزم الشيعة وطردهم شر طردة - بطعنة عادرة. امتنع رحمه الله أن يسمى صاحبها. وفوض أمره إلى الله..

واجتمع رأي المسلمين بعده على تولية أبي عبد الله بن أبي عمرو. حفيد أبي منصور: فقام بالأمر مدة يسيرة. لكن أهل الشورى اتفقوا على عزله. وولوا مكانه أبا زكريا بن أبي يحيى الأرجاني. لإعتقادهم أنه أكفأ من أبي عبد الله. وأقدر على مجابهة الأحداث. ولم تطل به المدة. فقد هجمت جيوش العباسيين على الجبل. فتصدى لهم أبو زكريا. ووقعت مقتلة كبرى بين الفريقين. ورجع "المسودة" جيوش بني العباس دون أن ينالوا من الجبل منالاً. وعندما كان أبو زكريا راجعاً. أصابته طعنة غادرة. كالتى أصابت أباه. واجتمع إليه المشائخ يسألونه عن رأيه فيمن يتولي أمورهم. فأجابهم وهو يعالج سكرات الموت. ويستعد للقاء ربه: أرى لكم زيد بن أفضيت الدرفي.

وهكذا لم يألهم نصحاً حتى في آخر لحظات الحياة. إنه موقف

شبهه بموقف الفاروق رضى الله عنه ... وموافق المؤمنين تتشابه في الإخلاص والنصيحة للمسلمين ...

إنني اختصرت الحديث عن هذين البطلين، ولم يكونا أقل علما ودينا وجدارة وخلقا من أولئك الذين تحدثت عنهم بشئ من الإسهاب والتفصيل، لأن هذا الكتاب ليس كتاب تاريخ يتقصى الأخبار والأحداث، وإنما هو مجموع صور لحياة أمة متمثلة في أعمال يقوم بها أفراد أو جماعات، وكثيرا ما اكتفى بصورة ما عن مجموع من الصور القريبة منها، أو المشابهة لها، ولو أردت الاستقصاء لما كفاني الزمان والجهد الذي قدرته لإخراج هذا العمل الضئيل، وهذه الصورة الباهتة، التي فارقتها حياتها وجمالها عندما تناولتها بريشتي الهزيلة، وأسلوبى الضعيف.

الأعلام الثلاثة

أبو يحيى سليمان بن ماطوس الشُرُوسي. وأبو هارون موسى بن يونس الجاللي. وأبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي: ثلاثة أعلام يتسابقون إلى المكارم فلا يتفاضلون، ويتنافسون على بناء الأجيال لإعداد الرجال فلا يتأخر أحدهم عن أخويه. ترنو الأبصار إلى الواحد منهم فلا تنحدر عنه، حاسبة أنه الغاية إلى لا مرمى بعدها لكمال الشخصية وصفات البطولة، فإذا علق بزميله، رأت منه ما ينسبها مظاهر العبقرية الأولى ...

جدوا وراء الدراسة حتى بلغوا الشأو الذي تقصر دونه مدارك الكثير، ولا يبلغه إلا النزر اليسير، من وهبتهم عناية الله مواهب تكاد تكون خارقة للعادة، ثم ركنوا للعمل.. العمل بما علموا ... فبلغوا أيضاً الغاية التي لا يبلغها إلا النادر القليل من الأبطال الصابرين. الذين يهبون ما يملكون من قوى مادية ومعنوية لأهمهم.

` ابن ماطوس 44 وثق المشايخ بأبي يحيى بن ماطوس، فاسندوا إليه حكم الجبل، وقبل العالم الكبير هذه المهمة، كما قبلها أسلافه من قبل، فكان من خير من أسند إليه حكم، فتولاه عن دراية وعلم، وطبَّقه بحذق وفهم، وحل المشاكل المتشابكة

بحق وعدل، ولم يشغل ابن ماطوس بهذا العبء الثقيل عن الرسالة التي خلق من أجلها، رسالة التعليم، فكانت مدرسة ابن ماطوس من أعظم المدارس التي نشرت العلم في جميع الربوع، وورد إليها الطلاب من كل مكان. لم يكن ابن ماطوس مجرد مدرس يلقي النظريات العلمية ويشرحها للطلاب حتى تصل إلى أذهانهم، وإنما كان مع ذلك مربيا يحسن التربية، وقدوة صالحة للأقتداء، فكانت دروسه مشبعة بروح الإسلام، وكان خلقه الكريم بين الطلاب داعيا لتهديب النفس، وكانت سيرته القوية مضرب الأمثال، وإلى هذه الشخصية القوية في أخلاقها ودينها وكفاحها، كانت غزارة العلم من أعظم الأسباب في تكوين هذه الشخصية، فلم يخل كتاب من كتب الإباضية عن أقوال ابن ماطوس، ولم يبق بلد من بلدانهم لم تدخله فتوى ابن ماطوس، قال أبو يحيى الفرسطائي: اجتمعت ببعض العلماء بناحية "زويله" فقال: إن فتوى ابن ماطوس كلها حسنة، إلا أنه يرى أن لا الشفعة لتييم، ولا لغائب، قال أبو يحيى: فلما قدمت أتيت ابن ماطوس فأخبرته، فقال: قل له: ذلك تعطيل الحقوق.

إن هذه القضية البسيطة توضح انتشار فتوى هذا العالم العظيم، ومبلغ تقدير رجال العلم له، كان الطلاب يلتحقون بالمدارس المنتشرة في المغرب الإسلامي، ثم يعودون فيصححون ما درسوه على هذا العالم العظيم.

درس الطالبان النجيبان: أبو صالح وأبو موسى في بعض المدارس بالجنوب التونسي، ولما أتما دراستهما قررا الرجوع إلى جبل نفوسة، ليعرضا ما درساه على ابن ماطوس، فالتقيا بالعلامة

بكر بن أبي بكر الفرساطائي، وكان في دور التعليم حينئذ، فرافقهم، وفي طريقهم وجهت إليهم عدة أسئلة، وكان جواب بكر الخلاف ما درس الشيخان.

وعندما وصلا إلى العالم الكبير ابن ماطوس ذكرا له قصتهما، والخلاف بين فتاوهما وفتوى ابن أبي بكر، فقال الشيخ لهما: الفرسطائي عالم...

أنها شهادة من يحق له أن يعطي الإجازات الدراسية، فيفخر بها الطلاب وموضوع الأسئلة موضوع فقهي، وجواب الشيخين هو الجواب الآلي الذي جده عند المختصرات الفقهية، أما جواب ابن أبي بكر فهو جواب العالم الذكي الذي يتغلغل بفهمه العميق إلى أسرار الشريعة، ويغوص إلى الحقائق التي يكتشفها العقل المستنير في أحكام الإسلام، ويكفي أن أذكر لك إحدى هذه المسائل التي عرضت لأولئك الطلاب، لتعرف مقدار الفرق بين المتشبه بظواهر النصوص لعلماء الفقه، والمتفهم لسر الحكم الشرعي، سألهم سائل فقال: رجل تيمم لعذر شرعي ويده نجسة، فما الحكم في اليد والتراب المستعمل للتيمم؟ أجاب الشيخان أن اليد طاهرة والتراب نجس، ولكن ابن أبي بكر قال: إن اليد والتراب طاهران، فقل له: أين ذهب النجس؟ ! فقال: ذهب بين الضربات! ولك أيها القارئ الكريم أن تتأمل هذه المسألة على أحكام الشريعة السمحة، التي وضعت التيمم في مقام الوضوء أو الأغتسال، لترفع الحدث، حتى لا تكلف المسلم شططاً، وتحمله ما لا يستطيع، لك أن تتأمل ذلك ثم تقف في صف من شئت من هؤلاء الطلاب، أما أنا فقد اخترت موقعي

ووقفت إلى جانب ابن أبي بكر. ما لم تكن النجاسة التي في اليد ذات عين باقية الأثر في التراب الذي استعمل في التيمم ...

كان رجل من أهل بلده غائباً. ورجع في ليلة من الليالي لعمل ضروري سريع. وأخبر زوجته أنه سيعود إلى عمله في الصباح الباكر. وفكرت الزوجة الصالحة فيما يترتب على هذا الجيء المفاجيء الذي حضر فيه الزوج. صاحب الحقوق المعينة. دون أن يراه أحد أو يسمع به : فكرت وهي تنظر إلى المستقبل القريب ... فصنعت طعاماً لزوجها. ثم بعثت إلى ابن ماطوس تدعوه أن يرافق زوجها في العشاء. وحضر العالم الحاكم. وأكل الطعام مع الزوج الذي غادر البلد مع غبش الفجر. وقدر لها أن تحمل من تلك الليلة. وأن يقع ما توقعته وتحدث الناس أن فلانة حامل. مع علمهم بأن زوجها غائب. وبلغتها حالة السوء فألقتها. فإذا جنها الليل. ورأى الناس إلى مضاجعهم. تستقبل هي عالم الأسرار والخفايا ثم تقول: باملائكة السحر ذكروا ابن ماطوس. وبلغ مسامع الشيخ ما يتهمس به الناس عن المرأة الفاضلة الذكية الخازمة. فأمر بضرب الطبل. وعندما اجتمع الناس أخبرهم بما عرف. حتى لا يقذفوا امرأة مؤمنة غافلة بما حرصت أشد الحرص أن تبعد عن نفسها.

ولعله يكفي أن نختم حديثنا عنه بهذه الشهادة القيمة من عالم لا يلقي الكلام جزافاً قال البغطوري: "إن ابن ماطوس قادة بعد أبي القاسم وبورك في علمه. فبلغت فتواه شرقاً ومغرباً. وهو أحد فروع مانو " راجع سير الشماخي 45 ص 276.

أبو هارون موسى بن يونس الجليلي: -

درس على أبي القاسم البقظوري أحد الشيخين اللذين بقيا بعد معركة مانو. وبرع أبو هارون في الأصول والمنطق والرياضيات: أما علم الفقه فقد كان يسميه هو وزملاؤه من الطلبة الأذكياء " علم العجائز".

اهتم هذا العلامة الكبير بمثل ما اهتم به صديقه ابن ماطوس. من نشر العلم. ورث الخلق الحميد. وبث روح الإسلام الصافية في نفوس الطلاب والمجتمع. وأسس مدرسته العظيمة التي تعتبر مثالية في ذلك الحين. ونذر من لم يستفد من الأثر الكبير في حياة الأمة. مع شدة إقبال الناس على هذه المدرسة. كان ابن ماطوس يرى أن الناس مقصرون في الاغتراف من هذا المنهل العذب. فكان يقول: " لو علم الناس ما ينفعهم لآزحموا عند باب داره كما يزدحمون عند باب دار أبي عبيدة في البصرة " جمع أبوهرون بين غزارة العلم. ووفرة المال. فقد كان دائم الكفاح ..! الكفاح المتواصل الذي لا يعرف الراحة أو الاستجمام. فلن تجد أبا هارون متى جئته إلا في إحدى حالتين: نشر العلم. وبث المعرفة. وثقيف العقول. أو جمع المال من طريقه المباحة التي يعرفها حق المعرفة. وفي رأس السنة المالية لميزانيته يقسم موارده إلى ثلاثة أقسام:

يخصص القسم الأول للنفقة على نفسه وعائلته ومن تلزمه مصاريفه. ويخصص القسم الثاني للضيوف وأبناء السبيل. والحقوق التي تجب عليه أو على بلده من هذه الناحية.

ويخصص القسم الثالث للإنفاق على الأقسام الداخلية في مدرسته العامرة، التي يؤمها عدد غير قليل من الطلاب البعداء، فتتكفل المدرسة بإيوائهم والإنفاق عليهم. وكان إلى هذه المكانة السامية من العلم والمال: شديد التواضع، لين الخلق، سهل المعاشرة، يوقر أصحاب الفضل والعلم، ويستشيرهم حتى فيما يعرفه حق المعرفة.

زاره أبو محمد عبد الله بن الخير "بالجزيرة" وبينما كان الشبان يتحدثان إذا ارتفعت صيحة عن غارة موجهة إلى القرية فوثب أبو هارون إلى سلاحه ثم اندفع إلى الميدان.. ثم تذكر أن في ضيافته العلامة أبا محمد عبد الله بن الخير، الحاكم والقاضي على الجبل، وأنه يجدر به أن يلتبس منه النصيح والإرشاد قبل أن يبدأ العمل. وإن كانت السبيل واضحة أمامه وحكم الله جلياً في مثل هذه القضية، ورجع إلى الضيف الكبير يستشير ويستنصحه فيما يجب أن يفعلوا إن أدركوا العدو. فقال القاضي العادل، والحاكم العالم: "إن قتلوا الأنفس وحازوا الأموال فقاتلوهم، وإن أخذوا الأموال خاصة فاقصدوا أموالكم، فإن حالوا بينكم وبينها فقاتلوهم" 46

تلك السيرة الرائعة التي تتبع تعاليم الإسلام في تنظيم الهجوم والدفاع، اتباعاً لأمر الله، لا يحيد به غضب، ولا يستفزههم كيد، ولا يوصلهم إلى الطغيان عدوان.

إن العلماء الأعلام الذين درسوا على أبي هارون، وتخرجوا من مدرسته، أكثر من أن يحصيهم العد، أما آراؤه وفتاواه وأقواله.

فلا يخلو منها كتاب من كتب الفقه والأصول والكلام، وكثيراً ما يكون رأيه أرجح الآراء، ومعتد المذهب ...

أبو الربيع سليمان بن زرقون 47 النفوسي من نفوسة "تاديوت"، درس في "سجلماسه" على العلامة ابن الجمع 48. وقد كانت "سجلماسه" في ذلك الحين، من المراكز العلمية التي يؤمها الطلاب من جميع النواحي، لاستكمال الدراسة، وعندما توفي الشيخ العالم، أوصى بثروته العلمية إلى تلميذه النجيب الذي خدمه بإخلاص زمناً غير قصير.

وأصبح هذا الطالب بعد أن استكمل دراسته شيخاً عملاقاً تنحني أمامه الرقاب، وتذوب بين يديه شبه المشاغبين، ولما رجع من سجلماسه إلى الجنوب التونسي وجد أن النكار قد نشروا بدعهم في كثير من تلك البلاد، وأصبح لهم أتباع ومريدون، ولم يزل يتنقل من بلد إلى بلد، ومن مجمع إلى مجمع، حتى قضى على تلك البدع التي كادت تفتك بدين الناس، وسكت أولئك المشاغبون، فلم تعد تنطلق آراؤهم المنحرفة لتزيغ عقول البسطاء من الناس عن دين الله.

كان قوي الحجة، فصيح اللسان، غزير المادة، شديداً في دين الله..

رأى تبرجا من نساء "قصطالية" فقال: ما أكثر إماء أهل هذا البلد، فحملهن على غير الحرائر، وقد كان في هذه الكلمة من التوبيخ والزجر ما يدفع الضمائر الحية إلى العمل، كان مسافراً في شتاء شديد البرد، ومعه شيخان ورعان، فمروا بغدير وقت

الظهر. فاختلّفوا في وجوب الوضوء. فتيمم ابن زرقون. وتوضّأ أحد الشيخين الورعين. فأصيب من شدة البرد. فقال ابن زرقون لصاحبه: لم تجز لنفسك أن تيمم لصلاة واحدة. فتيمم الآن لصلوات عدة. إن فهم روح الشريعة والمقاصد السامية من تكاليفها هي حقيقة الورع. وإن الجمود على ظواهر النصوص قد يؤدي إلى عكس المطلوب. فقد فر صاحب ابن زرقون من تيمم واحد. ولكنه اضطر -لقصور فهمه حكمة الطهارة في الإسلام - إلى التيمم لعدد من الصلوات.

كان ابن زرقون في صغره: ذكياً. ظريفاً. جليلاً. وكثيراً ما كان أستاذه "ابن الجمع" يمازحه بتوريات عامضة. فينتبه لها الطالب الذكي. ويجيب على البديهة. قال له يوماً: إنك ولد في الطين. يوهمه أنه يصفه بالفطنة. فقال الطالب النجيب: إنه غير منزلق. ليبرهن لأستاذه أنه فهم التورية.

وقام يوماً من الأيام بعمل يستحق عليه الشكر. فقال له الشيخ: الزيت خير. يوهمه أنه قال له: جزيب خيراً. ولكن الطالب النجيب فهم أيضاً هذه الدعابة من أستاذه وقال له على البديهة: يصلح للخبز. وهكذا كان الفتى الظريف مع أستاذه الكبير. يتلقى عنه العلم. ويتلقف منه الدعابة. ويقتبس منه الهداية والرشد.

أبو عمرو

ميمون بن محمد الشروسي 27

عالم اشتهر بكفاح الرذيلة حتى بلغت أخباره أفاصي البلاد. سمع يوماً إن جماعة يشربون الخمر "بالفحص" وبين هذا المكان "وشروس" مركز حكمه وإقامته ما لا يقل عن ستة أميال. فذهب إليهم. وأراق شرابهم. وكسر أنيتهم. وأقام الحد على من يستحقه منهم.

جمع إلى الورع الشديد. العلم الغزير. وإلى رقة القلب. قوة الإرادة ومثانة الدين. ولهذه الصفات وغيرها من الصفات التي يتحلّى بها المؤمنون المخلصون. وثق فيه الناس فولوه أمرهم. كان شديد الخوف من حقوق الناس. فكان يرتعد كما ترتعد السفعة في مهب الريح إذا وضعت بين يديه قضية للحكم. وكانت دموعه تنحدر دون أن يملك حبسها. إذا قال له الخصم أعطني حقي. خوفاً أن يكون مال عن الحق. ولم يعرف الصواب. وحسبك ديناً وعدلاً لرجل يلى الحكم. أن تكون هذه أخلاقه وسيرته ...

أخذ جانباً فحبسه في بيته موثقاً ليستشير في أمره بعض المشائخ. وينزلوا به العقاب الذي يقرره قانون الله. وفي الليل قام أبو عمرو إلى الصلاة. فوجد الجاني فرصة للإفلات. ففك قيوده

ثم هجم على أبي عمرو بسكين كانت في يده وجرحه. ولكن أبا عمرو - وكان شجاعاً وقوياً وشديداً في أمر الله - رجع إلى الجاني وقبض عليه من جديد، ونزع منه الموسى. ثم أوثقه وعاد إلى صلاته، ولم يرد أن ينزل به أية عقوبة حتى حضر المشائخ، خوفاً يؤثر عليه الغضب. أو أن يكون قد انتصر لنفسه. وحضر المشائخ، ورأوا فيه رأيهم الذي لا يتجاوز الحق والعدل.

ذهب إلى جادو لبعض الشؤن، وعندما كان في الطريق وهو راجع إلى شروس، سمع إن جيشاً عظيماً يريد الغارة على الجبل، فتوقف في الطريق يفكر في الأمر، إنه لم يستعد للحرب والقتال، وهو بعيد عن مركز حكمه، فما العمل؟ وبات ليلة وهو يفكر: هل يبدأ بالدعوة إلى الدفاع من مكانه، أم يرجع إلى مركز حكمه أولاً، ثم يجهز الجيش وبعد العدة، ولكن قد يقع الهجوم قبل أن يصل هو إلى مركز الحكم وإعداد ما يلزم للدفاع ليلة مؤرقة في عار توكيت (تمزده) اليوم، وهو يقلب الرأي.

وعلم الجند أن أخبارهم سبقتهم إلى حاكم الجبل أبي عمرو، وأن الرجل موجود في وسط الجبل ومعمعة العمران، وأنه لا يلبث أن يلاقيهم بجموع يحرسون على الموت في سبيل الدفاع عن حرمتهم، كما يحرسون هم على الحياة، فلم يجدوا خيراً من أن يؤخروا هذه الغارة إلى فرصة أخرى، وبكروا بالرحيل ...

كان أبو عمرو إلى هذا الحزم، وهذا العزم، وهذه القوة، مثلاً للتواضع واللين بين المؤمنين ... كان يسير ذات يوم ومعه ولد له صغير، فالتقى بأبي سليمان التندميرتي، فنزل عن فرسه إجلالاً

لأبي سليمان وتعظيماً، وعجب الولد الصغير من سلوك أبيه، فلم يعلم في الجبل رجلاً أعظم من الحاكم مقاماً، ولذلك سأل أباه قائلاً: من هذا الرجل الذي تنزل له عن فرسك يا أبي؟..

فقال الأب: أولاً تعرفه؟ إنه أبو سليمان، الرجل الذي أنزل الحمل الثقيل عن ظهره وحملته أنا ... هكذا كانوا يرون الإمارة.. إنها حمل ثقيل يفرح المؤمن عندما يتخلص منها، ولا يتقبلها إلا وهو مضطر، وقد بذل أبو عمرو مجهوداً جباراً ليلقي عن ظهره هذا الحمل الثقيل، حتى تخلص منه في يوم من الأيام، وجاء بعض المشائخ يلومونه على ذلك، فقال لهم: إنني أريد أن أخلص إلى عبادة ربي قبل الموت، ولو لمدة قصيرة، وإنني أريد أن لا يشغل فكري بغير عملي في آخر حياتي..

قلت في صدر هذا الحديث إن أبا عمرو قد اشتهر في جميع البلدان بسيرته الحميدة، وخلقه الفاضل، ودينه الكامل، جاء من السودان جماعة من التكرور يحملون بضاعة وافرة للتجارة، ولما يسمعون عنه من علم وعدل، طلبوا مقابلته، فلم يرضن عليهم بها، واجتمع بهم: "فملاً أعينهم وافئدتهم علماً وأدباً وحياء" فجمعوا له أربع مائة دينار، وقدموها إليه من أصدقاء معجبين، فامتنع عن أخذها، وترك لهم أموالهم، وفتح أمامهم الأسواق، ودعا الناس إلى التعامل معهم.

إنه مثل سام من أمثلة النزاهة والشرف والفضيلة، لا يجده الباحث كثيراً في كتب التاريخ، تاريخ الأمراء الظلمة الذين يزهقون الأرواح، وينتهكون الحرمات، للحصول على مبلغ قد يكون

أقل من هذا المبلغ بكثير..

ولعله يكون من المناسب أن أختتم هذا الفصل بالكلمة
البارعة التي وصفه بها أبو العباس:

" وكان ميمون الناصية على نفوسة مدة ولايته "

أبو الفضل سهل 3.

هذا رجل لا أريد أن أطيل عنه الحديث، وحسبه أن ولي
الحكم على الجبل في وقت بلغت فوضى الحياة في ليبيا مبلغاً
يؤسف له، فقد اختاره الناس وغارات الأعداء من الدول الظالمة
متوالية، وقبائل البداءة الضارين حول الجبل من الجنوب والشمال لا
ينفكون عن السرقة والعدوان. إنهم أقوام لم يتمكن الإيمان من
قلوبهم، فلا يستمسكون بحق، ولا يتعبدون بدين، ولا يردعهم
خلق عن أموال الناس. وكانوا يتباهون ويتفاخرون بأنواع العدوان
الذي يقومون به ومقدار الأموال التي يغتصبونها أو يسرقونها
من أصحابها، الأمنين المسالمين.

وتولى أبو الفضل سهل الحكم في الجبل، فشمر للكفاح،
وقابل العدوان بالصبر والنضال، ورتب في كل جهة من الجهات
المعرضة للسطو حامية ترد الضربات، وتقف للمغيرين بالمرصاد،
ولم يلبث إلا قليلاً حتى أمن الناس على أموالهم وحرمانهم،
وانتشر السلام في كامل الجبل وما يتبعه، بل لقد سار الأمن في
جميع نواحي الجبل إلى " غدامس ".

بلغه يوماً أن فساداً يقع في " غدامس "، وأن قوماً من هؤلاء
الذين اعتادوا ابتزاز الأموال بالباطل، يرتكبون من الموبقات في "
غدامس " ما لا يرضاه الحر الكريم، فجرد حملة توجه بها إليهم،

ورغم معارضة المشائخ له خوفاً عليه، فقد أصر ووصل إلى " غدامس " وضرب على الأيدي العابثة، وأصلح الفساد، ونشر الأمن بين الناس.

هاب الناس هذا الحاكم الحازم، فتوقف عن الجبل عدوان المعتدين، وغارات المغيرين، وسرقات أولئك الذين لا يخافون في الله إلا ولا ذمة..

وإن رجلاً يستطيع أن يجمع الفساد، وأن يرد كيد أعداء يتكالبون دون أن يتقيدوا بدين، أو ضمير، لذو فضل ...

أبو محمد زيد بن أفصيت الدَّرَفي 30

جد عائلة توارثت العلم والحكم والاستقامة، وإن تفاوتوا فيه على درجات، حسبما وصفهم صاحب السير فقال: " إن أبا محمد: الآخرة دون الدنيا، وأبا يحيى يوسف بن محمد: الدنيا والآخرة، وأبا داود سليمان بن أبي يحيى: الدنيا دون الآخرة ". وليس معنى هذا أن أبا داود أعرض عن دين الله وأسلم قيادة للهوى، وزاغ عن الصراط المستقيم، وسلك الطريق الذي سلكه الظالمون، فإن أمثال هؤلاء لا يمكن أن يلوا أمراً للمسلمين في ذلك الحين، ولكن معناه: أن أبا محمد زهد في الدنيا، فلا يقيم لها وزناً، لا يهتم بطعام ولا لباس، وأن أبا يحيى إذا اجتمع عنده الرديء والجيد من الطعام واللباس استطرف، أما أبو داود فكان يتأنق في لباسه، ويستطيب لطعامه، [قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ] ويؤكد هذا المعنى ماورد في السير: " وكان أبو محمد إذا قام من مجلس القضاء أكل ما حضر، وأبو يحيى يأكل ما خبز، وربما استطرف، وأبو داود يأكل اللحم والقمح وتمر فزان في أكثر أوقاته، وكانت أيام أبي داود سليمان مباركة على نفوسه، " 53

تولى أبو محمد، ثم ابنه أبو يحيى الحكم على جادو. أما أبو داود وأبو محمد عبدالله ولدا أبي يحيى فقد توليا الحكم على أهل زمور - قرى الرجبان اليوم - وقد كانت أحكام الجميع وسيرهم سير من سبق من السلف الصالحين.

إن كل واحد من هؤلاء الأعلام يستحق أن يشغل من وقت الدارس فراغا لمن أراد أن يتتبع أحداث التاريخ، ولكنني في هذه الفصول إنما أعرض صوراً، وقد بجمع الإطار الواحد مجموعة من الصور. ولمن أراد الاستقصاء أن يرجع إلى كتب التاريخ. وفيها يجد ما يشبع نهمه عن كل واحد من هؤلاء الأعلام.

وحسبي هنا أن اذكر للقارئ الكريم: أن شهرة هذه العائلة في العلم والعمل لا تزال على ألسنة الناس اليوم. وإن دارهم التي أطلق عليها دار بني عبدالله، كانت مأوى للأخيار من كل مكان. وملجأ للمضطهدين. وقد كان واسطة عقد هذه العائلة: العلامة أبو يحيى: من أعلام الإسلام: درس على العلامة أبي محمد الكباوي. وقال عن نفسه: لقد جمعت العلم بالقصعة، وفرقته بالأقداح. وهذه العبارة على اختصارها. تبين الفرق الواسع بين مواهب الناس. وما تمنحه إرادة الله لخواص عباده.

وفي زمن حكم أبي يحيى هجمت زنانه بجيش قوامه ألف محارب على قصر "أدرف"، فخرّبوه، ولكن خراب القصر وخراب قرية "أدرف" كلها لم تهدم البناء الشامخ الذي أقامته عائلة بني عبدالله، وفي الحين الذي يذكر التاريخ في إجلال عظمة أبي يحيى وأسرة بني عبدالله، يلعن هذا الجيش الذي يهجم على

قرية آمنة مطمئنة على حين غفلة من أهلها، فيقتل سكانها، ويخرب بنيانها.

أبو زكريا

يحيى بن صفيان الألوتي³⁴

نشأ في "لالوت" هذه المدينة التي كانت مقراً للعلم، ومثابة للعلماء، وحسبه تعريفاً شهادة العلامة أبي العباس حيث يقول: "وكان حاكماً عادلاً، وعالماً فاضلاً". وقد ذاع صيته، واشتهر بعلمه ودينه، وعدله، حتى عرفه الناس بذلك واعترفوا له، فكان يقدمه في الصلاة حتى المخالفون له في المذهب. وكان في مرتبة من التواضع واللين، لا يصل إليهما إلا النادرة القليلة من عباد الله المؤمنين ...

كان حاكماً، ولكنه لم يكن من الطراز الذي يعرفه الناس هذه الأيام، إن الحكم عند أبي زكرياء وأضرابه يعني التضحية بالوقت والجهد والمال، دون أخذ شيء، إنه أداء واجب لا شكر عليه، ولا مقابل له، إلا ما عند الله، ولذلك فإن الحكم على أولئك الذي يلون أمراً من أمور الأمة، فيتخذون ذلك وسيلة إلى ابتزاز أموال الأمة والانتفاع بجهود أفرادها، إن هؤلاء قد خانوا الله، وخانوا الناس في أمانتهم.

كان أبو زكرياء يعمل كأبي فرد من الناس، لا يرى لنفسه حقاً عليهم، فكان يقوم بزراعته كما يقوم بها أي شخص آخر، وذات

يوم حصد الزرع، واحتاج إلى جمل يحمل عليه ما جمع من زرع، وكان له جار قد هباً جملة ليحمل عليه زرع نفسه، فلما سمع بحاجة الشيخ أراد أن يؤثره على نفسه، وذهب إليه بجملة، فانتهره الشيخ، ولم يقبل منه هذا الإيثار الذي طاب به الجار الكريم نفساً، وخشى العالم الحاكم أن يكون الجار أقدم على ذلك بدافع الخوف، أو بدافع الحياء، فلم يرد أن يتقبل مساعدة الناس على أحد الدافعين.

وتقلب الزمن، وتغير وجه التاريخ، وتوفى الشيخ، فجاء ولده إلى نفس المكان، وحصد زرعه، واحتاج إلى جمل يحمل عليه، فذهب إلى جاره، وكان هو نفس الجار الذي انتهره الشيخ لما أثره على نفسه، وكان الرجل قد أعد زرعه وأعد الجمل ليحمل عليه، فطلب ابن الشيخ منه الجمل ليحمل عليه، فاستمهل الجار الطيب حتى يوصل حمله ثم يرجع إليه الجمل، فغضب الشاب، لأن الرجل لم يؤثره على نفسه، فقال العامل الساذج الطيب: "إن ذا لمن العجب! ... الشيخ يغضب إذا أثرناه على أنفسنا، وابنه يهددنا إذا لم نؤثره." 55

إن الفارق بين الأب والإبن فارق عظيم، فلقد كان الأب من أولئك الأبطال الذين ينتصرون على أنفسهم قبل أن يلتحموا بالمعارك الحامية بعيداً عن أنفسهم، والمؤمن إذا انتصر على الشيطان في معركة النفس، سهل عليه أن ينتصر في كل ميدان، ولكنه إذا انهزم في المعركة الأولى، فإنه لن ينتصر في بقية المعارك، مهما بذل من جهد، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر؛ جهاد

النفس). لقد وثق المشائخ بأبي زكرياء قولوه شؤون الأمة، وكان إلى قيامه بهذا العبء الثقيل. لا يبرز الأمة في شيء من مالها، وإنما كان يمون نفسه وأسرته بعمل يديه، كما يقوم بذلك أي فلاح عادي، ولم يشغله هذا العبء الثقيل عن مشاكل الناس، ولا هذا الكفاح الطويل في إعانة الأسرة، لم يشغله كل ذلك عن ممارسة أحب عمل إليه، وإيكل عالم يتجه بعلمه إلى الله، ويقدم جهوده للأمة خالصة، ذلك العمل الحبيب إلى كل عالم يقدس المعرفة، والتعليم، ونشر الثقافة، وتربية الأجيال، ولقد خصص أبو زكرياء زمناً من وقته الثمين للتعليم، وهداية الناس، وإرشاد أبناء الأمة، وكان الطلبة يتسابقون إلى الارتشاف من هذا المنهل العذب، ويتزاحمون عليه تزاحم العطاش على الصافي النмир، ولقد كانت له دروس لا تقتصر على صغار الطلبة والمبتدئين، بل يحضرها كثير من العلماء الأجلاء، فإن مجالسه العامة بالموعظة الحسنة والدعوة إلى سبيل الله، خليقة أن يحضرها كل من تهفو نفسه إلى المزيد من الاطلاع على أسرار الشريعة السمحة، وكان في أحد هذه الدروس التي يتخذها لشرح وجهات النظر المختلفة، ويكشف فيها وجوه الرأي وآراء المجتهدين، ويعقب بذلك عليتك الآراء، ويرجح منها ما يوافق التيسير على الناس، وكان أبو الربيع حاضراً هذا المجلس، فغضب من هذا الترخيص للشيخ، وترجيحه ما يقوم على اليسر والخفة من آراء العلماء وأقوالهم؛ فقام وهو يقول: لا أحضر مجلساً يفتى فيه بمثل هذا.. فأجابه العالم الأستاذ الذي يعرف من أسرار الشريعة، ومن طبائع الناس، ودخائل نفوسهم، ما لا يعرفه كثير من أصحاب

العلم، ويفهم من طبيعة الحياة، ومن دواعي العمل، وما يناسب ذلك في مختلف الأزمنة والأمكنة، ما لا يفهمه الكثير، أجابه يقول: إن لم ترد فقم... وقام أبو الربيع الغاضب وفارق مجلس الشيخ على هذه الحال، ولكنه ما توارى من الباب حتى قال الشيخ لطلابه: ردوه؛ إن لم يفهم هو، فلا يفهم غيره... وتواثب الطلاب في خفة ليدعوه، فلاقوه راجعاً فقد فكر واقتنع بوجهة رأي الشيخ، وبعد نظره، ومعرفته بأحكام الدين، والأصول التي تبني عليها الفتوى، وعرف أن العالم الذي يفتى للناس، يقوم بعمل يشبه عمل الطبيب، فقد يفتى لرجل بفتوى لا يفتى بها لشخص آخر في سؤال مشابه، كما يناول الطبيب شخصاً ما دواء لا يعطيه لمريض ثان له أعراض ذلك المرض.

وقد رأى كثير من حذاق العلماء، أن الغني الذي يوفر لديه المال، وجب عليه كفارة، لا يفتى له بالإطعام، وإنما يفتى له بالصوم، وأبو زكرياء من أخلص الناس إيماناً وأشدّهم ورعاً، وأغزهم علماً، فهو حين يقدم على عمل، أو يصرح بقول، يكون قد فكر قبل ذلك، فأخلص العمل لربه، واستبرأ لدينه وعرضه.

وخلاصة القول: أنه أحد أولئك الأبطال الذين انتصروا عليا الشيطان في أنفسهم، وقدموا أعمالهم لله خالصة، وفادوا أمتهم إلى الخير، دون أن يبرزوا في مال أو دم، وقد كان مثلاً للمسلم القانع الراضي بما قسم الله له، والعارف بحقيقة الدنيا وزخرفها.

زاره المشائخ يوماً فأكثر لهم اللحم، وكان الطعام قليلاً.

فاعتذر لهم بضيق الحال، وزاروه مرة أخرى فأكثر لهم الطعام وقدم لهم زيتاً، ولم يقدم لهم لحماً، ولم يعتذر، فقبل له في ذلك؟ فقال: لا تقصير مع الطعام والزيت.

إنه رجل لا يعرف المظاهر الجوفاء، وإنما يعرف الحقائق التي تنبني عليها الحياة، وحقيقة الغذاء الذي تقوم عليه الحياة في الجبل إنما هو الطعام والزيت، وليس اللحم مادة ضرورية في ذلك الحين.

ولعل في قصة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وزوجة معاوية بن أبي سفيان عبرة وموعظة لهؤلاء الذين يسرفون في اتباع الشهوات، فقد قيل: إنه قدم لأم المؤمنين عائشة عشاؤها الذي يتكون من خبز وزيت، وكانت زوج معاوية حاضرة، فدعتها أن تشاركها هذا الطعام، لكن الزوجة التي ربيت في بيت معاوية، وبين موائد الشام، اعتذرت لأم المؤمنين، وأخبرتها أنها تعودت أن تأكل أرق من هذا وأشهي، فرفعت إليها أم المؤمنين عينين متعجبتين وأخبرتها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ولم يشبع من الخبز والزيت، ولو أراد رسول الله لكأن له موائد أحفل مما يقدم لكسرى وقيصر... وصدق الذي أوصى فقال: لا تجعلوا بطونكم مقابر للحيوان.

درس أبو زكريا على العالمين الكبيرين: أبي محمد خصيب التَّمَصُّصِي، وأبي عبد الله محمد بن جَلَداسِنْ.

أبو عبدالله

محمد بن جلداسن الالوتي³⁶

نشأ في "لا لوت" بلد الأشياخ والعلم كما قال أبو العباس، وقد تحدث عنه وقال فيه: "وكان بحر العلم الزاخر، وإمام الحكام الفاخر، قيل له: في بعض أحكامك ضعف، قال: اقعدوا على طريق الخطابة، فإن رأيتم معهم عوداً يابساً فصدقتم أنني ضيعت شيئاً من الحق".

وتكفي هذه الشهادة للدلالة على علم الرجل، وعلى عدله، وعلى قوة إرادته، وصلابته في الحق، إنه يحكم ويعدل، وحين يتهم بالضعف في أحكامه يتحدى - في ثقة الرجل الذي يزن قوته، ويعرف سطوح حجته - أولئك الذين يتهمونه بضعف الأحكام، أن يظهروا له هذا الضعف الذي انتقدوه عليه في نتائج الأحكام، وما يعقبها من آثار، ويصمت المعارضون، لأنهم لا يجدون ما يردونه به على هذا التحدي، فهذه نعم الله تسبغ عليهم ظاهرة وباطنة، وهذه الخيرات ماثورة على الطبيعة، وهذا الأمن منتشر، والسلام يسود الربوع، والناس مشغولون بأعمالهم، راضون عن حياتهم، وحقوقهم مكفولة، لا يضيع منها حق، ولا يطغى قوي على ضعيف.

وكان إلى هذه القوة في الحق، والمعرفة بالعدل ومجاريه، عالماً بأسرار الشريعة، يحارب الوسوسة والجمود، والتشدد في دين الله.

كان يوماً " بشروّس " وقد نزل مطر غزير، فذهب إلى المسجد، ومشى بخفيه حتى دخل المسجد، وصلى بالناس، ليزيل من أفكار الموسوسين المتشددين ما يظنونهم نجساً مما يتطاير من ماء المطر في الشوارع.

وقف له بعد الصلاة أحد المؤمنين الذين يعرفون من أحكام الإسلام مثل ما يعرف، ويعرف من طبائع النفوس البشرية بعض الجوانب التي غفل عنها العالم الكبير، فقال له: " إن متولى الناس مثل اللين، يغيره أدنى ما يقع فيه " وفهم الشيخ ما ترمى إليه هذه الملاحظة الدقيقة، واقتنع بوجاهتها، فسلم يعد لمثلها، فإن بعض الناس قد يفسرونها بالتهاون وعدم الاحتياط والأستهتار، وهؤلاء الناس قد لا يجسرون على إبداء آرائهم هذه، ومناقشتها بالحجة ليعرفوا حكم الله، ولكنهم يجعلونها مادة الحديث والتعليق، وتنسى القضية نفسها، لكن الحكم المترتب عليها من المتهاون والاستخفاف ينتقل من أذن إلى أذن، حتى يشيع وينتشر ...

كانت أم سحنون اللالوتية من فضليات العجائز، مؤمنة، عالمة، ناصحة، وكانت مزاراً للمشائخ والعلماء، تفيض عليهم من أدبها، وعلمها، وخلقها، ودينها، ونصيحتها، وسار يوماً أبو عبد الله في جماعة من المشائخ لزيارتها، فلما كانوا ببعض

الطريق، وقد قربوا منها، سمعوا أن حدثاً وقع " بجادو "، فاضطروا إلى الرجوع، واضطر أبو عبد الله بوصفه حاكم الجبل أن يعود ليرى هذا الحدث الذي وقع بجادو، مدينة نفوسة، ومركز الحكم في أكثر الأحيان، غير أن أبا هارون لم يرجع معهم، وأتم ما عزم عليه من زيارة هذه المرأة الصالحة، فلما أخبرها برجوع المشائخ قالت: " يا أخي أخشى أن أكون من قبل فيهم: إذا زارت الأخيار فاسقاً سد الملائكة عليهم الفجوج، وإذا زار الأشرار صالحاً قيدتهم الملائكة " 56.

لقد كان أبو عبد الله من أولئك العلماء الذين امتلأت الكتب بأقوالهم وآرائهم وسيرهم، أما الصورة الكاملة لحياة هذا الرجل، فهي تشبه إلى حد كبير ما تقدمها من الصور التي عرفت لها لأولئك الأعلام الذين وثقت بهم الأمة، فحملتهم أعباء الحكم ... وساروا بتلك الأعباء الثقيل، لا يتعثرون، يعملون لله والأمة، لا يغرمهم السلطان، ولا تخدعهم المظاهر البراقة، ولا يلتفتون إلى نعيم الدنيا.

أبو زكرياء

بن أبي عبدالله التّدميرتي³⁷

شخصية من تلك الشخصيات التي تحتاجها الشعوب في أوقات الوهن والضعف، ولاه المسلمون أمورهم بعد أبيه أبي عبدالله، حفيد أبي منصور... أبو منصور الذي عرفه التاريخ في أنزه موقف وقفه محارب، وبأشرف سيرة سارها أمير، أما حفيده عبدالله، فيكفي فيه ماقاله عنه أبو العباس: "أما أبو عبدالله، فلم الشعث، وكشف اللبس، ورتق الفتوق، ورقع الخروق" ومن هذه الأسرة الكريمة التي شرفها الإسلام، وشرف بها المسلمون. انحدر أبو زكرياء.

ولاه المسلمون أمورهم بعد أبيه أبي عبدالله، فبقي في هذا المنصب الخطير، منصب الأمير أو الإمام، ستين سنة، لم يتغير فيها خلقه، ولم يفسد طبعه، ولم يتغلب عليه الطمع، ولم يدخله الغرور الذي يعثب بالنفوس من أصحاب السلطان.

دأب منذ أسند إليه حكم الجبل، أن يحاسب نفسه كل ليلة، ولا يأوي إلى مضجعه حتى يزن ما قام به من أعمال، ثم يميز جميع من يدخل تحت حكمه، فيعرف من يستحق الأدب، ومن يستحق المواساة، ومن له الحق، ومن عليه الحق.

دأب على هذه السيرة طول مدة إمارته خوفا من التقصير، وخشية من العتّى عن الجواب يوم الحساب، إذ كل راع مسؤول عن رعيته.

هكذا كان أبو زكريا يقضي وقته وهو أمير على جبل نفوسة، شغل متواصل طول اليوم، ينسى فيه نفسه وأهله وماله، فإذا أوى إلى بيته في الليل، ليجد قليلا من الراحة، حسد نفسه عن أن تنال هذا القسط الضئيل من الراحة، ونأى بروحه عن أهله وأبنائه، لأن المسلمين بقية حقوق تترتب بذمته لم يتأكد أنها وصلت إليأصحابها كما يوجب الحق والمروءة.

وفي هذه العزلة الروحية، وهو في بيته، بعيد عن ضجيج الناس، يستعرض شريط اليوم، ليرى فيه هذه المملكة التي يتولى أمرها، فيمر بين عينيه ذلك الشريط بما يحمل من صور الناس في الحياة.

ويتذكر أبو زكريا من غفل في زحمة الحياة، وأنساه إياهم الدوي الصاخب.. فيمر بين عينيه في ذلك الشريط: القوي الذي اعتمد على قوته فأخذ من حقوق الناس، وبمر به الضعيف الذي قعد به الضعف حتى عن الوصول إلى الحاكم، وبمر به الغني الذي تجري الثروة بين يديه ومن خلفه، فيحيا حياة الرغد والرفاهية، وبمر الفقير الذي يتغلب على الحياة بالقناعة وينتصر على الجوع بالصبر ويستتر العرى بالتوازي عن مجامع الناس.

وبعد أن يصفى حسابه مع الله ومع نفسه في يومه الماضي، ويضع خطوط العمل ليومه المقبل؛ بعد ذلك يعود إلى إعطاء

حقوق أهل بيت من أولاد وزوجة وغيرهم. ويصبح إنساناً كسائر الناس. يتكلم مع أهله وأبنائه، ويستعرض شؤونه الخاصة وموارد رزقه الطيب.

وعندما يقوم في الصباح ليتولى العمل من جديد. يكون أول ما في مخططه اليومي استخراج الحقوق من لم تستخرج منه، وإنزال أحكام الله على من يستحقها

كان شديداً في الله. يتعقب الجناة والمجرمين. ولا يتهاون في ذلك أبداً. ذكر له: أن جانيا في قرية "جناون" آوى إلى أهله. وبات عندهم. فهجم عليه صبيحة العيد، بعد أن صلى صلاة الصبح في مسجد أبي عبيدة. وطلب من العزابة تسليم المجرم. وإيصاله إلى السجن في "جادو" حتى يحكم فيه بحكم الله.

وذكر له: أن جانيا آخر بات في "ويفات" وهي قرية تبعد عن جادو مركز حكمه ما لا يقل عن عشرة أميال. فهجم عليه هو وأصحابه. وأنفذ عليه الحكم وقد حاول الجاني أن يعتدى على الأمير الشديد في أمر الله. وهم أن يطعنه بخنجر. فتلقى عنه الضربة أحد الحاضرين الواقفين بجنبه. فقال أبو زكرياء: يقال في المثل: أحبك ولا كنفسى. وهذا الرجل أحبني فوق نفسه.

تخاصم إليه رجل وامرأة على مال. وكان أبو يوسف الأجهري حاضراً. وهما من بلده. فقال له: ما تقول يا أبا يوسف؟ قال أبو يوسف: إن جزت على المرأة أسلّم. وأسأل لها العون. وإن أطعمتني أكلت... وإن مررت عليا الرجل لا أسلم. ولا أسأل له العون. ولا أكل إن أطعمتني... قال أبو زكرياء للرجل: اسمع ما يقول أبو يوسف

يا أبا فلان.. قال الرجل: مالي يا شيخ؟ قال أبو زكرياء: اسمع يا فلان ما يقول أبو يوسف. قال الرجل: مالي يا شيخ؟ قال أبو زكرياء: يا مرعون إن ذهبت إليه لأجعلنها في جنبك: يعنى السياط.

إن الرجل الذي يتمادى على الباطل. ويستمسك بحق الناس. حقيق أن توضع في جنبه السياط.

كان أبو زكريا عالماً من أفذاذ العلماء. ولكنه مع سعة علمه أراد أن يطمئن في أحكامه إلى فتاوي من مشائخ يوثق بعلمهم وفهمهم. فاستنصح أبا محمد الدرفي. فنصحه أبو محمد أن يستفتي في نوازل. والمشاكل التي تعرض عليه الشيوخ العالمين: أبا محمد الكباوي. وأبا يحيى الفرسطائي. فيحكم بما اتفقا عليه. ويتوقف فيما يختلفان فيه. فكان يستفتيها. غير أن أبا يحيى كان يجب إجابة العالم الواسع الاطلاع. فيناقش الموضوع مناقشة طويلة. ويبحثه من جميع نواحيه. ويستعرض الأقوال الواردة فيه. دون ترجيح. أما أبو محمد الكباوي. فكان يقصد إلى أرجح الأقول. ويحدد الموضوع في إيجاز وتلخيص. وهذا ييسر العمل على الأمير الكثير الأشغال. فاعتمد على فتوى أبي محمد. ولما توفى أبو محمد. حضر جنازته وشيعه إلى مقره الأخير. وعندما أراد مغادرة المقبرة. قال: سلام عليك يا كباوى. ولما مر بقرب منزله قال: لقد أصبحت أبها المنزل كغبيرك من المنازل.

ثم استفتى بعده أبا محمد خصيباً.

حاول عدة مرات أن يتخلص من أعباء الحكم. وأن يلقى عن كاهله هذا الحمل الثقيل. ولكنه لم يتمكن من ذلك. لأن أهل

الشورى من المشائخ لم يوافقوا على ذلك أبداً.

وبعد: فما هو المبلغ الضخم الذي جمعه هذا الأمير حكم الجبل ستين سنة؟ وما هي القصور التى شادها؟ والجنان الفسيحة التى امتلكها؟ إنه لا شك جمع ثروة طائلة. تركها لأبنائه. وسوف ينعمون بها طيلة أجيال متعاقبة. أما هو وأسرته فلا بد أن يكونوا قد نعموا بالمال. وعاشوا في رغد ورفاهية.

ولعل في القصص الآتية شواهد تدلنا على مبلغ ما كنز هذا الرجل من مال. وجمع من ثروة.

ولد له ولد فبعثت إليه زوجته تطلب كمية من الزيت للاستصباح ودهن الطفل. فكم يا ترى يستطيع أن يبعث إليها في هذه المناسبة السعيدة؟ إن أي موظف بسيط أو شيخ قبيلة. يمكن أن يبعث لزوجته في مثل هذه الحالة ما يكفيها أسبوعاً. أو شهراً. وإذا لم يكن هذا المقدار عنده. استطاع أن يحصل عليه بأي وسيلة من الوسائل. أما هذا الأمير الذي يتصرف في مال الجبل كله. ويتحكم في تصريف ما في "نفوسة" من زيت. لم يستطيع أن يبعث إلى زوجته الحبيبة. وهي نفساء. وإلى طفله الوليد وهو يستقبل الحياة... لم يستطيع أن يبعث إليهم شيئاً. لأنه لم يجد في ملكه الخاص ما يبعث به. أما أموال المسلمين. وزيوت الأوقاف التى تصرف تحت رعايته. فلم يستطيع أن يمسه. لأنها أمانة في عنقه. وهو أخشى لله من أن يخون الأمانة. وأبلغها أنه ليس لديه زيت. وما دام لا يجد في ملكه الخاص زيتاً. فعليها أن تستصحب بالخطب. أما الوليد فيكفيه التنظيف

بالماء. وعلى زوجة الأمير أن تقنع بهذه الحياة إن كانت مؤمنة ترجو خيراً الآخرة. وإلا فإن هذا الرجل ليس برجل الدنيا الذي تغره الحياة بالنعيم الزائل..

وفي القصة الآتية مثل آخر يبين لنا كيف يستطيع أن يجمع مثل هذا الأمير ثروته الطائلة. التى لا تنبض:

مر على بعض الأحياء فاستضافوه. ولكنه اعتذر. فجاء صاحب الحي بعدد من الكباش. وقدمها للأمير وهو يقول له: هذا غذاؤك وغذاء أصحابك حيث لم توافق على البقاء! ... فهل فرح لهذه الكباش؟ وأمر بسوقها ليضعها إلى ما جمع من ثروة؟

لم يفعل شيئاً من ذلك. ولكنه أجاب صاحب الكباش بهذه الكلمة التى يجب أن توضع بين عيني كل صاحب سلطة من أولئك الذين يجمعون الرشاوي. ويبتزون أرزاق الشعوب. ولا يعفون عن أموال الدولة. قال: "لو كلفت بحمل قرونها ما قدرت. فكيف بحملها جميعاً يوم القيامة" (58) وترك الكباش لصاحب الكباش. وعاش الطفل على نور الخطب. وضرب أبو زكرياء لعبيد الدنيا المثل الرائع الذي يجب أن يتعظ به أولئك الذين تسند إليهم أمور الناس. ويؤمنون على ثروات الشعوب. لقد فنيت جميع الثروات التى جمعها الجبابرة. ولكن هذه الثروة الخلقية التى تركها هذا المؤمن الصابر لم تفنى. ولن تفنى. وما عند الله خير وأبقى.

حضر إليه بعض المشائخ في أواخر أيامه. وسأله عن رأيه فيمن يولونه أمورهم. ويسندون إليه حكمهم من بعده. فاختار لهم: أما أبا زكرياء اللالوتي. أو أبا يعقوب البغطوري. أو أبا داود

سليمان الدرفي.

لما أشتد عليه المرض رأى جماعة أن يرجعوا به إلى بلده تندميره، فحملوه، فلما أفاق من غشيته وجد نفسه محمولاً، فسألهم عن ذلك ؟ فأخبروه أنهم يريدون به بلدة " تندميرة " فأمرهم بإنزاله في موضعه، وكان قرب " تمزده " وهنالك فاضت روحه الطاهرة، رحمه الله، ولا يزال قبره مشهوراً معروفاً هناك.

واجتمع المشائخ بعد وفاته، فولوا مكانه أبا موسى عيسى - فاتبع خطاه وسلك مسلكه، وسار بسيرته، قوة في دين الله، وغلظة على العصاة والمجرمين وإيصال للحقوق إلى أهلها، وعدل بين الناس يستوى فيه الكبير والصغير، والجليل والحقير.

أدب رجلاً على عمل ارتكبه، فتألم ولم يصبر.. فقال له أبو موسى: أبلغتك حرارتها يا عدو الله ؟ فقال المضروب: أو لم تذقها ؟ فقال الحاكم القاضي العادل: ذقتها وكانت لي رشداً وصلاًحاً ...

ترتب الحق يوماً على داود بن علي، وكان من العظماء أصحاب الثروة، مهيباً بين الناس، صاحب قدر ومقام، فلما أراد الحاكم أبو موسى إقامة الحق عليه، أعرض ونأى بجانبه، وأوزر عن الحق، وثنى عطفه تكبراً أن يؤخذ منه الحق، ويقام عليه الحد، وقام من مجلس الحكم...

أمر أبو موسى برده، فلم يجد بين الحاضرين من يقوى على رده..

وفكر داود بن علي في الموضوع، ثم رجع إلى مجلس الحكم، وطلب من أبي موسى إقامة الحق، وقال له: رجعت إلى مجلسك

لتقيم على الحد لثلاثة أسباب:

١ الأول: لا أريد أن أترك التكبر عن أخذ الحق سنة يتبعها كل متكبر.

٢ الثاني: تواضع مثلي لملككم لا يزيد إلا رفعة وعزاً.

٣ الثالث: أن في أبناء الأمة غيري، ومن هو أعظم مني.

وطلب أبو موسى من جديد إلى الحاضرين أن يقوم أحدهم بتنفيذ الحكم فلم يجد أحداً، فقام وهو يقول: " تعلم ربي أنه لو لم يكن رضاك إلا في نزع نفسي لنزعته 59 ونفذ الحكم.

ولست أدري أيها القارئ الكريم وأنا أقص عليك هذه القصة هل تعجب مثلي بهذا الخلق المتين، من الحاكم والمحكوم، بل إنني لحائر بين الرجلين، لا أعرف أيهما أعظم، أهذا الذي يصر على تنفيذ حكم الله مهما كانت النتائج، أم هذا الذي يحكم عليه، ثم تعجز سلطة الحكم عن تنفيذ قرارها، وبعد أن يتيقن أنه لا أحد يقوى على تنفيذ الحكم عليه، يجيء إلى الحاكم مستسلماً خوفاً من أن يترك سنة سيئة يقتدي بها الناس، فيما إذا ركبتهم الحقوق، وتعلقت بهم الواجبات ... أنه خلق لم يوجد إلا في الرعيل الأول من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم..

أبو هارون

موسى بن هارون 40

نشأ أبو موسى هارون بن هارون في "تملوشايت" وأخذ مبادئ العلم عن مدارسها العامرة. ثم ألتحق بأبي محمد التميمصي، وفي هذه المدرسة التي أعدت أعلاماً، وخرجت فحولاً، تخرج أبو هارون، علماً من أعلام الإسلام، وبطلاً من أبطال المؤمنين، وجداً لأسرة متسلسلة في العلم والإيمان والكفاح من أجل المثل العليا التي حارب من أجلها محمد صلى الله عليه وسلم، وناضل عنها المؤمنون في كل زمان ومكان.

كان رحمه الله عامر القلب بالإيمان، براً، تقياً، عفيف اليد واللسان، وكان مع ذلك ذا قوة وصمود في النضال عن الحق، وحمایته من أطماع الطامعين.

كان أبو محمد خصيب هو مفتي الأمير أبي زكريا التندميرتي بعد أبي محمد الكباوي، وكان أبو هارون يحرص على حضور مجالس أبي محمد خصيب، لما يستفيدة منه من علم جديد، ونزل أبو زكرياء يوماً إلى جنائون، ونزل إليها أبو هارون، ولكن أبا محمد خصيباً لم يتمكن من النزول، لأن ضعف الشيخوخة حال دونه، واحتاج أبو زكرياء إلى فتوى، فطلب من أبي هارون أن يتقدم

لها، ومن ذلك اليوم أصبح أبو هارون يفتي لأبي زكرياء، حتى لحق أبو زكرياء بالله، وتشاور المشائخ فيمن يلى أموره، فأسندوها إلى أبي موسى عيسى، ثم أسندوها من بعده إلى هذا العالم الذي أحسن القيام بها، ورعاية شؤونها ...

في قرية "إبنائين" التي لم يبق منها اليوم إلا أطلال دوارس، كانت إحدى العجائر التي يسميها المشائخ الجدة، وكانت تقيّة صالحة عالمة مؤمنة، تفيض على جلسائها بالخير والصلاح، واعتاد أبو هارون أن يزور هذه العجوز، فيقتبس من خلقها وعلمها ودينها، ولما أسند إليه الحكم، وألقى عليكاهله هذا العبء الثقيل، نقل مركز حكمه إلى هذه القرية الجميلة التي تحضنها الجبال البشرية، وتنسبط عند أقدامها الوديان الخضراء، ليكون قريباً من هذا العقل البشري المستنير، وهذا القلب المؤمن الصافي... نصحه بعض المتملقين أن يشتري الأملاك الثابتة، حتى تبقى لأبنائه من بعده، فأجاب هذا الناصح بقوله: "من يتبع منهم طريق الهدى لا يعدم من الله خيراً، ومن نبذه وراء ظهره فلا أعده الله جوعاً".

وقارن أبيها القارئ الكريم بين أمير لا يترك لأبنائه غير الله، وأمير يجمع المال من كل سبيل، لا يفرق بين حلال وحرام، ثم يتركه لأبنائه يعبثون به، ويلقى الله بالحساب..

سار أبو هارون بأعبائه الثقيل من شؤون الأمة، كما سار بها أولئك الذين سبقوه بالحسنى، أقام الحق بين الناس، وحمى الوطن من عدوان المعتدين وغارات المغيرين ...

وكانت زوجة أبي هارون امرأة صالحة يحبها وحبها. وكانت عالمة ذكية، ولكنها غير ولود.

ونصحه المشائخ أن يتزوج غيرها عسى أن يرزقه الله أولاداً صالحين...

ففوض إليهم أمر الاختيار، ووكّلهم على القيام بهذه المهمة، وكل ما اشترط عليهم: أن يختاروا له امرأة يتوفر فيها الصلاح والتقوى.

وتشاور المشائخ، ودرسوا الموضوع، واستعرضوا عقائل الجبل، فاتفق رأيهم، ووقع اختيارهم ... من تكون هذه المرأة التي يتفق المشائخ على اختيارها زوجة لأعظم رجل في ذلك الحين ؟

لقد كانت جدة المشائخ السيدة " تابر كانت " أعظم امرأة في الجبل وأصلحها، وكانت لها بنت ربتها على الخلق الكريم والدين القويم وثقتها الثقافة التي تصلح للمرأة في ذلك الزمن الذي تشارك فيه المرأة الرجل في أهم الميادين بالرأي والنصيحة والإرشاد من وراء الحجاب، وقبلت الفتاة ورضى الشيخ، وزفت العروس الصالحة إلى العالم المؤمن، ورزق أبو هارون بعدد من الأولاد أقرؤا عين والدهم الشيخ، وخدموا الأمة بإخلاص.

كان قبل أن يتولى حكم الجبل، يقوم بالتدريس، وكان يقوم بالرحلات العلمية مع طلابه، فيدرسون البيئة، ويعلمهم أدب السلوك، ويعرفهم بالناس، ويوضح لهم طريقة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويدربهم على القيام بدروس الوعظ والإرشاد، وكثيراً ما كان ينزل بهم على أم ماطوس. المرأة التي استطاعت

أن تغلب على إرادة أهلها في سبيل الدراسة، حتى بلغت مرتبة تنقاصر عنها أعناق الأبطال..

وسيرة صالحة لا تضعف...

اشتهر طلوع هلال شوال فأفطر الجبل وبلغه أن بعض المنتطعين الجامدين أمسكوا عن الإفطار ولم يوافقوا الأمة في علمها بالشهرة فنتبع هؤلاء المنتطعين حتى بلغوا جادو وهو يلزمهم الإفطار ويكسر عليهم هذا الصوم الذي يخالفون فيه الدين والأمة ويغير هذا الحدث الذي كان خليقاً أن يحدث شغباً وخلافاً بين الناس.

وكان قوياً في العبادة شديداً على نفسه يعتقد أن في طوق جميع الناس أن يعملوا مثل ما يعمل.

صام مرة في جادو وكان حاكم الجبل حينئذ أبا عمرو وكان أبو الربيع إما أن يكون في مجلس العبادة أو في مجلس العلم لا يعرف النوم والراحة. فقال للأمير: حرج على الناس أن يناموا بالليل مدة صيامهم. ومن كسر الحجر فالسجن أولى به ... ولكن الأمير لم يعمل بهذا الطلب. وسار الزمن وأسندت الإمارة فيما بعد إلى أبي الربيع. ويظهر أنه ازداد خبرة بطبائع الناس ومعرفة بالضعف البشري. فلم يحجر على الناس النوم بالليل. وإنما كان يدعو إليه من كان يقوى على إحياء الليل. فيحيونه يعبدون الله. أو يتذكرون فنون العلم.

كان داود بن تيتيس طاغية متجبراً مثل جلدين بن فلاوسن. ولم يستطع المشائخ في جادو أن يلقوا عليه القبض وينفذوا فيه حكم الله. فجاء أبو الربيع وبصحبته أبو عمرو وأبو موسى الدجي وطلبوا من أبي داود الدرفي أن يرافقهم. فهجموا على ابن

أبو الربيع

سليمان بن أبي هارون/4

غلب عليه لقب الشيخ. حتى أصبح علماً عليه. أخذ العلم عن أبي يحيى زكرياء بن سفيان اللالوتي. وأبي سهل البشربن محمد التندميرتي. وأبي يوسف وَجَدَ لِيَشْ بن في الْجُلَانِي وأخذ عنه بَشْر كثير.

سافر إلى الحج مع مجموعة من العلماء الأعلام. فترافقوا اثنين اثنين. فكان رفيقه أبا يعقوب البرني. وطال الطريق بهم. كان الرفاق يفترقون ويجمعون ما عدا أبا الربيع وأبا يعقوب. فقد أمضيا الطريق كله في صحبة متعة. بين مذاكرة في فنون العلم وتعاون على ذكر الله.

وكان الركب إذا سئلوا عن عالمهم قالوا: أبو الربيع وأبو عبد الله الدرفي. وإذا سئلوا عن عابدهم قالوا: أبو موسى الدجي. وإذا سئلوا عن سخيهم قالوا: زكرياء بن عمار الشروسي. وإذا سئلوا عن أفضلهم قالوا: أبو يعقوب البرني. وعلق ما شئت أيها القارئ الكريم عن ركب يجتمع فيه هؤلاء الأعلام..

جمع أبو الربيع إلى العلم الواسع. والدين القويم. والخلق الكريم. شدة في الحق لا تلين. ومحافظة على دين الله لا تفتري.

تبتيس والقوا عليه القبض وأودعوه في السجن حتى حكم عليه المشائخ، ونفذوا فيه الحكم..

استحق يوسف بن عبدالله من أهل إكَّرائين الأدب، فأوثقه أبو الربيع في سلسلة حتى يجرى عليه الحكم، وقدم بعض الكبراء، يتشفعون في يوسف هذا، فقال أبو الربيع لو أمكن أن أنزع السلسلة عن يوسف بمائة دينار لدفعتها عنه وأطلقت سراحه، ولكن الحق أولى. وهكذا لم تشفع محبته لهذا الرجل، ولا رجاء الكبراء فيه، لأن الحق أحق أن يتبع ...

وهو إلى هذه الشدة والحزم في معاقبته الجناة وتتبع العصاة جم التواضع كثير الحياء، أواب إلى الحق.

ذهب هو وبعض أصحابه وطلابه إلى تندميرة فاستضافه رجل دخلت الشبهة إلى بعض ماله، فامتنع أحد طلابه عن الأكل تورعاً، غضب أبو الربيع غضباً شديداً على هذا التلميذ، ولما كان بالطريق وهو راجع إلى مركز حكمه وإقامته - إبنناين - قال لأبي محمد بن عبدالله التميمي: مره فليلق بي بيت أبيه - يعني الطالب الذي تورع عن الأكل ... فقال له أبو محمد: إن لم تأثم أنت فلم يأثم هو، فطاطاً الشيخ رأسه حتى كاد يصل قربوس السرج، واذعن للحق، واستمع إلى النصيحة المخلصة ...

وكان إلى هذه الشدة في دين الله، وهذا التواضع والحياء، وهذا الرجوع إلى الحق، كثير البر، جم الصدقة، متواصل العبادة؛ وفي رمضان يجمع إليه خيار المسلمين مثل العلامة طاهر بن يوسف وغيره، فيصومون عنده ويتعاونون على مذاكرة العلم؛ والتعرف

على أحوال المؤمنين، والقيام بأنواع مختلفة من العبادة.

جمع بين الإمارة والقضاء والتدريس، وكان يوزع وقته بين هذه المهام فلا يؤثر قسمها منها على القسم الآخر..

إذا صلى العشاء الآخرة وتنفل بما شاء الله، افتتح مجلس الدرس للطلاب إلى هون من الليل، ثم يذهب إلى داره، ويصطحب معه محمداً ابن زكرياء البغطوري ومحمد بن يفون فيقرأ عليه أحدهما حتى يفتت، ثم يقرأ الآخر إلى آخر الليل، فيقوم إلى الاشتغال بالصلاة، فإذا صلى الفجر اشتغل بالدراسة حتى تطلع الشمس، فيفتتح مجلس التدريس، فإذا أتم التدريس جلس للقضاء والأحكام إلى الزوال، فيقوم ليشتغل بالصلاة، حتى قال بعض خواصه المتصلون به: "لا ندري متى ينام؟"

أبو يحيى

زكرياء بن ابراهيم الباروني 62

علم من أولئك الأعلام الذين يهتدي بهم الضال، ويثبت الخيران، ويلجأ إليهم الضعيف، جمع إلى غزارة العلم، وقوة الإرادة والشدة في دين الله، كرماً مطبوعاً، وحياء للخير متأصلاً، ورغبة ملحة في نشر العلم، وهداية الناس إلى دين الله السوي، فقد اجتمع في تلك النفس المؤمنة الصادقة كل الصفات والمزايا التي يودعها الخالق في بعض خواص خلقه لأداء رسالة في التاريخ، لا يؤديها كل أحد، وقد حمل أعباء تلك الرسالة، واستجاب له حتى أولئك الذين شذوا عن قبله في أغلب المملكة الليبية، ودانت له الدنيا، وأعطى بسطة في العلم والمال 63.

نعم لقد أعطى بسطة في المال حتى استطاع أن يفيض به على جميع الجبل، ولم يبق بيت من "ككلة" إلى "وازن" لم يدخله مال أبي يحيى زكرياء.

فهل تحصل على هذا المال بالطرق التي يعرفها الحكام في التاريخ القديم والحديث؟ وسائل غير شريفة، وطرق ملتوية، واستغلال نفوذ، ورشاوي وهدايا... إلى آخر ما هنالك من وسائل الابتزاز التي يعرفها ذوو السلطة المنحرفون عن سبيل الله.

إن أبا يحيى لم يأخذ مليماً واحداً عن طريق غير شريف، ولم يزر الأمة في قليل ولا كثير، ولم يجد قيد أئمة عن طريق أولئك السلف الذين لم ينحرفوا عن الطريق اللاب الذي تركه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ثم سار فيه أبو بكر فعمر، فالصفوة المختارة من عباد الله المؤمنين.

كان أبو يحيى ينفق على الأقسام الداخلية في مدرسته العامة التي تشتمل على عدد من الطلاب، يتراوح بين الخمسين والمائة طالب، وكان لا يزوره زائر ولا يسمع بأحد ابتلى بضيق الرزق، وأصيب بالحاجة، إلا نفحه من كرمه، وواسى جرحه بماله، وكان الناس إلى مشاهدتهم لهذه الأفعال الكريمة والنفقات الباهظة المتتابعة يعرفون سيرته واستقامته وعفته، فلذلك كانوا يختلفون في طريقه حصول الشيخ على هذه الأموال الوافرة، يقول بعضهم: إنه عثر على كنز جاهلي، ويقول بعض: إن معه الإسم الأعظم، فهو يستطيع أن يرد الحجر ذهباً، ويرى آخرون: إنه عالم في الكيمياء - على حسب ما يظن في الزمن القديم أن الكيمياء تستطيع أن تستخرج من النحاس أو غيره من المعادن ذهباً وهاجاً - أما أكثر القوم واقعية فقد سأل الشيخ عن مصدر ثروته: فأجابته بالحق الصراح:

لقد قال له: إنه اكتسب هذا المال من التجارة، ولا سيما في أيام الشدة، فهو رجل يعرف كيف يعمل، ويعرف موارد الكسب الحلال، إنه لم يعثر على كنز، وليس معه اسم الأعظم، ولا علم بالكيمياء، ولا شعوعة يستغل بها الأفكار الساذجة.

كان يقوم بمهمة التدريس إلى جانب قيامه بمهام الحكم والفتوى. وكان بمدرسته ما يزيد على ثمانين طالباً. وفي إحدى سنوات الجفاف التي كثيراً ما تصيب ليبيا، بلغت فيها الشدة مبلغاً أثرت على طلابه الذين ينفق عليهم في مدرسته العامة. وتذاكر الطلاب النجباء هذه الحال. وظنوا أنهم اثقلوا على شيخهم في هذه السنوات العجاف، فقرروا أن يتفرقوا، وأن يلحق كل واحد منهم بأهله وبلده، حتى تنقضى هذه الحنة، وتبدل هذه الحال. ويغدق الله نعمته على العباد..

وسمع الشيخ بما انفق عليه طلابه، فأمر أن يقدم إليهم الطعام من غير زيت. وحين حضر الطعام، أمر أحد الطلاب أن يأخذ إناء ويحضر الزيت من الخزن. وذهب الطالب النشيط وفي يده وعاء الزيت - وكان في الخزن مجموعة من الأزيار فكشف عن الأول لبأخذ الزيت ولكنه وجد الزير مملوءاً مالا، وكذلك انتقل إلى الثاني، حتى كشف عن مجموعة منها، ثم خرج إلى زملائه، فقال له الشيخ: أخبر رفاقك عما رأيت، فلما أخبرهم، قال لهم الشيخ: لقد سمعت بما قررتم من الافتراق، وهذا المال الذي أخبركم عنه زميلكم إنما جمع لينفق به على طلاب العلم من هذه المدرسة، ولو ذهبتهم أنتم، لأنفق به على غيركم، كما أن بقاءكم هنا لا يثقل عليّ، ولا يؤثر على حياتي. واطمأن الطلاب إلى ما رأوا وما سمعوا، واستمروا في كفاحهم العلمي.

وكما كان عالماً ومؤمناً وكرماً وقوياً في الحق، كان حريصاً على المحافظة على أمته ووطنه، يذود عنها في شجاعة واستبسال. حاول أبو يحيى بن إسحاق الميورقي عدة مرات أن يحتل الجبل.

بعد ما احتل أغلب شمال إفريقيا، وخرب ما وصلته يده من عمران، ولكنه رجع في جميع تلك المحاولات بالفشل الذريع، وكل ما استطاع أن يفعل في بعض تلك الهجمات، هو التخریب، وذلك العمل الذي لا يقوم به إلا المتوحشون من الناس. كون مرة جيشاً كبيراً، وقصد مدينة الجبل " جادو " وكان يريد أن يحتلها من مدخلها الطبيعي: من جهة الشمال، هذا المدخل الذي تستلقى عليه في فتنة وجمال مدينة " جناون " الرائعة، فلاقاه الأبطال المغاوير، الذين أعدهم أبو يحيى لمثل هذه المهمة، فرجعت جيوش الميورقي منهزمة، ولكنه رغم هزيمته استطاع أن يوقد النار في تلك الحدائق الغناء التي تسقيها عين " تموقت " الغزيرة، التي تندفع إليها مع شلال " القصب " 64 لفاتن الجميل.

واحترق في هذه الحدائق ما يزيد عن اثني عشر ألف شجرة زيتون خاصة، وعدد غير قليل من الأشجار الأخرى، وأصبح مكان تلك الحدائق يسمى بالمحاريق، إلى يومنا هذا.

ووجه " الميورقي " حملة أخرى إلى عاصمة جبل نفوسة منذ عصور قديمة، إلى المدينة العظيمة - مدينة " شروس " التي لا تزال آثارها تشهد بعظمة الإسلام في تلك العصور، وتوجه إليها مع مدخلها الشمالي، كما توجه إلى " جادو " وكان يعتقد وهو يندفع بجيوشه وسط هذا المدخل بين الجبال، أن المدينة العظيمة أصبحت بين يديه، ولا سيما وهي تنبسط على السفح، فتصلها الخيل دون عناء، ولكن الأبطال المغاوير الذين كانوا يترصدون حركات العدو من المدينة الجاثمة على القمة العالية الشرقية للوادي التي تسمى " الجزيرة " انقضوا في خفة الليوث على هذه

الجيوش، التي بدأت تتعثر بين مسالك الجبل، وامتلات قلوب هؤلاء المهاجمين بالرعب، فولوا الأدبار، لا يلوون على شئ.

وكم كانت ظريفه تلك الحيلة التي لجأ إليها سكان هذه القرية الضاربة في الهواء تطاول النجم وتغازل القمر.

لقد خطر للميُورقي أن يعاود الكرة، وأن يهجم هذه المرة على هذه القرية التي تسمى الجزيرة، والتي روعت جنده في يوم من الأيام، فيضربها الضربة القاضية، يستطيع من بعدها أن يستمر في حروبه دون خوف، فجهز جيشاً، وجاء به إلى سطح هذا الجبل الذي تقع في قمته الجزيرة الصغيرة الضاحكة، وأطال الحصار، واجتمع شباب القرية يتداولون الأمر، وفكروا في حيلة لعلها تعتبر أبرع حيلة قام بها المحاربون في التاريخ، وفي ليلة شديدة الظلام انفلت جمع من شباب القرية، وأخذوا مجموعة من الجمال وحملوها حطباً، ولما اقتربوا من جيش العدو الهاجع أمنا مطمئنا إلا عددا من الحرس منبئين هنا وهناك، يداعب النوم أجفانهم، ويلوى أعناقهم، وجه أولئك الفتية أعناق الإبل إلى معمعة الجيش، وفي خفة ولباقة أشعلوا النار في الحطب الذي على ظهورها، ثم انفلتوا هاربين وأحسست الجمال بالنار تلسع ظهورها، فاندفعت بما يملك من قوة محدثة جلبه ورغاء في ذلك الظلام الحالك، واستيقظ الجيش على هذا الدوي العظيم، والانديفاع العنيف، والنار المشتعلة، فظن القوم أنهم أحيط بهم، واندفع كل واحد منهم إلى سلاحه، يقتل من لاقاه أو أحس به، ويركن إلى الفرار...

وأصبح الصباح، فإذا بعدد غير قليل من جثث القتلى، وإذا بأموال وسلاح وعتاد خلفه الجيش المنهزم الذي قضى على نفسه بنفسه، وجاء أبو يحيى زكرياء وفتياناه فدفنوا الموتى من الأعداء، أما ما ترك العدو من أموال، فهي لا تخل لهم، ولذلك فقد رأى أكثر المشائخ في ذلك الحين: أنه يجب أن تحرق، وأن لا يتركوا شيئاً من المال الحرام يدخل إلى جبلهم، هذا الجبل الذي لا يزال يحتفظ بطهارة الإسلام.

لست أدري هل استوحى شباب هذه القرية حيلتهم البارعة من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق، أم أنها خطرت لهم دون أن يرجعوا إلى تاريخ الإسلام الحافل بالعظمة والبراعة والفكرة...

صمد أبو يحيى زكرياء الباروني لهجمات الميُورقي ولغيرها من الهجمات، ورد بعضها بالعنف ورد بعضها بالحيلة، ورد بعضها بالصلح، إنه حافظ على هذا الوطن العزيز الأبى، فلم تدنسه أقدام البغاة الذين لا يتقيدون بدين ولا خلق ولا ضمير... وذهب الميُورقي إلى ربه بما قدمت يداه، وحفظ التاريخ هذه الأمجاد..

أمجاد الإيمان والشهامة والعفة لهؤلاء الناس الذين وضعت في أيديهم أمانة الله فرعوها حق رعايتها، وأمانة الأمة حفظوها من أنفسهم، وحفظوها من عدوان المفسدين.

عدالة الإسلام في سير الحكام

حدثتك أيتها القارئ الكريم في الفصول السابقة عما يقرب من ثلاثين بطلا من أبطال الإسلام، من الذين تولوا الحكم في ليبيا، أو في بعض أجزاء ليبيا، ولم أقصد بالحديث عن هؤلاء الأبطال، أن أقص عليك تراجم حياتهم، أو أن أعرفهم لك تعريف المؤرخ الذي يعنى بكل شأن، ولا أن أربط بين تسلسل الأحداث التاريخية، لست أقصد شيئاً من ذلك، لأن هذا الكتاب لم يوضع للتاريخ، وإنما قصدت أن أعرض عليك صوراً من تاريخ الإسلام، في سير أبطاله، تجد فيها العلم والبطولة، وتجد فيها الإيمان والشهامة، وتجد فيها الاستقامة والعفة، وتجد فيها التضحية والإيثار، وتجد فيها صوراً من حياة المسلمين كما كانوا في الصدر الأول، وتجد فيها الوقوف عن حدود الله.

تلك الصور الرائعة التي تمثل العدل المطلق، والمساواة المطلقة بين أبناء الأمة، لا يرتفع فيها شخص إلا بإيمانه، ولا ينحدر فيها إلا بعصيانته.

ولقد كنت أنقل هذه الصور على بساطتها وأنا أمل أن يقرأها اثنان من الأمة: الأول رجل وجد منصبا في الدولة، وكرسيا

للحكم، وأعطى له حق التصرف في شأن من شؤون الشعب، وأملي في هذا الرجل الذي وضعت في عنقه أمانة من أمانات هذه الأمة - سواء كانت صغيرة أو كبيرة، وأملي في هذا الرجل أن يجد في هؤلاء الناس قدوة حسنة، فيتخذ منهم مثلاً يحتذيه، ويجعل من سيرتهم منهاجاً يسير عليه.

أما الثاني فرجل يقف في مصاف الشعب العادي، ليس له من الحياة والسلطان أو المال، ما يرفعه في أعين من يزنون الرجال بالمادة، وأملي في هذا الرجل أن يتخذ هو الآخر عبرة، وأن يعرف أن كرامة الإسلام تمنعه أن يرضى الظلم، وأن يسكت عن الانحراف عن جادة الله، وأن الحق يخوله أن يحاسب أولئك الذين يعثون بمقدراته، وأن الإسلام يجعله في صف واحد مع أكبر ذي سلطة في الدولة، وأعظم ذي ثروة في الأمة، لا يفضلانه بشئ أبداً إلا أن يكون تقوى لله وعملاً بدين الله.

وتاريخ صدر الإسلام في زمن النبوة والخلافة الرشيدة ليس فقيراً من أمثال هذه الصور التي أنقلها لك، من تاريخ جانب من جوانب الأمة، في جزء صغير من الوطن الإسلامي الفسيح، ولكن دعاني إلى أخذ هذه الشواهد من غير ذلك العصر الخافل بالمجد والعظمة سبب بسيط، وذلك أنني كثيراً ما أحدث مع الناس عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجيبني البارعون في النقاش منهم: "ذلك شخص عصمته الرسالة، وأولئك قوم شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستمعوا إلى الوحي وهو ينزل من السماء، فالمسافة بين طبيعة الحياة عندهم وطبيعة الحياة عندنا شديدة البعد.

ولقد يخيل لبعض الناس أن في هذا المنطق ظلاً من الحجة، ولكي يذوب هذا المنطق ويضمحل ذلك الظل، أوردت هذه الشواهد التي تنتثر خلال عشرة قرون من تاريخ الإسلام، وبين كثير من ظلم الحياة ومعاكسات الزمن.

وكما استطاع بعض هؤلاء الأبطال أن يسيروا بسيرة الإسلام النقية في أي عصر من عصور التاريخ، يستطيع اليوم أي رجل يتولى شأنًا من شؤون الأمة، أن يؤدي أمانته بإخلاص، فلا يعيث بمالها ولا بوقتها، ولا يستغل جاهه ولا مركزه، إلى آخر ما هنالك مما يجب أن يكون عليه الحاكم القويم الذي يؤمن بشريعة الإسلام، ويتحلى بما دعا إليه من خلق كريم.

وكما يجب أن يكون صاحب الأمر قويا، يجب أن يكون رجل الأمة - أي الفرد العادي - مؤمنا بدينه، مؤمنا بحقه الذي خوله له فاطر السموات والأرض، فلا يرضى المهانة، ولا يسكت على ذلة، ولا يوافق على ما يخالف أمر الله، فإن بدا لصاحب الأمر أن ينحرف، وجب أن يقف له رجل الأمة بالمرصاد، يقوم أعواجه بالنصيحة والإرشاد، فإن لم يجد النصح قومه بالسيف كما قيل لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

إن هؤلاء الأبطال الذين حدثتك عنهم، حكموا ليبيا أو جزءاً من ليبيا، وكان فيهم من بويع بالخلافة، فدان له ما بين " القيروان وسرت"، وكان منهم من كان عاملاً لخليفة، وكان منهم من تولى الحكم باختيار أصحاب الرأي والشورى، ولكنه لم يبايع بالخلافة، ولم يكن تابعا لدولة من الدول الأخرى، فهو أمير مستقل، يحكم

أغلب البلاد الليبية أو بعض أجزائها، فهم يتفاوتون تفاوتاً عظيماً في مدى السلطة الخولة لكل واحد منهم، ولكنهم جميعاً يتفقون في شيء واحد... يتفقون في هذه السيرة العطرة التي يعطي فيها صاحبها أكثر مما يأخذ.

لقد عرف هؤلاء الذين تولوا الحكم في ليبيا من رجال الإباضية، أنه لم يسند إليهم الحكم ليستغلوه لأنفسهم، ولا ليتخذوا منه سلطاناً، ولا ليجمعوا به ثروة، ولا ليتعالوا به على الناس الذين أولوهم ثقتهم، ووضعوا بين أيديهم هذه الأمانة الغالية.

وحافظ أولئك الحكام على هذه الثقة، فبذلوا من جهدهم، ومن تفكيرهم، ومن حبههم للمسلمين، ومن وقتهم الثمين، ومن مالهم الخاص الذي اكتسبوه من الأعمال الحرة - قبل أن يشتغلوا بأمور المسلمين أو ورثوه عن الجدود - بذلوا من ذلك كله ما يطلبه الإسلام من المؤمنين الصادقين؛ ولم يأخذوا من هذه المراكز الهامة يوم انفصلوا عنها بالاستقالة أو الموت غير الذكرى العطرة عند الناس. وعند الله الجزاء الأوفى...

إنك مهما تتبعت حياتهم فلن تجد لأحد منهم ذلك النعيم الذي يتقلب فيه أصحاب السلطة الظالمون، ولن تجد عندهم هذه الحواشي التي تخون الله والحاكم والأمة، فتقلب الحقائق وتشوه وجه الحق، وتنفخ الكذب والزور في أذن الحاكم ليغتري ويحيد عن سبيل الله، فإذا حاد فقد وجدوا ما يطلبون، وحققوا ما كانوا به يحلمون...

ولن نجد عندهم القصور الشامخة، والجواري الحسنان، إنهم كانوا يعيشون على شظف من العيش كما عاش خير الخلق عليه السلام. وكما عاش خلفاؤه الأتقياء من بعده، لا يشبع الواحد منهم في حياته الطويلة وكفاحه المستمر، بالخبز والزيت، وليس ذلك للحاجة والفقر، ولكنه لقوة الإرادة والتغلب على وسوسة الشيطان والهوى..

ولقد يسأل القارئ الكريم عن أسباب هذه الاستقامة التي وجدت في جميع حكام الإباضية تقريباً، لا يشذ عنهم إلا النزر اليسير؟ وللجواب عن ذلك نحيله إلى القواعد التي اعتمدها المذهب الإباضي في قضية الحكم، غير متأثر بعواطف الشيعة، ولا عنصرية الأموية، ولا ركة الشعوبيين؛ فالمسلم الإباضي لا يعترف بحق الوراثة في الحكم، ولا يصدق بقضية العنصرية، في اختيار الحاكم، ولا يطيع من لا يطيع الله ويقيم حدوده ويحكم بما أنزل ...

ولذلك فهو أولاً يختار من يضع بين أيديهم مقدرات الأمة، ويتبنى هذا الاختيار على الكفاءة المطلقة، الكفاءة العلمية والكفاءة الدينية، والكفاءة الخلقية، والكفاءة العقلية، ثم هو لا يقر على الحكم من ينحرف عن صراط الله المستقيم؛ الذي سار عليه النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون، والسلف الصالحون المصلحون.

فكان أولئك الناس الذين يقع عليهم الاختيار لتحمل أعباء الحكم، يجهدون أنفسهم للقيام بالواجب، والحفاظة على

السيرة المرضية، وهم مع هذا الحرص يخشون عذاب الله من التفریط، ويخافون نقد الأمة من التقصير، فإن الحاكم الذي يعجز عن القيام بالمهام التي أسندت إليه - إما ضعفاً عنها، أو انحرافاً عن سبيل الله - يجب عليه أن يتخلى عن هذه المسؤولية التي لم يستطع تحملها، فإذا خطر له أن يستمسك بها على هذا القصور أو التقصير، وجب قتاله وقتله، وإسناد الأمر إلى من هو أهله...

حدثتك إيهنا القارئ الكريم عن هؤلاء الرجال الذين أسند إليهم الحكم في هذا الوطن الكريم؛ ولم اخترهم لشرف الحكم كما قد يتبادر إلى ذهن بعض القراء الكرام. فأنا لا أرى في الحكم مظهراً للشرف، ولا مدعاة للفضل، إن الحكم في نظري ينقسم إلى قسمين: -

أحدهما: هذا المظهر هو أحقر عمل يسعى إليه إنسان يؤمن بدينه، ويؤمن بخلقه، ويؤمن بإنسانيته... أما أولئك الذين يزدحمون عليه في إصرار فهم حمقى، أعوزتهم العظمة في أنفسهم، فراحوا يلتمسونها في سلطة الحكم، ومهما بلغ أولئك الرجال من العظمة في ظنهم، فهم أحقر من أن ينظر إليهم التاريخ الحق نظرة التقدير والتعظيم. فإن العظمة لن تكون أبداً بمبالغ وافرة من المال، تؤخذ من الشعوب، ولا بأرواح كثيرة تزهق ظلماً وعدواناً، ولا بقهر وجبروت وطغيان مسلط على الضعاف؛ ولقد وصل الفراعنة إلى ما وصلوا إليه من جمع الثروة واستعمال السلطة، ولكنهم لم يكشفوا بكل ما فعلوه إلا عن أنفس مريضة تتطلب الخلود في دنيا الفناء....

ولقد انحط الفراغنة إلى أن ادعوا لأنفسهم الألوهية، فزعموا أنهم قادرون على الإمامة والأحياء. وإذا ساع للعقل الفرعوني أن ينحط إلى هذه الدعوى التي يعرف هو نفسه أنه كاذب فيها، فإن العقل الذي يحترم نفسه بعد هدايات الله المتواليات على طرق انبيائه، وبعد استنارة العقل البشري بما يجد كل يوم من الحقائق، يجب أن يرتفع عن الأوهام والأضاليل ...

على أن العقل الفرعوني السخيف الذي يضيء على نفسه عظمة المظهر لأنه يفتقد في عظمة الحقيقة.. لا يزال يحيا في هذا العصر. عصر العلم والمعرفة.. ومن المؤسف أن عدداً غير قليل من هذه الأشكال الجوفاء لا تزال تسيطر على مقدرات الأمة الإسلامية في بعض دولها.

ولست أدري والله ما هي الأعذار التي يلجأ إليها هؤلاء الناس؟ وهم يؤمنون برسالة محمد، ويتلون كتاب الله، ويدرسون سنة رسوله عليه السلام، ويعرفون سيرة السلف الصالحين.

ما يقول هؤلاء - وهم يحيدون عن النهج القويم الذي سار عليه أمناء هذه الأمة؟

وما يقولون - وهم يبتزون أموال الأمة - التي جعلهم الله قياماً عليها - بغير حق، ويتصرفون في دمائها بغير عدل، ويفصلون مشاكلها بغير علم؟ ...

ما يقول هؤلاء الحكام المسلمون؟ الذين وضعت بين أيديهم مقدرات الأمة، فأراقوا كرامتها في مجالس السكر، وموائد القمار، ودور البغاء والظواهر والبغاة الخفى؟..

ماذا يقولون حين يأخذون من مرافق الدولة ليضعوا في مرافقهم، ويسرقون من مال الأمة ليضعوا في أموالهم، ويعبثون بمصلحة الأمة لخدمة مصالحهم؟

ماذا يقول هؤلاء الحكام الذين منحوا الثقة ليحافظوا على أمانة الله، وعلى دين الله، فإذا بهم أول من يحارب أحكام الله، ويعطل حدوده، ويعبث بالأمانة التي بها أسندت إليهم مراكز الحكم؟

ماذا يقول القائد الذي ينشق فتتبعه مجموعة بشرية من مصاصي الدماء، ثم يهجم على بلد مسلم آمن، فيتلف الأموال، ويزهق الأرواح، لا لشئ إلا ليتمرغ في كراسي الحكم، ويعيث أعوانه في البلاد فساداً؟!

ماذا يقول هؤلاء الذين لا يفتأون يدبرون الانقلابات، لا للاستقرار والتنظيم، واتباع أمر الله! ولكن للتحكم في الأموال والأرواح، فإذا ما أتيح لأحدهم النجاح، حكم حكم فرعون، فاستذل عباد الله، وسرق مال الله، وسمح لأعوانه بارتكاب الفظائع، وأطلق يده في الانتقام، فقتل الأرواح دون حساب، وسجن الأبرياء دون جريرة؟

ماذا يقول هؤلاء المرضى، الذين لم يجدوا العظمة في أنفسهم، فراحوا يبحثون عنها في المظاهر؟ ...

وإنه لحق على الأمة المسلمة في مجموعة وطنها أن تطيح بهؤلاء الخونة الذين، خانوا الله، وخانوا رسوله، فلم يرجعوا إلى دين الله في أعمالهم؛ وأن خاسبهم حساب الخبير القدير، فلا تمنح كراسيها إلا للأقوياء على اتباع الحق، ولا تضع أموالها إلا بين

أبدي الأمناء على شريعة الله، ولا حَكَمَ في مصيرها إلا المخلصين الذين يبرهنون على إخلاصهم، وأن تجبر هذه الشراذم - التي تنعق في كل ركن من أركانها باسم دولة - على التخلي عن هذا الاسم، لتصهر هذه الدول الهزيلة المتناطحة في دولة إسلامية قوية، لا ترهب عدواً ولا تتملق أقلية كافرة تعيش في وسطها كما تعيش الجرائيم، وتعمل كما تعمل الطواير الخامسة في اصطلاح السياسة.

أما الثاني: فهو هذه التضحية الكاملة التي يقدمها الحاكم للأمة، إنه الشعور بالواجب المقدس الذي يتعالى فيه الشخص عن مكاسبه المادية، ومصلحته الشخصية، وينسى فيه نفسه وماله وأهله، ليقدّم للأمة ما يملك من جهد وفكر ووقت، والمؤمن حين يتولى الحكم من هذا السبيل، يجب أن يزيل من ذهنه أول ما يزيل: المتعة والراحة والسلطة والمال. لأنه خادم أمين مخلص، وخادم القوم سيدهم.

فالسعادة التي يملكها حاكم الأمة المسلمة، إنما هي في نفسه لا في مهنته، والسيادة النفسية لا تتنافى مع خدمة الناس، بل لعلها لا تكون سيادة حقاً إلا عندما تتجلى في هذا الجانب من الأعمال المبينة على التضحية ونكران الذات.

ولذلك فما من مؤمن حريص على إيمانه، حريص على كرامته، يسعى إلى أن يلي أمور الناس أو يقبلها إذا عرضت عليه - اللهم إلا في الحالة التي تحتاجه الأمة، ويكون قبوله لهذا الأمر ضرورياً، وفراره منه يؤدي إلى أضرار تلحق بها، فحينئذ يكون

واجباً من الواجبات التي لا يحل له أن يتخلى عنها، وفي تاريخ الأمة الإسلامية أمثلة رائعة من ذلك، فقد قبلها الصديق رضی الله عنه مكرها، بعد أن حاول أن يفر منها ويضعها على كاهل الفاروق أو أمين الأمة.

وقبلها علي بن أبي طالب مكرها وهو يقول للقوم: لأن أكون وزيراً خير لكم من أن أكون أميراً. وقبلها أبو الخطاب عبد الأعلى بعد أن خير بينها وبين القتل، وقبلها أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني بعد أن أقنعتة العجوز أن إعراضه عنها سيكون سبباً لدخوله النار.

وقد حمل الصديق أعباء الإمامة وهو يحاول أن يعمل كأي فرد في السوق، ليعول أفراد أسرته الكبيرة، وبقي. الفاروق انتنى عشر سنة في الخلافة فلم يتجاوز بذخه في الطعام الخبز والزيت، وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يكنس بيت المال كل جمعة، وعندما استعارت ابنته حلية من خازن بيت المال تزين بها لمناسبة عارضة ثم تردها، غضب على الخازن وهم بقطع يد ابنته وقال: لولا أنها استعارتها لكانت أول هاشمية تقطع يدها.

وكان عمر بن عبد العزيز يعيش في زمن الرغد الذي لا يوجد فقير تدفع له الزكاة، ومع ذلك فقد كان يطفئ السراج إذا انتقل الحديث إلى شأن غير شؤون الأمة، مخافة أن يبرز الأمة في قطرة من الزيت، وتوفى عبد الوهاب بن رستم الذي كان يحكم الجزائر وتونس وليبيا بعد عشرين سنة من الحكم، فأحصيت تركته

فبلغت سبعة عشر ديناراً. وحكم أبو زكرياء ستين سنة. وولد له طفل فلما طلبت منه زوجته النفساء أن يعث إليها بقليل من الزيت للاستصباح ودهن الطفل. اعتذر بأنه ليس لديه زيت ورجاها أن تستصبح بالخطب. وتغسل الطفل بالماء.

هؤلاء الأبطال. ومن سار بسيرتهم. وانتهج طريقهم. هم أمراء الإسلام. ولم ينقص من الصديق أنه كان يعمل في السوق كما يعمل أي فرد آخر من الأمة. ولم ينقص من عظمة الفاروق أنه لم يتجاوز في أكله الخبز والزيت. ولم ينقص من عمر بن عبدالعزيز أنه لم يتخذ عرشاً كما اتخذ بقية ملوك بني أمية. ولم يبلغ في أموال الناس ودمائهم. كما ولغ غيره من طلاب الدنيا.

إننى أكتب هذه الكلمة. وأنا ارجو أن يجد فيها القراء الكرام بعض العبرة وبعض القدوة. وأن يدرك أولئك الذين وضعت أمور المسلمين بين أيديهم في مختلف مرافق الحياة أن العظمة إنما تكون في النفس لا في المظهر. وأن متع الحياة مهما كانت مصادرها وشبكة الزوال. وأن يتساموا بأخلاقهم وأعمالهم عن دنس الأنانية. ورجاسة المادية. ووضر الانتهازية والانتفاعية. فإن تلك الأخلاق بقايا من الصفات الحيوانية التى علفت بالإنسان ينميها النظر القصير.

إنه يجب على كل من ولى أمراً من أمور المسلمين أن يعرف أنه إنما يأخذ مرتباً مقابل أن يدفع للأمة كل طاقاته. بما يملك من علم وقوة وعمل. لا يدخر وسعاً. ولا يبقى جهداً. وأنه ليس له أي

حق في أن يضيف إلى مرتبه الذي جعل أجراً له على جميع قواه. لا يحل له أن يأخذ شيئاً من الأمة بأي وسيلة من الوسائل زيادة على ذلك. وأن أي تقصير في البذل. أو أي زيادة في الأجر - بعد الأجر المقرر - إنما هو خيانة وسرقة.. فإذا لم يستطع الإنسان أن يقوم بمهمته. أو أن يصون يده. فيجب عليه أن يتخلى لمن يستطيع ذلك ...

كفاح الإباضية

للظلم في ليبيا

تنقل الكتب، كتب التاريخ، أن الإباضية قاموا بعدة حروب،
وعدة ثورات، فيما بين القرن الأول والقرن العاشر الهجري، فلماذا
أشعلوا نيران هذه الثورات، وقاموا بتلك الحروب ؟

وفي هذا الفصل أريد أن أعرض على القارئ الكريم أهم تلك
الحروب وتلك الثورات، وأعرض عليه أسبابها ونتائجها والغاية
منها.

عين عبدالرحمن بن حبيب أخاه إلياس عاملاً على طرابلس،
فقبض إلياس على عبدالله بن مسعود التجيبي وقتله خوفاً من
الإباضية، فغضب الإباضية وثاروا لهذا الظلم، فبايعوا الحارث بن
تليد إماماً، وأخرجوا عمال بني العباس، وكل ما فعلوه أن قتلوا
رجلاً واحداً مقابل صاحبهم عبدالله التجيبي.

أرسل عبدالرحمن بن حبيب من اغتال الحارث بن تليد وقاضيه
عبد الجبار المرادي، فغضب الإباضية لهذه الخيانة، وبايعوا أبا
الخطاب عبد الأعلى بالإمامة، وقلبوا نظام الحكم، دون أن يريقوا
قطرة دم واحدة، وكل ما فعلوه أن خيروا عامل العباسيين بين
البقاء فرداً من الأمة، أو السفر آمناً موفوراً.

تغلبت "ورفجومة" على "القيروان" وقتلت حبيباً بن
عبدالرحمن عاملها، وارتكبت من الفظائع ما يبرأ منه الإسلام،
فانتهكت الحرمات، وربطت الدواب بالمساجد، واعتدى المعتدون
على النساء في الطرقات، فاستغاث بعض أهاليها بالإمام أبي
الخطاب، فجهز جيشاً طهر به مدينة عقبة من عبث العابثين.

ارتكب ولاة الأغالبة ما يبرأ منه الإسلام في ليبيا، فكانوا
يأخذون الأموال دون حساب، ويريقون الدماء في إسراف، ويتنقلون
بين الأحياء المسلمة الضاربة في المراعي الشاسعة، فينتهكون
حرمة الصبايا الحرائر والغيد المصونات، دون رادع من خلق أو دين،
وغضب الإباضية من هذه الجرائم وهي ترتكب فيهم، فبايعوا أبا
حاتم المروزى بالإمامة، فطرد هؤلاء المعتدين، وأزاح عن الأمة ذلك
الكابوس الثقيل، ولما تفقد الإمام القتلى بعد انتهاء أول معركة
له مع أولئك البغاة الظالمين : وجد بعض القتلى من جيش العدو
قد سلبوا، فجمع جيشه ثم قال لهم: إن لم تردوا الأسلاب تركت
أمركم، وسارع الناس إلى رد الأسلاب، وأعلنوا التوبة..

إن هذه الحرب لم تشرع للغنيمة، وإنما شرعت دفاعاً عن
النفس والعرض والمال..

ارتكب الولاة الظالمون في القيروان من الإرهاب والقتل وأخذ
الأموال ما يستفز الحليم، فاستغاث بعض أهلها بأبي حاتم،
فجاءهم وحاصر القيروان مدة تزيد عن السنة، وحينما دخلها
بعد الحصار الطويل أمن الجميع، أما الجنود المرتزقة الذين كان
يجمعهم الأغالبة من كل مكان ليعيثوا بهم في الأرض فساداً،

فقد أطلق أبو حاتم سراحهم، ليرجعوا إلى أهليهم، وزود كل خمسة منهم بعصا وموسى وقربة ماء، وأعطى لكل واحد منهم رغيفا من الخبز؛ وهذا الموقف لم أسمع بمثيل له في تاريخ البشرية.

هاجم العباسيون أئمة الإباضية عدة مرات من الشرق، فلم يرد أولئك الأئمة عن دفاعهم في الميدان، وكلما انتصر الإباضية وقفت أعمالهم الحربية عند انتهاء المعركة، وكلما انتصر المهاجمون المعتدون ارتكبوا من الفواحش ما تقشعر منه الأبدان، فلم يسلم منهم مال ولا عرض، ولم ينج منهم فار ولا مسالم، ثم تعدوا ذلك إلى المثلة بالقتلى، فاحتزوا الرؤوس، وبعثوا بها إلى القاهرة أو بغداد.

كان للأغلبية جند وافر من المرتزقة الذين لا دين لهم ولا ضمير وهم خليط من شذاد العرب والبربر وغيرهم، وكانوا تعودوا النهب والسلب والغنائم في حروبهم، وعندما تطول مدة السلام يسأمون، لأن السلام لا يزيد في ثروتهم الحرام، فخرجت شرذمة منهم إلى الأحياء الضاربة حول طرابلس، وارتكبوا ما تعودوا أن يرتكبوه، فاستغاث المظلومون بالإمام عبدالوهاب الرستمي، وكان حينئذ مقيماً في "ميري" إحدى قرى بني زُهور "الرجبان اليوم" فجهز جيشاً وحاصر طرابلس حتى لأن عمال الأغلبية للحصار، وعقدوا مع عبدالوهاب صلحاً بأن تكون طرابلس المدينة والبحر للأغلبية، وأن يكون ما عدا ذلك تابعاً للإمام عبدالوهاب. سرق ابن طولون أموال الدولة من خزانه أبيه، وكون جيشاً من

مواليه، واجه إلى المغرب، فمر ببرقة، وجاء إلى طرابلس، وارتكب من الفواحش ما يبرأ منه الإسلام، فاستغاث الناس من ظلمه بأبي منصور إلياس؛ على أنه لم يكتف بما ارتكب، فبعث رسالة إلى أبي منصور يأمره فيها بتقديم الطاعة، ويهدده إذا هو لم يسارع بذلك، بأن يوطئ الخيل بلاده ويستبيح حرمه.

وجهز أبو منصور جيشاً، والتقى مع هذا الفتى المغرور في قصر حاتم، وانهزم المعتدون، وطار ابن طولون على فرس سابق، تاركاً وراءه عدداً من القتلى وثمانمائة حمل من الذهب منتثرة في الميدان، فلم يأخذ منها أبو منصور وجيشه ديناراً واحداً يحتفظون به للذكرى، أو يضعونه في دار الآثار، وترك المال لمن يسعى إلى جمع المال، ورجع شهماً شريفاً، كما جاء شهماً شريفاً.

قرر إبراهيم بن الأغلب القائد المجنون الذي - لا يتورع عن أكل الرؤوس الآدمية أن يمر بالأراضي الليبية ليغزو مصر، وتوقع الناس المصائب التي تنجر عن مرور هذا المجنون، والجراد الذي يقوده، فاعترضه الإباضية بقيادة أفلح بن العباس في قصر "مانو" وحاولوا رده عن المرور بأراضيهم، ووقعت بينهم حرب طاحنة انتصر فيها الطاغية المجنون.

سعى خلف النكارى أن يستقل بجبل نفوسه، فلم يتمكن من ذلك، فجهز جيشاً وهجم به على أبي عبيدة عبدالحميد في مركز حكمه بجادو، وانتصر أبو عبيدة، فلم يزد أن منع جنده من أخذ الغنائم والإجهاز على الجرحى واتباع الدبرين.

بعد وفاة أبي عبيدة تولى الإمارة على ليبيا "ماعد المدينة"

العباس بن أيوب، وفكر خلف النكارى أن يعيد الكرة. فجهز جيشاً وهجم به على العباس. فانتصر العباس أيضاً. ولم يزد على أن أخرج العدو من الحوزة أو من حدود المملكة. لم يحتز رأساً. أو يغنم مالا. أو يجهز على جريح. أو ينتقم من برئ إنها سيرة أسلافه المؤمنين. لا يحيد عنها.

وقعت بعد ذلك عدة حروب لا تزيد عن غارات توجه إلى جبل نفوسه الذي حافظ على استقلاله. غالباً ما يكون القصد منها الاستيلاء على ما أمكن من الأموال. فكان أولئك الأبطال يردون تلك الغارات. ويصمدون لتلك الحروب. فينتصرون. وحينئذ لا يجد منهم أعداؤهم أي سوء بعد انتهاء المعركة. وقد ينهزمون فيجدون من أعدائهم كل عنف.

هذه أهم الحروب والوقائع التي قام بها الإباضية في ليبيا. وهي في جملتها وتفصيلها كفاح ضد عدوان يرتكبه عمال ظالمون لملوك ظالمين. ولو رجعت إلى هذه المعارك واحدة واحدة لو وجدت أن الإباضية لم يشهروا سيفاً إلا دفاعاً عن نفس بريئة تقتل. أو حرمة مصونة تنتهك. وأنهم في جميع هذه المواقف التي دافعوا فيها الظلم. وردوا العدوان لم يبدأوا أحد بقتال. ولم يرتكبوا شيئاً ما يخالف سيرة العدول من أمة محمد صلى الله عليه وسلم. فما حفظ التاريخ عنهم أنهم غنموا مالا. أو خانوا عهداً. أو أراقوا قطرة دم بعد أن تنتهي المعركة. وترجع السيوف إلى أغمارها. أو اتبعوا مدبراً. أو أجهزوا على جريح. أو احتزوا رأساً من الرؤوس التي بغت عليهم فظفروا بها. أو هتكوا حرمة لمسلم. رغم ما يرتكبه فيهم محاربوهم من طغيان وتجاوز

لأحكام الإسلام.

ولعل الحرب الوحيدة التي بدأوا بها وأعلنوا فيها القتال قبل أن يبدأهم أحد. هي الحملة التي وجهها أبو الخطاب عبد الأعلى إلى القيروان. ولكن الظروف التي حملت أبا الخطاب على هذه الحرب جديرة أن تحمل كل قلب ينبض بالإيمان أن يقوم. وأن تحرك كل سيف يدافع عن دين الله أن ينطلق إليها. فقد أحتلت "ورفجومة" القيروان بعد أن قتلت حبيب بن عبدالرحمن ابن حبيب. وليس هذا بالسبب الذي يحمل الإباضية على محاربتهم. ولكن ربط الدواب في المساجد. وارتكاب الفواحش علناً في الشوارع. واصطياد الحرائر أمام أعين الناس واغتصابها.

أعمال لا يقوم بها حتى المتوحشون من أعداء الله. فكيف يقوم ينتسبون إلى الإسلام؟ فلما بلغت هذه المناكر التي تقع في مدينة وضع حجرها الأساسى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. لم يصبر أبو الخطاب عن دفع هذا المنكر. وتطهير المدينة الصحابية من هذا الرجز ...

تلك هي الحقائق التاريخية للأحداث الحربية التي قام بها الإباضية في ليبيا.

وتلك هي الأسباب والغايات التي دعتهم إلى القيام. فما هو الموقف الذي ينتقده عليهم الدين. أو الشرف. أو المروءة؟ وفي أي حركة من هذه الحركات يصح ما يقوله بعض المؤرخين المعاصرين من أن الإباضية يبحثون عن الفتنة. وما واثمتهم فرصة للثورة إلا ناروا؟!

إن الإباضية أبغض الأمة لإراقة الدماء. وأبعد الناس عن أن يكونوا سبباً في إشعال حرب. وحينما يضطرون إلى ذلك بسبب العدوان الصارخ الذي يسلطه الجبابرة. لا يزيدون عن رد هذا العدوان بأيسر سبيل. وبأقل ما يمكن من الأذى. وهم في كل ذلك ينظرون إلى هؤلاء المعتدين بنظرة الأخ إلى أخيه الخاطئ. يحاول أن يرد أذاه دون أن يلحق به أذى. وراجع أيها القارئ الكريم كتب التاريخ المطولة عن مواقف الإباضية ضد المعتدين عليهم. إقرأ ذلك حتى عند أشد الناس بغضا لهم. مثل الأستاذ الزاوي. فإنك إذا تأملت حقائق التاريخ وأحداثه وجدت فيه الصورة التي رسمتها لك. ولم يستطع الأستاذ الزاوي - مع حرصه على تنقص هؤلاء القوم - على أن يزيد عن كلمات سباب يطلقها عليهم فيرميهم مرة بالبحث عن الفتنة. ومرة بالتماس الثورة. وقد يرميهم دون خوف من الله بالمنافقين 65.

قال لي أحد الإخوان وهو يطالع فصلا من فصول الحلقة الأولى من هذا الكتاب: إنك تدافع عن الإباضية في حرارة. فقلت له إن موقفني هو موقف الإباضية في جميع أدوار تاريخهم. إنهم لم يبدأوا يوماً بالعدوان. سواء كان ذلك في الميدان العسكري أو في الميدان العلمي. ولكنهم في أكثر الأحيان يقفون موقف الدفاع المشروع الذي تدعوا إليه عزة الإسلام وكرامة الإنسانية. وليس ذلك الدفاع خاصاً بالميادين العسكرية. فإن طريقتهم في الدفاع واحدة: لابغي ولاعدوان. ولا سلطان للغضب على نفوسهم وألسنتهم. وهم في دفاعهم العلمي عندما يردون العدوان على الفكرة. أو العدوان على المبدأ. أو العدوان

على العقيدة. لا يتجاوزون في دفاعهم الحدود للنقاش النزيه. والاعتماد على الأحداث الواضحة من التاريخ والبراهين البينة من الكتاب والسنة وسيرة السلف. أو الحجة الظاهرة من المنطق المعقول. ثم هم في كل ذلك لا يضيعون الفرصة على الخصم. ولا يغلقون في وجهه الأبواب. ولا يقيمون دون آراء غيرهم الحواجز. ولعل علماء الإباضية بلغوا في إنصاف المخالفين لهم درجة لم يبلغها علماء أي طائفة أخرى. سواء كانت دينية أو فكرية. والذي يطالع أي كتاب من كتب الإباضية المطولة. لا ينتهي من قراءته حتى يعرف إلى جانب آراء الإباضية آراء غيرهم من المذاهب الإسلامية. ويعرف الأقوال الراجحة عند الإباضية وعند غيرهم من المذاهب الإسلامية الأخرى. وليس ذلك في مقام الرد. بل في مقام البحث والتفصيل. وبسط المسائل وشرحها. واستخلاص آراء العلماء ونظرياتهم. وبينما يقف أغلب علماء الفرق الأخرى من الإباضية موقف المتحيز المستوفز. المنكر لوجودهم. الجاحد لثرائهم الفكري القيم. يعاملهم الإباضية بكل تسامح وإنشراح صدر. إن الموقف العلمي بين الإباضية وغيرهم شبيه كل الشبه بالموقف العسكري: تفهم وتسامح واحترام آراء. وتعامل إسلامي من جانب: وعدوان وجحود وإنكار من الجوانب الأخرى. ولسنت أدري أي السبيلين أقرب إلى الخلق الكريم وأدنى إلى الحق. وأهدى منهجاً ومسلكاً !!!

ولعل الله ييسر لي السبيل للعمل. فأضع صورة للمقارنة بين الموقفين في بعض فصول هذا الكتاب.

كلمة الختام

اللهم إليك وحدك أرفع عملي.
وإليك وحدك أوجه بدعائي.
فلا تكلني إلى نفسي فأهلك.
وأحفظني من الزلل.
وسدد خطاي. وألهمني رشدي.
وأغنني برحمتك عن خلقك يا أرحم الراحمين.